AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01047 0593

FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة

Y

ال

Mahmūd, Mahmūd
Taḥlīl al-nafs
BF
173
M2X
c.1

تحليل النفس

تأليف

محمود محمود

يطلب من :

مكتبة مصر ومطبعتها

٣٦ شارع الفجالة — تليفون ٥٨٩٢٠

مطبعة مكتبة مصر — ٣٦ شارع الفجالة

13/
M278

١٣١,٢٤
٢٩٠ت
م

27655

مقدّمة

لم تكن العلوم فى أول نشأتها مقسمة — كما هى اليوم — إلى فروع مختلفة ، وإنما كانت المعرفة الإنسانية شيئاً واحداً ، كمعارف الطفل الصغير ، الذى يجمع شتات التجارب دون تقسيم أو تمييز . وبقيت العلوم كذلك أمداً طويلا ، ثم أخذت تتشعب وتتفرع ويستقل بعضها عن بعض ، وكان أرسطو أول من فصل علم النفس عن بقية العلوم ، فهو بحق مؤسس هذا العلم ، وأول من وضع حجراً فى بنيانه . وتعتبر رسالته « فى الروح » أول كتاب فى هذا الباب . ورغم أن الموضوع قديم يرجع إلى عهد اليونان ، إلا أن اسمه بالفرنجية (Psychology السيكولوجى) حديث العهد ؛ وأول من أطلق عليه هذه التسمية جوكلينيس Goclenius الذى نشر كتابه سنة ١٥٩٠ تحت عنوان «سيكولوجيا» ، والكلمة مؤلفة من مقطعين : Psyche (أى الروح أو النفس) و Logos (أى كلمة أو حديث — أو علم) — أى علم النفس . ولذا فإن هذه التسمية كانت تتناسب ومادة الموضوع ، فاحتفظ بها من ذلك الحين فى اللغات الغربية ، ثم نقلت إلى العربية بعد ترجمة مقطعيها وتعريبهما .

كان أرسطو إذن — كما قلنا — أول من جمع المعلومات القديمة

الخاصة بالروح ، ونظمها ورتبها وبوبها فصولا ، وكان الإغريق عامة ينظرون إلى النفس والروح والعقل ، كأنها شيء واحد ، ولم يقيموا للجسم وزناً ما ، ولذا فإن مدلول كلمة (روح) عند الإغريق أوسع منه اليوم فى جميع اللغات . وبقى العقل والروح لاينفصلان فى نظر الباحثين حتى كانت العصور الوسطى وما فيها من جدل فى أمور الدين ، فانفصلت دراسة العقل عن دراسة الروح ، واختص بالأولى علماء النفس (أو الفلاسفة) ، واختص بالثانية علماء الدين وإذن فقد انتقل علم النفس من دراسة الروح إلى دراسة العقل .

ولبثت العلاقة بين العقل والجسم أمراً غامضاً ، ولغزاً غير مفهوم حتى أواخر العصور الوسطى ، حين ظهر ديكارت (١٥٩٦ — ١٦٥٠) ، وهو المؤسس الثانى لعلم النفس بعد أرسطو ، فحدد العلاقة بين المادة والعقل ، وقال : إن أهم مايميز المادة أنها تشغل حيزاً من الفراغ ، وأهم مايميز العقل هو الشعور ، ومن ذلك الحين أصبحت دراسة علم النفس هى دراسة الشعور .

والشعور كما يفهمه ديكارت ، هو ذلك الإحساس الذى يتزايد تدريجاً ، حينما ينتقل المرء من السبات العميق إلى اليقظة التامة ، وهو إحساس شخصى ذاتى ، لايحس به إلا صاحبه ، ولذا فدراسة الشعور لا يمكن أن تكون إلا بطريق التأمل الباطنى ، حيث يفكر المرء فى شئون نفسه ، وفى مشاعره وإحساساته ، وله وحده القدرة على الحكم عليها . ومن النتائج الطبيعية لهذا الاتجاه فى دراسة علم

النفس — دراسة الشعور — ألا يأبه الباحثون إلا بما يعمله المرء وهو يقظ تمام اليقظة ، أما مايقوم به على غير وعى منه ، كالحلم وخواطر اليقظة السانحة ، فلا أهمية له البتة ، وعلى هذا فدراسة النفس تقتضى دراسة السلوك الظاهرى الذى يمكن ملاحظته ومشاهدته — بل ويمكن إخضاعه للتجربة . ومن ثم بات علم النفس علما موضوعياً ، وموضوعه دراسة السلوك . وقد لايرى القارئ فى موضوع علم النفس — على هذه الصورة — وموضوع علم وظائف الأعضاء فارقا يذكر ، ولكننا نذكره أن علم وظائف الأعضاء يدرس سلوك كل عضو على حدة ، أما علم النفس فيدرس سلوك الجسم كتلة واحدة ، وما يقوم به من ردود الأفعال للبواعث الخارجية .

وهكذا نرى أن علم النفس تخلص أولا من دراسة الروح ، ثم تخلص من دراسة العقل دراسة نظرية بحتة ، ثم تخلص من دراسة الشعور ، وأبقى على دراسة السلوك وهو مظهر الشعور .

ولبثت الكثرة الغالبة من علماء النفس ترى هذا الرأى وتنظر هذه النظرة حتى جاء « سجمند فرويد » فنبه الأذهان إلى أهمية دراسة ما وراء الشعور (أو اللاشعور) وقال بأن أعمال الإنسان جميعاً تصدر عن بواعث لاشعورية فى العقل الباطن ، ولذا فالأحلام والخواطر وما إليها لها أهميتها الكبرى فى الكشف عن مكنونات النفس . وعلى هذا الرأى بنى نظرية شاملة يعلل بها مظاهر السلوك جميعاً ،

وأنشأ مدرسة تعتقد بعقيدته ، وأصبح له أتباع كثيرون ينشرون آراءه ونظرياته ويفسرونها ، كما بات له كثير من الخصوم والمعارضين .

ولعل اتجاه فرويد فى دراسة علم النفس هو أهم ما يشغل العلماء فى هذا الميدان فى هذا العصر ، وقد صدرت فى تأييده أو نقده كتب عديدة باللغات الأجنبية ، ولكن العربية - فى ما نعلم - لم تحظ حتى اليوم بكتاب يعرض نظريته ويعلق عليها بالنقد والشروح .

والبحث فى هذا الموضوع شائك وعسير لأسباب عدة ، منها أنه يقوم على دراسة الغريزة الجنسية وأثرها فى السلوك ، والكلام فى هذه الغريزة دقيق خطر ، نظراً لقوة التقليد ، ولما يحوطها من الغموض والإبهام واشمئزاز الجمهور من التحدث فيها صراحة ؛ ومنها أن الموضوع يبحث فى اللاشعور وهو شىء كثيراً ما يخفى علينا ولا نكاد ندرك وجوده ، ومنها أن هذا الفرع من العلم حديث لم يتفق بعد - وبخاصة فى اللغة العربية - على مصطلحات عامة له تسهل التعبير عنه .

ولكن هذه العقبات وغيرها لن تثبط من عزمنا على عرض النظرية للجمهور عرضاً مبسطاً ميسراً يفيد منه المدرس والطبيب والطالب ، بل وكل قارىء وقارئة . ولكن الموضوع واسع الأطراف متشعب النواحى ، وهذه من أولى المحاولات فى العربية لبسطه وعرضه ، ولذا فنحن لانزعم لأنفسنا أننا وفقنا فى استقصاء كل ما يشتمل عليه الموضوع ، أو أننا ضربنا من الأمثلة ما لاغنى

بعدها لمستزيد ؛ وإنما كل أملنا من هذا الكتاب أن يحفز القارىء إلى التوسع والاستزادة ، وأن يكون الحلقة الأولى من سلسلة من المؤلفات تخرج فى هذا الموضوع ، ويكون حظها من العناية والدقة أكبر من حظ هذا الكتاب .

وقد قلنا أن فرويد هو أول من عنى عناية كبيرة بدراسة اللاشعور ، وقد سمى طريقته فى البحث « التحليل النفسى » ثم تبعه كثير غيره من الباحثين ، ومن أشهرهم وأبعدهم صيتاً وأطولهم باعا « آدلر » و« يونج » ، وسنحاول فى هذا الكتاب ألا نقتصر على عرض نظرية أحدهم دون الآخر ، ولكنا سنقدم للقارىء ـ جهد الطاقة ـ مزيجاً مؤتلفاً من نظرياتهم جميعاً .

تاريخ التحليل النفسى ومباحثه

كان فرويد - كما أسلفنا - أول الباحثين بحثاً جدياً منظماً فى تحليل النفس ، ولكنه لم يكن فى الواقع أول من أبدى الملاحظات الأولى فى هذه السبيل ، وإنما سبقه فى ذلك رجلان ، أولهما شاركو Charcot الطبيب الفرنسى المختص فى الأمراض العصبية ، فقد لاحظ أن جميع المصابين بالنورستانيا والأمراض العقلية الذين عرضوا عليه للعلاج كانوا يشكون اضطراب علاقاتهم الجنسية بالجنس الآخر ، وثانيهما جوزيف بروير Josef Bruer الذى كان يشتغل بعلاج الهستريا فى أواخر القرن الماضى ، وكان يعمد إلى التنويم المغناطيسى فى طريقته ؛ والتنويم حالة تشبه النعاس يسهل فيها على الطبيب أن يؤثر فى المريض ، ويسهل على المريض أن يجاوب الطبيب .

وقد لاحظ بروير أن المرضى كثيراً مايذكرون أثناء نومهم حوادث تغيب عن ذاكرتهم فى اليقظة ، فكان بذلك يصل إلى كثير من أسرار المريض الدفينة التى تخفى على المصاب نفسه ، وكان أكثر مرضى بروير من النساء ، وكان يقص لهن بعد يقظتهن ما أبحن به أثناء التنويم ، فيشاهد تقدماً فى صحتهن العقلية بعد ذلك ، ومن هذا وصل بروير إلى نظريته ، وهى أن الهستريا لن تزول مادام بعض

الذكريات دفيناً فى النفس ، ومادام المريض مصاباً « بالأمنزيا(١) » ، فإن ذكر المريض فى يقظته تلك الحوادث الخافية زال عنه المرض . وهذه الحوادث قد تكون تافهة فى ذاتها ، ولكن أثرها كبير فى سلوك المريض .

وكان الرأى السائد قبل بروير أن أعراض الهستريا تنشأ عن اعتلال فى المخ أو عن اختلال فى خيال المريض ، وأن لا علاقة بين مكنونات الذاكرة وحوادث الماضى وبين المرض .

وكان فرويد فى ذلك الحين يشتغل بالبحث فى علم التشريح ، واشتغاله لايجدى عليه من الربح مايعوض عليه مشقة العمل ، فهجر التشريح إلى علاج الأمراض العصبية ، واشترك مع بروير ، واتخذ طريقته فى العلاج أول الأمر ، وهى البحث عن خفايا النفس بطريق التنويم المغناطيسى . ولكن فرويد لاحظ أن العلاج لايجدى فى كثير من الأحوال ، وأن الهستريا قد تختفى اليوم وتظهر فى الغد ، والمرض قد ينتقل من عضو من أعضاء الجسم إلى عضو آخر ، كما لاحظ أن بعضاً من المرضى لا يستجيب للنوم ، فأخذ على نفسه أن يبحث عن طريقة أخرى أجدى من التنويم وأكثر منه نفعاً . فعدل

---

(١) « الأمنزيا » Amnesia اصطلاح فى علم تحليل النفس معناه فقدان الذاكرة أو النسيان المطلق ، وكثيراً ماينجم عن كبت الحوادث فى النفس كبتاً شديداً ، وقد ينتاب من يصاب بالارتجاج المخى فينسى المريض كل ماوقع له قبل هذا الارتجاج .

عن هذه الطريقة واستعاض عنها بالتحدث إلى المريض فى يقظته . فكان يطلب إلى المريض أن يرسل خواطره إرسالا فى الأمر الذى يشغل باله ، ويذكر كل مايعن له ، وتطورت هذه الوسيلة إلى طريقة « تداعى المعانى المطلق » ، وهى الآن حجر الزاوية فى طريقة فرويد للعلاج ، وذلك أن المريض لايتحدث فى موضوع بعينه ، ولايركز ذهنه فى شأن بذاته ، وإنما يترك خواطره تجرى على طبيعتها وتتنقل من موضوع إلى آخر ، ويبوح للطبيب بكل مايطرأ له مهما كان مخجلا أو تافهاً . وقد لاحظ فرويد أن كثيراً من مرضاه يذكرون أحلامهم فيما يذكرون : ويربطونها بحوادث اليقظة : فتنبه إلى أهمية الأحلام وأدخلها على طريقته ، فكان يطلب إلى مرضاه إن يقصوا أحلامهم ، وأن يرووا له كل مايذكرون مما يتعلق بها .

ولاحظ فرويد كذلك أن المريض بطبعه لا يميل إلى الإباحة عما بنفسه ويجنح إلى المقاومة ، وأن الطبيب ينبغى له أن يستحث المريض على التحدث وعلى رواية ذكرياته القديمة : فإن أفلح الطبيب فى حض المريض على الإفصاح عما يخفى وجد أن تلك الذكريات ، التى كان المريض حريصاً على سترها ، تتعلق كلها بالشئون الجنسية ، وتتنافى وقواعد الأخلاق التى يعتقد فيها المريض وهو فى وعيه . وعلى هذا فعقل المريض أبداً فى صراع وتنازع لأن بعض رغباته قد وجد سبيله إلى الخروج والتنفيس وبعضها الآخر انحبس فى اللاشعور ولم يخرج إلى حيز الشعور . ولما كان لابد لهذه الرغبات

الدفينة من التعبير عن نفسها بوسيلة ما ، ولما كان المريض يقاوم خروجها الى دائرة الشعور فإنها تعبر عن نفسها بطريق غير مباشرة وتسبب للمريض شذوذاً فى سلوكه أو نوعا من النورستانيا . والنورستانيا - فى ما يرى فرويد - ليست مرضاً بالمعنى المعروف ، وانما هى وسيلة من الوسائل العديدة المختلفة يتخذها المرء دفاعا له عن المشقات النفسية والاجتماعية التى يلاقيها . ولايختص بها نفر دون الآخرين ، وإنما هى تصيب كلا منا بمقدار ، ولكنا لاندرك مظاهرها إلا حين تشتد وتخرج عن الحد المألوف .

وقد رأى فرويد أن هذا الشذوذ العقلى كثيراً ما يزول لوقت مل ثم يعود ثانية ، وحاول أن يتبين علة ذلك ، وبعد البحث والتعليا اتضح له أن المرضى كثيراً مايذكرون له حوادث يزعمون أنها وقعت لهم أيام الطفولة ، فإذا ما استدعى الوالدين وسألهما عن صحة ما يروى المريض تبين له أن المريض لم يكن صادقاً فيما يقول ، ولكنه كذلك لم يكذب عامداً ، وإنما هذه الحوادث التى يرويها كانت خواطر وهمية يحلم بها فى يقظته أيام الطفولة ، وأحلام اليقظة طريقة من طرق التنفيس عن الرغبات المكبوتة ، لأن العاشق المحروم - كما نعلم - يحلم بلقاء معشوقته كما يحلم الجائع بشهى الطعام . ومن ثم تنبه فرويد إلى أهمية الخواطر فى تحليل النفس كما تنبه إلى أهمية الأحلام من قبل .

* * *

ومما سبق يتبين لنا أن علم النفس التحليلي وليد المشاهدة والتجربة ، وأن فرويد تطرق من جمع الأمثلة المختلفة الى بناء النظرية ، ولم يبدأ بفرض النظرية - كما يظن بعضهم - ثم حاول تطبيقها على ما وقع بين يديه من الأمثلة . ولم يكن لفرويد حين بدأ البحث غير موهبته الطبيعية ، وشغفه بالمعرفة ، وملاحظات شاركو وبرويير التى أشرنا اليها فيما سبق ، وعقيدة ثابتة بأن الظواهر العقلية - حتى التافه منها - لها مقدمات محدودة معينة كما للحركات البدنية سواء بسواء ، وأن لكل شيء سبباً ، إذ كان فرويد يعتقد بالجبرية وبارتباط النتائج بالأسباب ولم يتسع صدره لقبول المصادفة والاتفاق فى تعليل الظواهر .

والنظرية الأولى من سيكولوجية فرويد هى أن أعراض الهستريا والشكل الذى تظهر به تتوقف على ماوقع للمريض فى تاريخه الماضى ، فإن كل ما يحدث لنا - كما يرى فرويد - قد ينسى ولكنه لن يموت ، بل يظل - رغم كمونه وخموده - فعالا ، وعليه تبعة كثير مما نعمل فى حاضرنا ومما نألم منه فى حياتنا . فاللاشعور إذن ليس شيئاً كامناً خامداً ، وإنما هو - على غير وعى منا - ثائر فعال . ولم يأت فرويد فى هذا الرأى ببدعة جديدة ، فقد سبقه إليه الفيلسوف شوبنهور ، كما سبقه (فون هارتمان Von Hartmann) ، ولكن فرويد هو صاحب الشرح والتعليق : وسنتحدث عن اللاشعور بشيء من التفصيل فى فصل مقبل من فصول هذا الكتاب .

وكما تنبه فرويد إلى أهمية دراسة الأحلام والخواطر للكشف

عن الطبقات العميقة فى العقل ، تنبه كذلك إلى أهمية الفكاهة والنكات ولاحظ مابينها وبين الأحلام من أوجه الشبه ، فهى كذلك تنم عن الرغبات الدفينة فى النفس ، لأن النكتة فى أغلب الأحيان تدور حول مايشغل الذهن ، ومن هذا ماتسمعه كثيراً فى الأوساط المصرية ـ والوضيعة منها بنوع خاص ـ حيث تكاد لاتخرج النكتة عن تورية فى الشئون الجنسية . وكذلك أدرك فرويد العلاقة بين الفنون الجميلة والغريزة الجنسية ، فالمثال والمصور كلاهما كثيراً مايرسمان جسم المرأة العارى ، والشاعر كثيراً مايستهل القصيد بالغزل ـ حقيقة أو وهما ـ وهكذا . . .

ولما كانت الغريزة الجنسية ـ فى نظر فرويد ـ هى مبعث الصراع العقلى ، وسبب كل ضروب النشاط الإنسانى ، فقد توفر على دراسة هذه الغريزة ، وأخذ يتتبع نشأتها ، وانتهى من الدرس بإخراج كتاب عنها لدى الأطفال نشره بعد كتابيه عن الأحلام وعن الفكاهة . ويقول فرويد فى هذا الكتاب : إن الجانب الأكبر من الغريزة الجنسية يحيا حياة باطنة على خلاف مانتوهم ، وإن النشاط الذى ينبعث عنها له قدرة عجيبة على الانتقال إلى ميادين أخرى من أعمال الإنسان غير ميدانها الطبيعى : وعلى هذا فإن قدراً كبيراً من أعمالنا الشعورية يتوقف على الدوافع الغرزية المكبوتة . ومعظم النقد فى علم النفس التحليلى يدور حول هذا الموضوع .

وقد أدرك فرويد عند دراسته للغريزة الجنسية عند الأطفال

أن هناك شبها فى العمليات العقلية التى يقوم بها الأطفال ، وبين تلك التى يقوم بها المصابون بالنورستانيا ، أو التى تميز المتوحشين من بنى الإنسان ، فدرس حياة المتوحشين ، وتطرق منها إلى دراسة الأساطير والخرافات والنظم الاجتماعية والدينية عند الشعوب البدائية . وقد ألقت هذه البحوث ضوءاً شديداً على موضوعات كثيرة غامضة تتعلق بتاريخ الجنس البشرى فى ماضيه . ويعتقد فرويد أن الفرد فى تطوره العقلى يشبه تطور الجنس البشرى .

ومن هنا يتبين أن فرويد بدأ بدراسة المصابين بالهستريا ، وتطرق من ذلك إلى البحث فى موضوعات مختلفة . وظل يعمل وحده أكثر من عشرة أعوام ، ولايجد من يعطف عليه أو يقبل آراءه ونظرياته . ثم أخذ غيره من الأطباء بعد ذلك يتابعون خطاه ويتأثرون طريقته ويؤيدون نتائجه ، ومن هؤلاء Ernest Jones (إرنست جونز) الذى ظل يعمل أكثر من عشرين عاما . وفى سنة ١٩١٠ تألفت جمعية دولية للتحليل النفسى ، لها فروع مختلفة فى البلدان المختلفة ، وتأسس الفرع البريطانى سنة ١٩١٣ ، وخصص الكثير من المجلات لهذا الموضوع ، ووضعت فيه الكتب الكثيرة . وهناك الآن ثلاثة معاهد للتحليل النفسى ، يلتحق بكل منها عيادة طبية ، حيث يتلقى الطلبة مناهج منظمة فى نظريات هذا العلم وممارسة طريقته ، وهذه المعاهد فى برلين ، ولندن ، وفينا ، وإنا لنأمل أن تحذو مصر حذو هذه الدول المتقدمة ، وتقبل هذا الفرع من علم النفس ، وتهتم

بدراسته فى معاهد التربية على الأقل .

وكان من أعوان فرويد الذين عاونوه فى أول الأمر « آدلر » و « يونج » ولكنهما اختلفا عنه فيما بعد ، وأسس كل منهما طريقة جديدة فى التحليل النفسى .

نظرية آدلر :

لايعترف آدلر بأن الغريزة الجنسية هى الدافع الأول ، والباعث الأكبر لسلوك الإنسان ، ولايعترف بكبت العواطف ، ولايرى — كما يرى فرويد — أن الحلم يعبر عن رغبات خفية فى النفس ، ولا يعتقد فى وجود خواطر لاشعورية فى النفس ، وإنما هذه الخواطر فى رأيه لا قيمة لها ، لأنها حلت فى الذهن قبل تكون النفسية .

وموجز نظريته أن الإنسان يسعى فى جميع أعماله للظفر بالنفوذ والسلطان ، وقد أخذ هذا الرأى عن الفيلسوف المعروف نيتشه الذى يقول بأن الحياة تسير «بإرادة القوة» يقول آدلر: إن الإنسان سعيد مادام يتمتع بالقوة والنفوذ ، فإذا أحس بالنقص والضعف ، تولته الكآبة والحزن . ويطلق آدلر على هذه الظاهرة « عقدة النقص(١) » Inferiority Complex وهذا الشعور بالنقص يستولى

(١) « العقدة » Complex مجموعة من الإحساسات والعواطف تقوم بنفس شخص معين وترتبط فى ذهنه بموضوع معين ، أو بعبارة أخرى العقدة مجموعة من الروابط الشخصية تظهر فى ذهن زيد من الناس إذا دعاها إلى الظهور باعث معين . =

على الشخص ويدفعه إلى التخلص منه ، فيسعى جهده إلى تعويض النقص بالتسامى فى ناحية أخرى . وقد ينقلب هذا التسامى عقدة فى نفسه

= وكل عقل بشرى عبارة عن مجموعة من العقد ، فالمرء يبدأ منذ الطفولة فى تكوين روابط عاطفية تتعلق بكل مايصادف من تجارب ، وهذه الروابط تتسع وتتعقد يوماً بعد يوم ، فالطفل - مثلا - قد يجلس بجوار أمه وهى تعد طعامه على النار ، فيربط « النار » « بالنور » « بإشباع رمق الجوع » ولكن النار قد تحرقه فيضيف إلى هذه العقدة إحساسين جديدين وهما « الألم » و « والخوف » ، ويسعى جهده بعد هذا ألا يقرب النار فتضعف رابطة الألم تدريجاً حتى لقد يسترد عقدة اللذة الأولى التى تتعلق بالنار . وهكذا تتكون العقدة بالتجارب غير المقصودة ، أما الآراء التى تجمعها عمداً عن موضوع بعينه فلا تؤلف مانقصد علمياً بالعقدة ، فقد يعلم المرء مثلا من دراسته العلمية أن المشروبات الروحية ضارة بالجسم منهكة للقوى ، ولكن المسكرات - رغم ذلك - قد ترتبط فى ذهنه ارتباطاً عاطفياً باللذة والنشوة ، فلا يستجيب لداعى منع المسكرات لأن بنفسه عقدة لذة عن الخمر أسحق غوراً من المعرفة المكتسبة .

وقد تبقى العقدة ماعاش صاحبها ، وقد تتلاشى فى بضع ساعات ، فقد تلحف على الرغبة مثلا فى الاستمتاع بالثناء على عمل أديت فأتغاضى عن بعض القدح . فى مثل هذا الحين تتكون فى نفسى عقدة ثناء ، ولكن قدرتى على النقد والحكم الصحيح تعود إلى بعدما تتبدد الروابط العاطفية التى انتابتنى منذ حين . =

تسمى « عقدة التسامى » Superiority Complex ويضرب آدلر لذلك مثلا (ديموستونيس) اليونانى الألكن الذى أحس بعجزه عن الإفصاح ، فأقسم ليخطبن فى الناس ، ومارس التحدث إلى الجماهير حتى أصبح خطيباً مصقعاً ذائع الصيت . ولكن هذه المحاولة - محاولة التغلب على النقص بالتسامى - قد تبوء بالفشل ، ويشعر المرء باليأس ، فتصيبه علة الهستريا ، وهى مرض مصطنع ينتاب المرء ، والغرض منه أن يظفر المصاب بعطف المحيطين به وبالعناية بأمره ، ويبذل المال فى سبيل شفائه ، فيصبح فى مرضه أكثر أهمية منه فى صحته فى نظر المجموعة التى يعيش بينها ، ويكتسب بذلك نفوذاً على أهله

= والعلاج النفسى يتعلق قبل كل شىء بعقد الألم السحيقة فى النفس لأن الموضوعات التى تتصل بأمثال هذه العقد تتراجع إلى اللاشعور وتسبب هناك صراعاً نفسياً . ولعالم النفس طرق تمكنه من بعث هذه الموضوعات ، فيثير ببعثها العواطف الحادة التى ترتبط بها ، ويستعين بهذه الطريقة على فهم العقل الباطن عند المصاب . خذ لذلك مثلا : قد يجد الطبيب وهو يعالج طفلا ما أن كلمة « كلب » تمس عاطفة قوية فيه ، فيخرج إلى حيز الشعور خوفا كان مكبوتاً ونشأ لدى الطفل حينما سمع كلباً ينبح فى يوم من الأيام . وقد يجد الطبيب أن كلمة « ماء » وكلمة « بحر » وكلمة « يعوم » تشير إلى عقدة ما عند مريض من مرضاه ، أى أنها تثير عاطفة قويه ، فيعلم أن المصاب ربما كان يفكر يوماً ما فى الانتحار بالغرق .

وذويه ، إذ يتسامحون فى قسوته وغلظته عليهم لأنه عليل ، والعليل لايعاتب .

ويؤيد آدلر نظريته بما يشاهده بين الناس جميعاً ، رجالهم نسائهم . فالطفل يشغف بالرجولة ، والمرأة تحاول أن تخرج من أنوثتها وتتزيى بزى الرجال ، والرجل الضعيف يغبط الرجل القوى البنية ، والشيخ يحسد فى الشاب قوته وحيويته ؛ أى أن الناس جميعاً يرون فى الشباب والرجولة الصورة المثلى للإنسانية ، ويرغبون فيها . فكل منا إذن يحس بإرادة القوة . وهذا ما يسميه آدلر « رغبة التذكير » The Masculine Protest ويخرج من هذا آدلر بضرورة توفير الحرية لكل فرد حتى يتسنى له أن يسير نحو تحقيق القوة ، وأن لايشعر « برغبة التذكير » ، وعلى أولى الأمر أن يشفقوا على رعيتهم ولايقسوا عليهم ، حتى لايعملوا بذلك على الزيادة من هذا الإحساس . وهناك من النقاد بطبيعة الحال من لا يشاطر آدلر هذا الرأى ، فيرى « وتلز » Wittels مثلا أن الطفل يحب الطفولة ، وأن المرأة تحب الأنوثة ، وأن الشيخ يجد فى شيخوخته لذة لايدركها الشاب ، وفى هذا المعنى يقول الشاعر العربى :

خلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبا
لفارقت شيبى موجع القلب باكياً

فنظرية آدلر - كما رأينا - تقوم على الأثرة والأنانية وحب الذات ، وليس مايبديه الفرد من التودد إلى الجنس الآخر إلا رغبة

فى الظفر به والسيطرة عليه ، أى أن فى تحقيق الرغبة الجنسية إشباعاً لرغبه القوة والنفوذ ، وأن الحب ليس معناه إلا السيطرة على القلب . ولما كانت النورستانيا فى نظر آدلر مظهراً من مظاهر السيطرة ، كان يلجأ فى علاجه مرضاه إلى تفهيمهم - باللين مرة ، وبالشدة مرة ، وبالتهكم أخرى - أنهم يكبرون الظن بأنفسهم ، ويتطلبون من المجتمع تقديراً فوق مايستحقون ، وكان يقنعهم بأن وسيلتهم إلى الشفاء هى النضال فى سبيل العلو والترقى ، لا الركون إلى المرض والإخلاد إلى الكسل . ورأيه فى هذا يتفق ورأى الأطباء الذين يرون أن علاج النورستانيا هو فى إهمالها وعدم رعايتها أو النظر إليها ، لأنا بعطفنا على المريض نغذى الرغبة التى دفعته إلى الشذوذ فى سلوكه ، فينبغى لنا أن لانبدى للمريض عطفاً حتى لايتمادى فى مرضه لإشباع شهوة النفوذ فى نفسه .

وواجبنا - نحن المدرسين - إن لمسنا بطفل من الأطفال شذوذاً فى سلوكه أن نكشف عن عقدة النقص فى نفسه ونحاول أن نستبدل بها عقدة التسامى ، فالطفل الذى لايجيد مادة الحساب مثلا قد يبرع فى رواية الشعر والإلقاء ، والطفل الذى لايحب الدرس على إطلاقه قد يبرع فى الرياضة البدنية فيجد ميزة فى نفسه يفخر بها بين أترابه ، ولا يحاول الانزواء والتوارى عن أعين زملائه .

وليست الأحلام فى نظر آدلر تعبيراً عن رغبات دفينة فى النفس ، وإنما هى محاولات يقدمها العقل الباطن للمرء لحل عقدة النقص فى

نفسه : ولهذه العقدة عينها يرجع آدلر السبب فى مقاومة المريض لتأويل رؤياه ، لأنه لايحب أن يرى سواه أقدر منه على فهم خفايا نفسه . وإلى هذه العقدة كذلك يرجع الباعث على رغبتنا فى الحط من شأن زملائنا ونقد مايقومون به من أعمال وما يظهرون من براعة فوق مقدورنا : وكثير من النقد الأدبى ونقد الفنون لايصدر فيه الناقد عن صدق وإخلاص ، ولكن عن حقد وغيرة .

وقد كان لبحوث آدلر ونظرياته أثر فى توجيه فرويد وتعديل بعض آرائه ، فقد أخذ فكرة الأنانية من آدلر وسماها « تقرير الذات » ego ، واعترف بوجودها باعثاً فى النفس إلى جانب الباعث الجنسى ، وهذا الباعث الجديد فى نظره هو الدافع الذى يحفزنا إلى الاعتداء على غيرنا من الناس .

نظرية كارل جستاف يونج :

يعتقد آدلر - كما ذكرنا - أن إرادة القوة هى الدافع للمرء فى جميع تصرفاته ، وأن الدافع الجنسى ما هو إلا مظهر واحد من مظاهرها ، أما يونج فيرى أن الدافع الجنسى كان فى أول الأمر يملك على المرء كل نفسه ويسيره فى كل ما يفعل ، ولكن جانباً من هذه الرغبة الأولية ، هذه الطاقة الحيوية ، قد خلص من الرغبة الجنسية المحضة خلال تقدم المدنية الإنسانية ، وانصرف فى مناح أخرى . هذا الجانب الجديد يعارض الطاقة الجنسية ويقاومها ويقف فى سبيلها .

والواقع أن آدلر ويونج كليهما قد أخذا الرأى من فيلسوف أعظم منهما وهو (شوبنهور) الذى يقول بأن الدافع الذى يدفع بالإنسانية جمعاء هو (إرادة الحياة) وهو رأى أشمل وأوسع مدى من هذين الرأيين.

ويونج هو أول من قال بأن اللاشعور هو المستودع الذى يدخر فيه الإنسان الثقافات القديمة والعقائد والآراء البائدة، وهو القائل بأن العقل الباطن يفكر على طريقة قديمة مهجورة هى طريقة آبائنا الأولين، وبأن الأحلام والأوهام وخواطر المصابين بالهستريا هى البقية الباقية فينا من تراث الفكر القديم، فالحلم صورة من صور الحياة البائدة البدائية تظهر فى ستار رقيق من الثقافة الحديثة، ولذا فنحن فى أحلامنا كثيراً ما ننحط ونرى أنفسنا ونحن نعيش فى الغابة ونشتغل بالصيد، أو نقتتم بأنفسنا لأنفسنا دون الرجوع إلى قاض أو حاكم. ويقول الناقدون أن يونج لا يقدم لنا طريقة لعلاج الشواذ، لأن المريض لا يفيد شيئاً حين تعلل له شذوذه وترجعه إلى أتباعه طريقة بالية فى السلوك.

والجانب الذى تخلص من الدافع الجنسى هو مايطلق عليه فرويد (تقرير الذات) الذى أشرنا إليه عند الكلام على نظرية آدلر. ويقول يونج إن هذا الجانب أرقى فى نزعته من الباعث الجنسى، وهو الذى يبعث المرء على كل عمل مجيد، وعلى التنزه عن الدنس الجنسى، وعلى التقرب إلى الله. فيونج على هذا رجل أشد إيماناً.

وأقوى ديناً من فرويد ، ويعتقد أن الدين يدفع بالإنسان إلى التسامى بغريزته الجنسية .

وهو يقسم الناس إلى أنماط مختلفة ، ويرجع كل فرد إلى نمط خاص . وهمه فى العلاج أن يرد المريض إلى نمط من هذه الأنماط، فإذا تم له ذلك شرع فى هدايته على هذا الضوء . فطريقته إذن هى فى الواقع طريقة تركيبية Synthetic لاتحليلية Analytic .

قيمة تحليل النفس بين العلوم وفائدته

أتينا فى الإلمامة السابقة على تاريخ فكرة التحليل النفسى . وكيف تطورت ، وما اشتملت عليه من بحوث ، وأهم الباحثين فيها ، والآن نقدم للقارئ فكرة عن قيمة تحليل النفس بين العلوم وفائدته للناس .

ويجب قبل أن نشرع فى بسط الموضوع ، أن نشير إلى أن الرأى العام عن تحليل النفس يتذبذب بين طرفين متناقضين ، فمن الناس من يقول بأن هذا المبحث الجديد لم يأت بما لاعلم لنا به من قبل ، فحقائقه معروفة ذائعة بين عامة الناس ، ومنهم من يقول بأنه مبحث تعافه النفس ، ويمجه الذوق ، وينبغى أن نتحاشى قراءته أو أن نقرأه كما نقرأ حديثاً من الهزل لاجد فيه . والحقيقة - كما هى دائماً - وسط بين النقيضين ، فهذا العلم يجمع أشتاتاً من المعرفة كلنا بها عليم ، ولكنه يعللها تعليلا قد يغيب عن الكثير منا ، تعليلا لم يطرأ لأحد منا من قبل .

وسنحاول فى هذا الكتاب أن نربط حقائق تحليل النفس بالأمثلة المعروفة المألوفة ، ولكننا - رغم ذلك - نعترف بشذوذ الكثير من الآراء التى نوردها هنا نقلاً عن أصحابها ، وذلك لأن التحليل النفسى يحاول أن يجيب عن أسئلة لم يتعرض لها أحد من قبل ، بل ولم يفرض أحد وجودها بين الناس . تحليل النفس يعالج ميداناً من المعرفة - هو اللاشعور - وهو ميدان لا نحس بوجوده ، بل وكثير منا

ينكره كل النكران . وكثير من مادة هذا العلم مأخوذ من الأمراض العصبية ، ولهذا فهو - فى ظاهر الأمر - يختص بالأفراد الذين لاتقع عليهم تبعة كبيرة فى الحياة ، والذين لايأبه المجتمع لما يفعلون . هذا إلى أن النتائج التى يصل إليها تحليل النفس ويؤكد أهميتها ، غالباً ما تكون جارحة للحس ، بغيضة إلى النفس ، ولذا فلا عجب أن لايؤمن بصحتها أحد . ومع ذلك كله فلا شك أن هناك من الناس اليوم من يشغف بهذا الموضوع ، وكلنا يكاد يعتقد بوجود أعماق مجهولة فى طبيعة الإنسان ، ولذا فأملنا وطيد بأن هذا العلم سوف يشق طريقه إلى القلوب ، وينال من الناس ماهو جدير به من عناية .

وسيقابل الباحث فى هذا العلم كثيراً من المتناقضات ، وأولها أن هذا التعبير عينه « التحليل النفسى » يدل على ثلاثة أشياء : فنحن نقصد به أولا طريقة خاصة من طرق العلاج الطبي ابتكرها الأستاذ فرويد النمساوى لعلاج طائفة معينة من الاضطرابات لعصبية ، وهذا المعنى المحدود هو ما كان يقصد بالتعبير أول ظهوره . ونحن نعنى بتحليل النفس كذلك طريقة خاصة للوصول إلى الطبقات العميقة فى العقل ، كما أننا نعنى به فوق هذا وذاك محتويات اللاشعور . ولعل القارئ يدهش بعد هذا من أن طريقة البحث وطريقه العلاج واحدة ، ولكن هذه الدهشة بعد معرفة شىء عن المشاكل النفسية لا تلبث أن تتبدد .

بل أن كثيراً من الناس يستعمل هذا التعبير خطأ للدلالة على

معان أخرى ، مما يساعد على زيادة تعقيد العلم واضطرابه فى أذهان القراء ، فإن عامة الناس - بل وبعض المختصين - يتكلمون عن تحليل النفس ، ويشيرون بذلك إلى أى ضرب من ضروب العلاج النفسى (وهو العلاج العقلى للأمراض العصبية) بغض النظر عما إذا كانت الطريقة الفنية التى ابتكرها فرويد هى وسيلة العلاج أم لا . كما أن بعض الأطباء يستخدم طرفاً من طريقة فرويد ونظرياته دون أن يعرفوا دقائقها أو يفهموها جيداً ، ويخلطونها بغيرها من الطرق ، وبما يناقضها من الآراء فيزداد الأمر تعقيداً على تعقيد . هذا إلى أن بعض علماء النفس يحبون أن يوهموا القراء أنه جديد ، وأنه لم يظهر إلا بعد الحرب العظمى . فالتحليل النفسى إذن يطلق على أمور بعيدة العلاقة بالموضوع أو لاعلاقة لها البتة به .

فما هو إذن تحليل النفس ؟ الواقع أن كتابنا هذا من الغلاف إلى الغلاف جواب عن هذا السؤال ، ولكننا قبل أن نشرع فى التفصيل نحب أن نومئ إلى القارئ بفكرة عجلى عن ماهية الموضوع .

يحتوى العقل على عناصر يتعسر على الوعى أو الشعور أن يسبر إغوارها ، وقد ألمع إلى هذه الحقيقة كتاب من قبل فرويد ، ولكن هذا العالم النمساوى هو أول من أدرك وأذاع بين الناس أن هذه العناصر لاتنسجم وبقية العقل . وفى خلال بحوثه أثبت أن العقل البشرى يشبه مجموعة من الحجرات المحكمة ، وأن لاصلة البتة بين حجرة وأخرى . وكان يلاحظ أن المصاب بمرض عصبى لايعاون

طبيبه فى الكشف عن الحجرات العميقة فى العقل ، ولذا فقد استنتج أن هناك قوى عقلية معارضة تصرف المريض نفسه عن العلم ببعض نواحى عقله ، وقد أطلق على هذه القوة المعارضة « المقاومة » Resistance والمقاومة تقف فى وجه الطبيب والمريض على السواء ، وهى طريقة يلجأ إليها المرء لاشعوريا لإخفاء خواطره المكبوتة(١).

---

(١) « الكبت Repression » هو كبح العقد البغيضة كبحاً لا إرادة لنا فيه ، وإيداعها فى العقل الباطن ، أى أننا نكبت الأفكار حين نتناساها غير عامدين .

أما « القمع Suppression » فهو الإخفاء الارادى لعاطفة ما : فالمرء حين ينسى أن يدفع ما عليه من ديون ، أو أن يجيب عن خطاب مثلا يقوم بعملية كبت لاشعورية ، ولكنه حين يخفى غضبه أو ملله من سماع حديث غير جذاب ، يقوم بعملية القمع . والقمع الشعورى كثيراً مايؤدى بدرجة غير محسوسة إلى الكبت اللاشعورى.

ومن هذا نعلم أن ليس هناك نسيان مطلق ، وإنما الخواطر التى نظن أنا قد نسيناها محفوظة فى اللاشعور . وهذا يفسر لنا ما نراه من التناقض فى السلوك أحياناً ، فقد نرى مثلا عالما لا يعتقد فى الخرافة ولكنه يخشى السحرة ، وذلك من أثر العقائد المكبوتة التى تلقاها منذ طفولته ممن هم أكبر منه سناً . والكبت يلازمنا منذ الطفولة ، وهو ضرورى فى كثير من الأحيان ، فنحن ننسى مثلا المخاوف التى كانت تنتابنا عند تعلم المشى فى الصغر فنستقيم فى مشيتنا ، ولولا ذلك لظللنا نتعثر كما كنا حينما بدأنا نتعلم المشى . ومن فوائد الكبت أنا=

وكلنا يعرف هذه الخواطر المكبوتة فى صورتها الساذجة ، كما نعرف أنا لانحب الكشف عنها ، بل ولا نود معرفتها ، ونتلمس الأسباب لتناسيها وتجاهلها ، وإبعادها عن محيط العقل . ولكن فرويد لايشير فى الواقع إلى الخواطر حديثة الكبت التى تختفى فى اللاشعور حيناً ، وتقفز إلى الشعور حيناً آخر ، وإنما يشير إلى الخواطر التى كبتت فى الأغوار السحيقة منذ زمن بعيد حتى ليتعذر على صاحبها ذكرها أو إخراجها إلى حيز الشعور . والخواظر المكبوتة والمقاومة كلها مجهول لصاحبها ، فهى إذن بحق «لاشعورية» . والمقاومة تساعد على جهل المرء بمحتويات اللاشعور . وليس من اليسير أن تعرف مايقر فى أعماق نفسك ، ولكى تصل إلى ذلك ينبغى أن تتوجه إلى طبيب مختص بالتحليل ، وقد ينفق فى علاجه إياك السنوات الطوال .

وقد لايعترف القارئ بجهله حقيقة نفسه ، ولكننا نذكره بقول سقراط : « أيها الإنسان ! اعرف نفسك » ، كما نذكره بأن الإنسان جامد بطبيعته لايميل إلى التجديد ، محافظ بفطرته على القديم . وليست المقاومة التى يلقاها علم النفس التحليلى من الناس الا مثالا

= لاتذكر موتانا دائماً ، كما ننسى الحوادث الأليمة التى تمر بنا فى حياتنا ، فالكبت إذن فى أمثال هذه الحالات مفيد ونافع ، ولكنه حين يظهر فى الأحلام المزعجة ويسبب الهستريا ضار بالغ الضرر . وإذا اشتد الكبت حتى زاد عن طاقة اللاشعور جن المرء وأخذ يتحدث عن خواطره المكبوتة بصوت مرتفع .

لذلك . بل إن علم النفس التحليلى ليفسر لنا السبب فى هذه المحافظة التى يميل إليها كل إنسان . وذلك لأن معارضة الآراء الجديدة - سواء كانت خاصة بالنفس أو بالعالم الخارجى - ليست فى أساسها إلا انعكاساً للمعارضة الباطنية فى النفس أو المقاومة ، لمعرفة الإنسان دخيلة نفسه .

وليس بدعا مايلاقيه علم تحليل النفس من مقاومة ، فالتاريخ حافل بما يدل على ميل العامة إلى الإبقاء على القديم ، فما كان أشد مقاومة العرب للدين الإسلامى الحنيف رغم صدق آياته وإحكامه ، ورغم النور الذى يشع من جوانبه . ولم يكن يسيرا على النفوس أن تتقبل بالرضا علم الفلك فى القرن السادس عشر ، وعلم وظائف الأعضاء فى القرن السابع عشر ، ومكتشفات الكيمياء فى القرن الثامن عشر ، والبيولوجيا فى القرن التاسع عشر . وأهم مايوصم به تحليل النفس أنه يخرج فى كثير من مواضعه عن حدود الأخلاق والعرف ، وأنه يهدم كثيراً من العلم القديم ، وأنه علم مادى ، بل ويميل نحو الإلحاد . وأنه يحط بالإنسان من مستواه الرفيع ، ويعلق كل الأهمية على الغريزة الجنسية الحيوانية ، فهو يسىء إلى حسن ظننا بأنفسنا ، ويجرد الحياة من كثير من مباهجها وجمالها وروحانيتها بما يكشف من حقائق. وما أشبه موقف الإنسان إزاء هذا العلم الجديد بموقف الشاعر الانجليزى Keats (كيتس) حينما غضب غضبة قوية بعد ما كشف العلم عن ألوان الطيف ، إذ خشى أن يحرمه هذا التحليل العلمى التمتع

بجمال قوس قزح ، وهو خوف وهمى لايقوم على أساس من الصحة . كان الشاعر كيتس يحس أن استمتاعه بجمال القوس يتوقف على إحساسه بالغموض الذى يحيط بحقيقته ، وتوهم أن نور العلم سيبدد هذا الغموض ويحرمه لذته . ولكن رجال العلم لايرون أن المعرفة تضعف الحس بالجمال ، والإعجاب بنظام الكون ، بل أن زيادة المعرفة - على النقيض من ذلك - تبين للمرء أنه لايعرف إلا القليل ، وأن مالا يعرف كثير ، وإننا كلما بددنا الأوهام التى يولدها الجهل اشتد خضوعنا لله وتقديرنا لحكمته وتدبيره ، ولكن الإنسان رغم هذا يتعلق بأذيال الوهم والجهل . هذا إلى أن تحليل النفس يشرح لنا طبيعة المخاوف الوهمية ، ويبرهن على أن النظرية التى تقول بأن الوهم والجهل ضروريان ، لتقدير القيم الروحية للأشياء ، باطلة من أساسها .

ولكن الخوف من العلم - لحسن الحظ - آخذ فى النقص ، والتسامح اليوم أشد من ذى قبل ، والتجارب سوف تؤتى ثمارها إن عاجلا أو آجلا ، وسوف يعرف الإنسان يوما أنه إذ يستبدل الإعجاب والثقة بالكبرياء والخوف يظفر بالشىء الكثير . وعلم النفس التحليلى يساعدنا على تبديد هذه المخاوف الوهمية التى سيطرت علينا واستعبدت أذهاننا حقبا طويلة من الزمان .

ولعل من أسباب الاعتراض على تحليل النفس أنه يتعلق بحرية الإرادة . وهذه الحرية - كما نعلم - شديدة الارتباط بإحساسنا الروحى

باللانهائى المطلق . كان الإنسان قديماً لا يعتقد فى تعلق الأسباب بالمسببات ويظن أن حوادث الحياة الجسيمة تخضع لقوة عليا تتدخل فى نظام الكون تدخلا إعتباطياً لا مبرر له ولا يقوم على علة منطقية. وظلت هذه القوة الخارقة المستبدة أجيالا طويلة تعزى إلى الكائنات الخارقة للطبيعة ، وبما أن هذه الكائنات لا تستطيع أن تمارس نفوذها إلا وفقاً لرغبة الإنسان ، كان الانسان يعتقد أنه يمكنه بالإرادة أن يبسط نفوذاً قويا على الحوادث التى تمس سعادته . ولكن بتطور المجتمع ونمو المدنية أخذ الإنسان تدريجا ينبذ عقيدته فى هذه القوة الوهمية ، ويعتقد بأن النتائج لا تنجم إلا عن مسبباتها وأنه لا إرادة له فى تسيير الحوادث . وقد علمتنا التجارب أن الاعتراف بوجود النواميس الكونية الأزلية يزيد من قوتنا أكثر مما تفعل عقيدتنا فى القوى الموهومة . يريدنا العلم على الا نعتقد بأن هناك حادثا منعزلا لا يرتبط بسابق أو لاحق ، وإنما كل حدث ما هو إلا حلقة من سلسلة الأسباب والمسببات التى لا تنقطع . وينطبق هذا الرأى على العمليات العقلية كما ينطبق على ميادين المعرفة الأخرى . وعيب التحليل النفسى فى نظر المعارضين أنه يطبق على دراسة العقل هذه النظرية العلمية العامة ، وأنه لا يؤيد حرية الإرادة، ولا يعترف بأن من الناس من يستمتع بحرية إرادية أكثر من سواه . وهذا - فى ظنهم - معناه هدم التبعية الشخصية وقواعد الأخلاق الاجتماعية ، والأحكام الفردية ، والحس بالجمال الذاتى . والدين

الإسلامى الكريم يؤيد ما زعم فرويد فقد جاء فى كتاب الله (وجعلنا لكل شىء سببا فأتبع سببا) .

وتحليل النفس إذن يحاول أن يقنع الناس بأن الكون يقوم على النظام ولا يقوم على الفوضى ، وأن العالم كله واحد منسجم تنخرط فيه النفس الإنسانية ورغباتها كما تنخرط فيه الموضوعات الأخرى . والأيام كفيلة بنصرة هذا العلم كما انتصر غيره من العلوم والمعارف من قبل . وسوف يؤدى ذلك الى اتساع نفوذ الإنسان وزيادة سلطانه على نفسه ، وهو أشد ما نكون إليه حاجة فى هذه الأيام .

والأمل وطيد فى أن يتخذ تحليل النفس مكانته بين العلوم . وربما كان من أهم ميزاته أنه تجريبى عملى ، وليس موضوعه علمياً نظرياً بحتاً ، وأنه يحاول أن يتخلص من النظريات المبهمة فى علم النفس العام كنظرية مظاهر الشعور الثلاثة : الوجدان والإدراك والنزوع ، فهى نظريات عقيمة تكاد تكون عديمة الصلة بشئون الحياة العامة ، ولا تفتح للمرء دخيلة نفسه أو تكشف له عن الدوافع والأعمال التى يقوم بها غيره من الناس الذين تضطره حياته أن يخالطهم ويعاشرهم فى جو من المودة والتسامح والتفاهم . فتحليل النفس على هذه الصورة علم عملى نافع له من القيمة العملية ما للمسرة أو السيارة فى تسيير شئون الناس .

إن كل من يضطره عمله اليومى إلى الاتصال بالناس يواجه كثيراً من المشاكل النفسية التى لامحيص له عن معالجتها . وإنك لترى

مثلا زيداً من الناس - وهو رجل ذو خبرة وكفاية ونفع - يعيش فى جو ملبد بالآلام والذلة والخنوع حتى إنه ليقصر دون مجاراة زملائه وإخوانه فتدهش لهذه الظاهرة وهذا السلوك ؛ وترى عمراً من الناس شديد القسوة على من هم دونه ، بينما هو بين أخوانه رجل رقيق محبوب ، فلا تعرف لذلك علة . كما قد يسأل المرء نفسه لماذا أرانى دائماً أميل إلى مضايقة فلان والحط من شأنه ، ولماذا يميل هذا الطفل إلى العزلة لغير ماسبب بين ، ولماذا تحيا هذه المرأة حياة عصبية مريضة ، وهى دائماً متعبة تشكو ألماً فى الرأس كما تشكو البرد وعسر الهضم ، كثيرة الشغب ، شديدة التردد والجزع ، قوية الإشفاق على نفسها . مع أنها تحيا حياة تقتضى أن تكون صحيحة البدن قوية سليمة ؟

هذه وأشباهها هى المسائل التى تقدمها لنا الحياة كل يوم ، وهى تارة تخصنا ، وطوراً تخص من نعاشر أو زملاءنا فى العمل . وقد تتوقف سعادة الأسرة أو المجتمع بأسره على مقدرة المرء ومعرفته ومهارته فى مواجهة أمثال هذه الأمور بشىء من الحكمة والتبصر . فليس إذن من بذل الوقت فى غير طائل أن نعلم شيئاً عن تحليل النفس لأنه يعطينا على الأقل مفتاحاً لخير الوسائل لمواجهة المشاكل اليومية التى تنجم عن اتصال شخص بآخر .

وفوق هذا فإننا نعيش فى زمن العالم المتمدن يشكو فيه - كما يشكو من قديم الزمان - من الأمراض والاعتلال العصبى ، نعيش فى عالم قليل الثقة فى دواء الطبيب . ولقد بدأ الرجل العادى يدرك ماأدرك

كثير من الأطباء من قديم وهو أن العقاقير كثيراً ما تقصر دون علاج أعراض المرض علاجا حاسماً ، وبخاصة تلك الأعراض التى تنشأ عن أسباب بعيدة عن منالنا ، بل وفوق قدرتنا على التشخيص ولكنا إذا لم نعثر على وسيلة نستبدلها بهذه العقاقير التى لا نثق فيها بتنا فى حال أسوأ من ذى قبل ، حينما كانت عقيدتنا الساذجة فى الأدوية تؤدى إلى الشفاء .

ولكن هناك ـ لحسن الحظ ـ الكثير مما قد نستعيض به عن هذه العقاقير ، وقد أخذ فى الانتشار ، وأخذ الناس يدركونه شيئاً فشيئاً ، فليس هناك رجل دقيق الملاحظة ينكر معجزات العلاج الروحى الذى يقترن بأمثال « هكسون » الطبيب المعروف . وكلنا يعرف الأثر النفسى الذى يتركه على المرضى الأولياء فى القرى والذى توحى به الرقى والتمائم ، وقد ترجمت إلى العربية قصة عنوانها « الطلسم » للكاتب الإنجليزى السر والترسكت ، تبين لنا فى خيال رائع جذاب أثر الطلاسم فى الشفاء . ولكن جمهرة الناس لاتعلم شيئاً عما يقوم به الخبراء فى العلاج الروحى . وقد ذاعت فى الأوساط العامة أخيراً شهرة المسيو كوى Coué فى معاونة الناس وتعليمهم علاج أنفسهم بأنفسهم بطريق الإيحاء الذاتى ، وقد أيده علماء التحليل النفسى فأثبتوا إثباتا قاطعا لا يحتمل الشك أن للمرء قدرة على علاج نفسه بمعرفة نفسه وفهم شخصيته .

نعم لقد أدرك الإنسان من منذ نشأته ما لمعرفة المرء نفسه من

قيمة عظيمة ، ولقد أوصتنا الديانات السماوية جميعاً بتعرف نفوسنا فجاء فى القرآن الكريم (. . . وفى أنفسكم أفلا تبصرون . . . .) ولكن الإنسان أدرك مع ذلك المشقة الزائدة فى معرفة المرء نفسه معرفة صحيحة مجربة ، وحاول بمختلف الطرائق منذ العصور القديمة أن يصل إلى سبل معرفة النفس ؛ ولجأ إلى طريقة « التأمل الباطنى » ولكنها لم تفلح ولم تؤد إلى النجاح لأسباب ليس هذا مجال بحثها ، ويكفينا هنا أن نقول : إن المرء حين يقوم بهذه التجربة لايسعه إلا أن يمزج العقل بالعاطفة ، فلا تكون نتيجة أبحاثه مبنية على الفكر المجرد . وظل الباحثون يدأبون حتى كانت المدرسة الحديثة فى العلاج النفسى ، فكشفت لنا عن نظرية جديدة ، وطريقة عملية تؤدى مباشرة إلى معرفة النفس ، ومتى عرفت نفسك سهل عليك علاجها . ولا غرابة فى ذلك ، فالعقل السليم - كالجسم السليم - يعالج مشاكله بنفسه ، فكما أن الجسم السليم يتناول الطعام ويهضمه ويتغذى به ويلفظ نفاياته ، فكذلك العقل السليم يتقبل الآراء المختلفة ويميز بين غثها وسمينها ، ويأخذ بما يفيد ، وينبذ مالا يفيد . ومن الوسائل الناجعة لعلاج النفس المريضة الدين والفلسفة والأعمال المجهدة ، فذكر الله علاج من خوف الخطيئة ، والتوبة حل نهائى للندم ، ومن ثم كان نجاح (الشيوخ) فى القرى حيث يفشل الطبيب ، وذلك لأن المريض أكثر صراحة مع الشيخ منه مع الطبيب ، إذ يبوح للأول بما يخفى على الثانى .

ومن البديهى أن كتاباً صغيراً كهذا لايمكن أن يتسع فيه المجال لبحث مزايا المدارس المختلفة فى علم النفس التحليلى أو التعمق فى بيان أصولها وطرائقها . ولكن مايهمنا هنا هو ذلك السؤال الذى يتردد كثيراً على ألسنة الناس - وبخاصة أولئك الذين لمسوا بأنفسهم نجاح التحليل النفسى فى العلاج ، ولكنهم لايعلمون إلا النزر اليسير من مبادئ العلم - وذلك السؤال هو : كيف أن البحث فى الدوافع والأفكار والبواعث والعواطف التى تنتاب المريض تؤدى إلى شفائه من كل الأعراض الجثمانية والنقائض العقلية ؟

يعلم كل منا أن ليس أضنى على النفس من النزاع العقلى أو العاطفى والشعور بأن المرء ينجذب إلى ناحيتين متضادتين فى آن واحد . وكذلك يدرك كل امرئ ذلك الشعور بالفرج والراحة الذى يحس به حينما ينقضى هذا النزاع ، ويصل صاحبه إلى حل نهائى . فى مثل هذا التردد وفى هذه المحنة يقول المرء من كل قلبه « إنى لاأبالى ماذا أنا صانع ، مادمت أستطيع أن أقوم بعمل حاسم فى هذه السبيل ، أو فى تلك » . هذا الصراع النفسى قد يكون شعورياً ، وقد نعلم به ، مثال ذلك : هب أنى أريد أن أذهب إلى دار السنما لرؤية ممثلة خاصة أنا مولع بتمثيلها ، وهب أن هناك قريباً لى مريضاً ، ويحتم على واجبى فى هذه الليلة أن أعوده ، فماذا عساى أن أفعل؟ إن رغبتى الشديدة فى مشاهدة الممثلة تسيطر على نفسى أولا ، وإنى لأفكر فى ابتداع أسباب وجيهة عديدة أعتذر بها عن زيارة المريض ،

ولكن سرعان مايغلبنى الإحساس بالواجب ، فأرى أن قضاء الليلة فى دار السنما وسيلة لبذل الوقت لاطائل تحتها ، فأقول لنفسى إن هذه الممثلة لم تعد خير الممثلات ، وقد تفوق عليها كثيرات غيرها ، ثم أتخيل زيارة المريض فأتوقع لذة فائقة من أداء الواجب ، ومن بشاشته لى حين يرانى ، ثم أعود فجأة إلى الرأى الأول وأوثر أن أشاهد التمثيل ، وهكذا تستمر الحركة الفكرية فى تذبذب ، وأظل أتردد وأنا قلق حتى يرجح أحد الرأيين الرأى الآخر ، وأخيراً أصل الى حل حاسم . هذا مثال من أمثلة النزاع الشعورى ، ولكن علماء النفس قد اكتشفوا أن الأغلبية الساحقة منا ، تجذب نحو ناحيتين متضادتين ، دون أن نكون على علم بذلك ، وأن الصراع النفسى يتم لاشعوريا ولاندرك منه غير نتائجه ، ولانربط هذه النتائج بمقدماتها الصحيحة بغير معونة الخبراء ، ومن ثم كانت أهمية تحليل النفس فى الطب الحديث ، لأن الطبيب الذى يعمد إلى التحليل يسبر غور اللاشعور ويخرج إلى الضياء ذلك النزاع الخفى الذى يفت فى قوة البدن ، فيواجه المريض موضع العلة ويعالجه بنفسه ، فيطمئن فؤاده وتعود إلى جسمه حيويته الطبيعية ، كأن الطبيب بهذا يكشف عن منصرف كانت تتسرب منه القوة الحيوية فيسده ويوقف مجراه . ومصادر هذه المنازعات اللاشعورية عديدة لاحصر لها ، وربما كان أكثرها ذيوعا ضرباً من ضروب الخوف ، كالخوف من المرض أو الخوف من الكوارث العائلية ، أو خوف من تغير الظروف من

سيء الى أسوأ ، أو من الإثم والخطيئة ، أو الفقر أو الملل ، أو الشيخوخة ، أو الموت ، ونحن كثيراً ما نكبت هذه المخاوف (أى نرفض عمداً أن نفكر فيها) أو نقمعها (أى نسمح لها أن تغوص فى اللاشعور حتى لا نعلم بها البتة) . ولكن الخوف - كما نعرف - يسبب اضطراباً جثمانيا وعقلياً ، فيجهد المرء للمقاومة . وهذا الاضطراب النفسى يسبب المتاعب النفسية ، وهو باعث من بواعث الأرق فى النوم . وتحليل النفس يكشف عن سبب الخوف ويأتى به إلى دائرة الشعور حتى يستطيع المصاب أن يواجهه ويعالجه ، فتطمئن نفسه وينشط جسمه ، ومن ثم كان العلاج النفسى ناجعاً فى شفاء الأرق حيث تفشل العقاقير .

والصراع العقلى فى غالب الأحيان نزاع بين رغبات الفرد وحاجات المجتمع . يقول الإنسان الهمجى «أنا» ويظن نفسه «مركز العالم» كما يقول فكتور هوجو : ويتعلم الإنسان المتمدن أن يقول «نحن» ، وأن يحيا لنفسه ولغيره .

اللاشـــعور

لعل القارئ بعد هذا كله يريد أن يعلم بشيء من التفصيل حقيقة اللاشعور وماهيته .

ليس العقل الإنسانى ساذجا بسيطاً كما يبدو ، وإنما هو مركب شديد التعقيد ، وهو يشبه بحراً خضما يمثل سطحه المترقرق مانسميه عادة بالعقل الواعى ، بينما يمثل الجزء الأكبر المستتر من الماء « العقل الباطن » أو « اللاشعور » . وكما أن الطبقات الدنيا من الماء لاتفتأ تختلط بالمياه الطافية فتغير لونها وحرارتها ، فكذلك الطبقات السفلى من اللاشعور لاتفتر عن التعديل والتبديل فى أعمالنا وأفكارنا التى نعيها . وليس إدراك هذه الفكرة بالأمر الهين ، ولاعجب أن نرى النقاد يتلمسون المعارضة فى كل لون من ألوان الجدل العقلى والفلسفى . ولعل أهم ما يوجهونه من نقد أن كل عملية عقلية هى - بطبيعة الحال - شعورية كذلك ، ولذا فمن تناقض القول أن نقول بأن هناك عمليات عقلية لاشعورية ، فهذه العمليات - إن وجدت - قد تكون فيزيقية . ولكنها لن تكون عقلية . والواقع أن التنويم المغناطيسى قد ساعدنا على إدراك العمليات العقلية اللاشعورية التى تظهر فى صورة الآراء والرغبات وما إليها ، ولكننا مازلنا نفتقر إلى إثبات وجود عمليات فيزيقية لاشعورية .

اقتنع فرويد بوجود طبقات خفية من العقل تقوم بعملها لا شعوريا ، ثم تدرج من ذلك إلى صوغ نظرية عامة عن تكوين العقل لن نتعرض لها هنا بالتفصيل ، ويكفينا أن نجملها إجمالا . يعتبر فرويد العقل جهازاً يتحرك بدافعين مختلفين ، دافع خارجى ، وآخر داخلى ، ومن البواعث الخارجية ما يؤثر على الحواس من منظور ومسموع وملموس الخ . . . ومن البواعث الداخلية التى تؤثر فى المرء الجوع والعطش وغير ذلك من الغرائزالقوية ، وكثيراً مايتأثرالفرد بالباعثين فى آن واحد ، فالجائع مثلا حينما ينظر إلى طعام شهى يتأثر بمرآه كما يتأثر بالجوع الباطنى . ويرى فرويد أن هذه العمليات العقلية جميعاً تبدأ باللاشعور . ثم يخرج بعضها فى التو إلى الشعور ، ويبقى بعضها الآخر محتبساً فى طوايا العقل الباطن . ومن اليسير أن نتصور كيف أن البواعث الداخلية تمر باللاشعور أولا ، ولكنا قد نشك فى أن البواعث الخارجية تمر بمنطقة اللاشعور قبل مرورها بمنطقة الشعور ، ولكن أمثلة كثيرة من الحياة اليومية تؤيد هذا الزعم ، فكثيراً مايتنبه الواحد منا إلى نفسه فجأة فيحس أنه قد سمع رنين جرس منذ لحظة ، ولكنه لايذكر أنه أدرك هذا الصوت بشعوره الظاهر ، وتفسير ذلك أن الصوت وقع فى اللاشعور أولا ، ثم انتقل إلى الشعور .

والعمليات العقلية من حيث علاقتها بالشعور - فى رأى فرويد - ثلاثة ضروب :

١ — الشعور العادى ، ويشتمل على الخواطر والآراء والإحساسات وغيرها مما نفطن إليه فى لحظة ما .

٢ — شبه الشعور، وهو بمثابة حجرة خارجية متصلة بالشعور، ومن اليسير أن تتحول الخواطر شبه الشعورية إلى خواطر شعورية بإرادة التذكر ، أو بإثارة فكرة متصلة بها . وينقسم شبه الشعور قسمين : خواطر يمكن إدراكها دون مشقة كالذكريات القريبة العهد وما إليها ، وخواطر يتعسر إخراجها إلى حيز الشعور ، وهذا الضرب الأخير متصل باللاشعور ، وهذا هو سبب المشقة فى إدراكها .

٣ — اللاشعور المحض ، وهو يشتمل على الآراء التى لايمكن أن يخرج إلى حيز الشعور إلا بوساطة التحليل النفسى .

ويظهر أن هناك عاملا يمنع انتقال خاطرة ما من ناحية من هذه النواحى الثلاث إلى ناحية أخرى ، ويسمى فرويد هذا العامل « بالرقيب » Cencor وهو يقف بين اللاشعور، وشبه الشعور وبين شبه الشعور والشعور .

ولنترك الآن الشعور واللاشعور ونبحث فى العقل من ناحية أخرى ، ناحية فعله وأثره لاناحية وصفه ومعرفة كنهه . فى العقل طبقة سحيقة ، تطابق اللاشعور على وجه الجملة . هذه الطبقة تشتمل على دوافع أولية وبواعث غرزية تريد الانطلاق وتضغط إلى الأمام كى تفرج عن نفسها وتشبع شهواتها ورغباتها . هذه الدوافع كثيراً

مايعبر عنها بعبارات الشك فتقول «الظاهر أن ... و« يبدو لى أن ...»
ويطلق فرويد على هذه المنطقة الكلمة اللاتينية Id (أو مجموعة الدوافع الغرزية) هذه المجموعة هى منبع الطاقة العقلية التى تصدر عن الغرائز. وفى سنى الطفولة الأولى ينفصل جزء من هذه المجموعة عن بقيتها ويتصل بالعالم الخارجى . هذا الجانب المنفصل له وظيفة أساسية ، وهى تحديد العلاقة بين الفرد والعالم الخارجى بما فيه البيئة الإنسانية ويطلق على هذا الجانب اسم ego أو (الذات) وهذه « الذات » هى التى تعطينا الحس بالشخصية . ولا تتصل الذات كلها بالشعور - على خلاف ماقد يتوهم القارئ - وإنما يبقى جانب منها متصلا باللاشعور، ولا يخرج إلى حيز الشعور مطلقا . ومن منذ الطفولة تتجه «الذات» نحو نقد «مجموعة الدوافع الغرزية » فتقبل منها بعض رغباتها وتوافق عليها وترفض بعض الرغبات الأخرى وتعارضها . وهذه العملية الأخيرة تطابق « الكبت » . ولذا فالخواطر المكبوتة تبتعد عن الشعور وعن الذات فى آن واحد ، وعلى هذا فهذه الخواطر تكون جانباً من « مجموعة الدوافع الغرزية » وليس تردد المرء فى موقف ما إلا اختلاف بين مجموعة الدوافع الغرزية وبين الذات . وفى الكثير الغالب يدرك المرء رغبة الذات ، ولكنه لا ينفذها ، فإن سألته السبب ألفيته جاهلا به ، وذلك لأن رغبة المجموعة الغرزية لاشعورية .

وكما أن جانباً من مجموعة الدوافع الغرزية يستقر فى أعماق النفس ولا يخرج إلى حيز التنفيذ ، بل يبقى مكبوتاً ، فكذلك ينفصل عن

الذات جزء منها ويتميز عنها ويسمى « الذات السامية » Super-ego وهى أشد اتصالا بالمجموعة الغرزية منها بالذات . ووظيفتها أن تراقب العلاقة بين الاثنين ، وأن تكون بمثابة الحارس يحذر الذات من انطلاق الخواطر المكبوتة من المجموعة الغريزية . وهذه الوظيفة تطابق وظيفة « الرقيب » ، وهى قوة تعذبنا فى اليقظة وعندما نكون على وعى تام بما يدور فى أفئدتنا ، وكثير منا يحس بها فى أحلامه ، وفى الحالة المتوسطة بين اليقظة والنوم ، وقد دلت التجربة على أنها شديدة التنبه فى حالة التنويم المغناطيسى . فمن المألوف مثلا لرجل يعلم أنه ينبغى له أن يبرح فراشه فى ساعة معينة أن يحس بدفع الضمير فينهض على قدميه قبل أن يستيقظ من نومه تيقظاً يمكنه من النظر إلى ساعته ، أو التحقق مما يدور حوله ، ويقول مكدوجل : إنك تحتاج إلى مجهود عنيف كى تحرض رجلا أميناً متين الخلق — حتى حينما يكون تحت تأثير التنويم المغناطيسى — على أن يسرق أو يرتكب جرما من الجرائم ، وذلك لأن مقاومة الضمير (أو الذات السامية) دائمة التنبه ، وذلك على الرغم من أن الإنسان فى الأمور التى لا تمس الخلق ينصاع انصياعا تاماً لإرادة منومه . هذه القوة كثيراً ماتسبب للمرء نزاعاً دائماً بين نفسه ونفسه ، لأنها أبداً على حرب شديدة مع الغرائز الدنيا . وليس فى هذا الرأى جديد إذا طبقناه على المنازعات الخلقية التى يعلم بها المرء ، أو على مانصادف كل يوم من جهد فى أداء الواجب . ولكن مايهدينا إليه

تحليل النفس هو أن هذه المنازعات التى نحس بها قليلة الأهمية إذا قورنت بالقتال الذى لايفتر ، والذى يستعر فى اللاشعور فيستنفد فينا الحيوية ويسبب لنا العلل والنورستانيا . ومما يجدر بالذكر هنا أن (الذات الساميـة) تأتى إلى حيز الوجود نتيجة لأثر الوالدين فى الطفل فى السنوات الأولى من العمر ، وهى وإن لم تكن صورة من تعاليمهم وإرشادهم ، إلا أن كثيراً من قوتها يرجع إلى الرابطة العاطفية بين الطفل ووالديه .

والخلاصة أن هناك نواح أربع فى العقل . —

١ — مجموعة الدوافع الغرزية الأولى .

٢ — الذات وهى جانب تم انفصاله عن المجموعة الغرزية .

٣ — الخوطر المكبوتة وهى جانب من المجموعة الغرزية انحدر إلى أعماق النفس لتضارب بينه وبين الذات .

٤ — الذات السامية ، وقد تم انفصالها عن الذات .

ولما كانت شخصية المرء تنحصر فى الذات وحدها شق عليه أن يتصور الجوانب الأخرى من عقله .

ومما سبق يتبين لنا أن الخواطر المكبوتة هى الرغبات التى لاتتفق وقواعد الأخلاق ، وإن يكن هذا القول أبعد مايكون عن الدقة فى التعبير لأن هذه الخواطر لم تخرج إلى حيز العمل حتى تتعرض للحكم الخلقى ، ولذا فمن الخطأ أن نعطيها وصفاً معيناً ونعتبرها خلقية أو غير خلقية ، لأن الإحساس بالخطأ والصواب لم يتعلق بها . وهذه

الخواطر فى طبيعتها إما جنسية أو عدائية (كحب القسوة والاعتداء على الآخرين)، والكثرة المطلقة من الخواطر العدائية جنسية فى نشأتها ولكنها لم تتجه وجهتها الصحيحة ، فنستطيع إذن أن نقول إن الخواطر المكبوتة جنسية كلها فى طبيعتها وفى نشأتها . هذه الخواطر المكبوتة إذن غير خلقية - إن صح هذا التعبير . ويقابلها من الناحية الأخرى الذات السامية فهى الجانب الخلقى فى النفس الإنسانية ، وهى قوية فى الأطفال قوة كثيراً ماتجعل إحساسهم الخلقى أشد مما ينبغى ، فكثير من الأطفال لايفرق بين الزلات الهينة والآثام الخطيرة : وواجب المربى أن يتلافى هذا الخطر ، وإلا نشأ الطفل وهو يحرم على نفسه الكثير مما يحل أداؤه ويجوز عمله ، ثم يشتد به هذا الإحساس حتى يبلغ الهستريا أو النورستانيا .

والعمليات شبه الشعورية لاتختلف عاده عن العمليات الشعورية فى شىء غير أنها تخرج عن دائرة الوعى . وأما العمليات اللاشعورية فلها عدة صفات تميزها عن الشعورية وتناقضها فى كثير من الوجوه وقد أشرنا إلى بعض هذه الصفات من قبل كصلتها القوية بالغرائز وبحياة الطفولة ، وظهور الغريزة الجنسية فيها بشكل قوى . وهناك فوق ذلك مميزات كثيرة أخرى . منها خلو اللاشعور من فكرة الزمن وفكرة النفى ، فهو غير محدود فى الوقت ولا يعرف كلمة «لا» ، ومنها أن الآراء التى يحتويها ماهى إلا صور لأشياء وأعمال لم يعبر عنها بالكلام، لأن الألفاظ تنحصر فى العمليات الشعورية وشبه الشعورية،

ومنها أن الطاقة التى تحتويها هذه الآراء دائبة الحركة ويمكن انتقالها من جهة إلى أخرى بطريقة لاتعرفها الحياة الشعورية ، ومنها أن اللاشعور يخضع لمبدأ اللذة والألم وهو المعيار الوحيد لتوجيه رغباته ، فهو يندفع دائماً نحو اللذيذ ويبتعد عن الأليم ، وهو مبدأ لا يتفق والحقيقة ، فاللذيذ قد لا يكون نافعاً ككثرة الأكل مثلا ، والأليم قد يكون مفيداً كالدواء . ومن المميزات الأخرى للاشعور أن طبيعته نزوعيه . ولنأخذ مثالا مما يقع كل يوم نوضح به هذه الصفة الأخيرة . هب انك شرعت فى كتابة خطاب ، وفى أثناء الكتابة فرغ المداد من القلم ، فإنك حين تدرك ذلك تشعر بشىء من المضايقة ، فتبحث عن الدواة ، فإن لم تجدها اشتد بك الضيق ، وإن وجدتها هدأت ثائرتك وخف غضبك وملأت القلم بالمداد وعاودت الكتابة . فى هذا المثال تلمح مظاهر الشعور الثلاثة : الإدراك والوجدان والنزوع . فإنك بعد ما أدركت فراغ القلم من المداد ، أحسست بشىء من ضيق النفس ، ثم نزعت إلى عمل ما ، وذلك هو البحث عن المداد . ولكنا يجب أن نذكر أن النزوع لم يكن فى تحريك أعضاء الجسم نحو البحث عن الدواة ، وإنما هو دافع من داخل النفس إلى خارج ، هو النشاط العقلى الذى يوجه الحركة . بل النزوع كثيراً مايحدث حينما يكون النشاط الجثمانى على أقله ، كالمريض يحب أن ينهض من الفراش ولا يستطيع ، فإن ذهنه فى نشاط رغم فتور جسمه وسكونه ، وكالمفكر ينشط تفكيره وهو مستلق على الفراش أو جالس إلى مكتبه . النزوع

موجود فى الحياة العقلية جميعاً ، والحديث نفسه عن الرغبات النفسية نوع من النزوع ، وتحليل النفس لايهتم إلا بهذا الجانب من جوانب الشعور .

ويهتم تحليل النفس كذلك بالميول الإنسانية . ولنضرب لذلك مثلا . هب أن شخصاً قد أساء إلى فى الماضى ، فإنى كلما أرى هذا الشخص أو أسمع صوته أو أفكر فيه أحس بالكراهية والعداوة له . ولكن هناك - لاشك - فترات من حياتى أنساه فيها كل النسيان ، ومع ذلك ، فى هذه الفترات عينها يصح أن يقال عنى إنى أكرهه أو بعبارة أخرى إن كراهيتى له جزء من شخصيتى وترجع إلى تجاربى الماضية التى تحدد مشاعرى دون وعى منى ، ولذا فهى تختلف عن غيرها من ضروب النشاط العقلى إذ أنى لا أعرضها دائما للتأمل والبحث . وهذا الإحساس هو ما يعرف « بالميل » . وتجب التفرقة بين إحساسات الكراهية التى أشعر بهـا بين الحين والآخر نحو الشخص الذى أساء إلى ، وهى إحساسات عقلية تمر بالخاطر ثم تترك المجال لغيرها ، وبين الميل الدائم لكراهية هذا الشخص ، الذى قد أعيه وقد لا أعيه .

والميول إما طبيعية أو مكتسبة ، فالميل الذى أشرنا إليه فيما سبق مكتسب ، وهو نتيجة للتجارب الماضية . ولكن هناك من الميول ماهو طبيعى يشترك فيه الناس جميعاً كميلنا إلى متابعة الأجسام المتحركة ، فهو ميل إنسانى عام يشترك فيه الصغار والكبار على السواء .

وتكون الميول جانباً هاماً من اللاشعور ؛ ومن الميول مالا يقر بها صاحبها كالشره والزهو والقسوة والخوف من المخاطر الشخصية وجميع الغرائز التى يخجل منها الإنسان المتمدن. وكما يحتوى اللاشعور على الميول ، يحتوى كذلك على التجارب السالفة ، فإن كل ما نعمل على وعى منا ليس إلا نتيجة لعدة بواعث صادرة عن اللاشعور . يستيقظ الواحد منا فيغتسل ويرتدي ملبسه ويتناول طعام الإفطار ويخرج إلى العمل ، وإذا ما أمسى الليل تأهب للنوم ، وهو بكل ذلك شاعر ، وهو يكاد يؤديه راغماً - رضى أو لم يرض - وذلك لأن الباعث اللاشعورى الباطنى جد شديد ، فنحن لا نناقش أنفسنا لماذا نقوم بهذا العمل أو ذاك ، فالأعمال الشعورية جميعا تستند إلى دوافع لاشعورية . إنا نقرأ ونكتب على وعى منا ، ولكن الطريقة المعقدة التى تؤدى بها القراءة والكتابة اندست منذ سنوات عدة فى اللاشعور ، ولو لا ذلك ما استطعنا الإنشاء ، ويؤيد ذلك أنك إن حاولت أن تنشىء رسالة وتكتبها على الآلة الكاتبة فى آن واحد - وأنت تجهل الكتابة على هذه الآلة - تعسر عليك ذلك ، لأن تفكيرك الشعورى بأجمعه يتجه نحو البحث عن مواضع الأحرف على الآلة ونحو عملية الكتابة نفسها ، ولذا فإنشاء الرسالة فى هذه الحالة متعسر مستحيل . وفى حياة التلميذ مرحلة يستطيع فيها أن يفكر ، ويستطيع فيها كذلك أن يكتب ، ولكنه لا يستطيع أداء العملين معا كما يفعل الكبار المدربون ، لأن مشقة الكتابة تستنفد

عقله الواعى فيتعسر عليه التفكير . فاللاشعور إذن يؤثر فى كل عمل نؤديه ونحن فى حالة الوعى .

إن مايحتويه العقل الباطن كثير مبهم ، يحار حتى كبار علماء النفس فى تعريفه : هو مجاهل غير مكشوفة لم نصل إلى أغوارها ولم نعرف منها إلا أطرافها . ويرى بعض الباحثين أنها تشتمل على ناحيتين مختلفتين كل المخالفة ، وتانك هما ما دون الشعور ، حيث تنشأ البواعث الدنيا والحيوية جميعا ، ومافوق الشعور ، وهو منبع المطامح والدوافع العليا ، ولكن هذه التقسمة لم يعترف بها بعد كثرة الكتاب.

ونستطيع أن نقول إن اللاشعور يشتمل على التجارب الماضية التى قد نظن أن النسيان أصابها جميعا ، ويشتمل كذلك عل البذور الأولى لجميع العادات العقلية والجثمانية ، كما يشتمل على أسباب الخوف الغرزى ، وعلى ما نحب ومانكره بالغريزة . ولنضرب لذلك مثلا من الحياة اليومية : رجل يكره قرع النواقيس ولا يعرف لهذه الكراهية سببا ، وإنه ليتجنبها ما وسعه التجنب فيبوء بالعجز والفشل . ماعلة ذلك ؟ هذا الرجل إن أعنت الذاكرة قد يجد فى عقله الباطن خاطرة دفينة تتعلق بهذا الموضوع ، فمن المحتمل مثلا أنه عثر فى طفولته بناقوس ، فحمله ودقه ، وصعق لسمع صوته أول الأمر ، فسقط على أثر ذلك وأصابه الضر ؛ أو ربما نهرته أمه وعنفته على فعلته حينما رأته ، فارتعب وارتاع . أو لعله قصد منزلا فأخطأه ودق جرس باب غير الذى أراد فخجل من خطئه ، وربما نسى هذا الحادث بعد

حين ، لأن المرء من عادته أن ينسى ما لا يسره ، ولكن كراهية للنواقيس غامضة بقيت فى عقله . خذ مثالا آخر : فتاة شابة كلما سمعت طائراً يرفرف بجناحيه تملكها خوف غرزى ونكوص شديد . لا مشاحة فى أن السبب فى ذلك يرجع إلى حادث وقع لها أيام طفولتها ثم تطوح فى هوة النسيان ، فربما هجم عليها طائر كبير الحجم غاضب ثائر ؛ وربما عضتها أوزة فى قدمها أو ما شابه ذلك . أمثال هذه الأهواء التى نحس بها ولا نعرف لها باعثا كثير مألوف ؛ وكثيراً ما ينسى السبب الأول نسياناً تاماً . وقد يستطيع المرء فى قليل من الأحيان أن يتذكر بشىء من إجهاد الذاكرة ماوقع له فى طفولته فينكشف له ما أغلق عليه .

الطاقة الغرزية

عرفنا مما سبق أن الغريزة الجنسية - فى رأى فرويد - هى العامل الأول فى نفسية الإنسان ؛ وقد كان بوسع فرويد أن يكسب كثيراً من الأتباع لو أنه ساق نظرياته فى أسلوب لا يسىء به إلى تقاليد الجمهور ومشاعره ؛ ولكنه آثر الصراحة ولم يفعل ذلك . فهو مثلا يقول إن الطفل الذكر « يحب أمه » و « يغار » من أبيه ؛ فكان القارىء يفهم هذا التعبير على ظاهره ويصم فرويد بالثورة على النظم الاجتماعية ، ولو أن فرويد قال إن الطفل يريد من أمه كل عنايتها ويكره كل من يشاركه فى هذه العناية لظفر بتأييد كل من له دراية بشئون الأطفال . ذكر فرويد مرة أنه عثر بطفل صغير يريد أن « يقتل » أباه كى تخلص له أمه بحبها ؛ فثار كثير من القراء ؛ ونسوا أن كل طفل فى ثورة الغضب قد يصيح فى وجه أمه أو مربيته ويهددها بالقتل ؛ وهو لا يفهم من القتل مانعنى ؛ وإنما يقصد به « التخلص » من أمه . هذه الآراء وأمثالها أثارت الجماهير على فرويد ؛ وظن الناس أنه يقصد بحب الأم نوعا دنيئاً من العلاقة الجنسية ؛ وبقتل الأب إزهاق حياته فانصرفوا عنه وأعرضوا عن نظرياته .

أجل إن الحوادث التى يذكرها فرويد ملأى بالرذيلة والشر والخروج على المألوف ؛ وقد يرجع السبب فى ذلك إلى أنه - كطبيب

AUC - LIBRARY

الأمراض العقلية - قد شاهد كثيراً من السفلة والمنحطين ، وبنى نظرياته عن نفسية الإنسان على دراسته لأمثال هؤلاء ، وحاول أن يتتبع الشواذ فى ماضيهم عله يصل إلى منشأ الشذوذ ؛ وهداه البحث - كما ذكرنا من قبل - إلى أن السبب فى غالب الأحيان جنسى محض ؛ وأن الغريزة الجنسية تظهر عند الأطفال بحالة بدائية .

ثم جاء آدلر وخالف فرويد فى رأيه ، وقال إن الدافع الأول للإنسان هو حب السيطرة ؛ وتبعهما يونج وحاول أن يوفق بين النظريتين السالفتين ، وأن يجمع الغرائز كلها - جنسية وغير جنسية - فى طاقة واحدة أسماها « الطاقة الحيوية » أو Libido وقد استعار هذا التعبير من فرويد نفسه ، إذ كان فرويد يقصد بالطاقة الحيوية الحرمان الجنسى ، أو الجانب العقلى للغريزة الجنسية ؛ ولكن يونج توسع فى معنى التعبير وأطلقه على الطاقة الحيوية بأسرها ، أو الدافع الحيوى ، أو التيار الذى تنساب فيه الأفكار والرغبات والميول جميعا.

وأخذ أتباع فرويد وآدلر ويونج يبذلون مجهوداً كبيراً فى المناقشة والجدل ، كل منهم يتعصب لأستاذه ، ولكن الأيام أظهرت لنا فيما بعد أن ثلاثتهم كانوا على صواب ، وأن كلا منهم كان ينظر إلى الحقيقة من ناحية خاصة . ونحن نميل إلى الأخذ برأى يونج ، وإن يكن من المعارضين أمثال مكدوجل من لا ينظر إلى الغرائز كلها على أنها طاقة واحدة ، وإنما يفصل كل واحدة عن الأخرى ؛ ورأى يونج أقرب ما يكون إلى النظرية القديمة فى النفس ؛ وهى أن الحيوية جميعها لدى

الحيوان والنبات - بل ولدى المعادن - تنبع من أصل واحد ، فنحن نرى النبات يشق طريقه وسط الصخور ، ويلتوى على صور متنوعه كى يحتفظ بالبقاء ؛ وكذلك الحيوان والإنسان يأتون بالمعجزات ويعيشون فى ظروف قاسية ويألمون جسما وروحا فى سبيل البقاء . وأيا كانت طبيعة هذه القوة العجيبة التى تكسب الدنيا الحياة ، فإنا نستطيع على الأقل أن نفرض أن لديها إرادة المثابرة على صورة ما. هذه الصور حينما تظهر فى الفرد نسميها « الطاقة الحيوية » ، وهذا التعريف للطاقة الحيوية يشبه مايسميه المسيحيون «بالروح القدس» .

ولكى نوضح للقارئ هذه القوة نشبهها له بتيار نسميه تيار الحياة . هذا التيار يتدفق إلى خارج خلال النفس أى أن الطاقة الحيوية تسعى غرزياً إلى التعبير عن نفسها فى العالم الذى يحيط بها . والتعبير عن النفس ناموس أولى - وهو الناموس الذى يخرج الفرد بمقتضاه من البيضة ، والطفل من رحم أمه . وهكذا الحال فى تيار الحياة ، الذى يزداد قوة وحجما كلما تدفق من منبعه الخفى . فإن تدفق دون اعتراض خطير جرى فى قناتين تمثل إحداهما الرغبة فى السيطرة والنفوذ على العالم الخارجى ، وتمثل ثانيتهما الرغبة فى الاحتفاظ بالجنس والتناسل . والأولى إرادة القوة عند آدلر ، والأخرى هى الغريزة الجنسية عند فرويد .

ولكن يظهر أن هاتين القناتين ليستا منفصلتين تمام الانفصال وليستا متشعبتين . ونستطيع أن نصور التيار ، وكأن جزيرة ماتقسمه

تقسيما مؤقتاً إلى قسمين ، ثم تتحد المياه جميعاً بعد ذلك . وقد تبدو رغبة السيطرة لفترة ما وكأن لا علاقة لها بالغريزة الجنسية ، فالفنان الذى يرسم الصورة ، والموسيقى الذى يضرب على القيثار ، والتاجر الذى يدير متجراً كبيراً ، يجدون جميعاً منفذاً لحب القوة ، وليس فى عملهم علاقة واضحة بالغريزة الجنسية . ولكننا إن دققنا فى البحث رأينا أن فى إخراج الصورة أو القطعة الموسيقية أو إدارة المتجر إشباعاً قوياً لحب الخلق والإنشاء الكامن عن كل إنسان ، فإن أعمال الإنسان هى أطفاله التى تحيا من بعده ، ولذا فإنا نجد حب السيطرة مختلطاً اختلاطاً عويصا بالدافع الغرزى للتناسل ، وكلما درسنا عمل هاتين الغريزتين الأوليتين ازددنا اقتناعا أن ليس هناك حد فاصل بينهما . والشكل الآتى يوضح ما نقول بعض التوضيح :

شكل ١ : التيار الثنائى للطاقة الحيوية

هذا الشكل يبين لنا مجرى الطاقة الحيوية حين تتدفق حياة المرء فى يسر دون اعتراض ، ولكن هذ التيار الطبيعى كثيراً ما يتوقف عن التدفق أو تقف فى سبيله العراقيل ، وهذه العراقيل هى بمثابة

السد فى مجرى النهر ، وقد يعترض التيار الدافق سد عند منبعه ، كما فى الشكل الثانى :

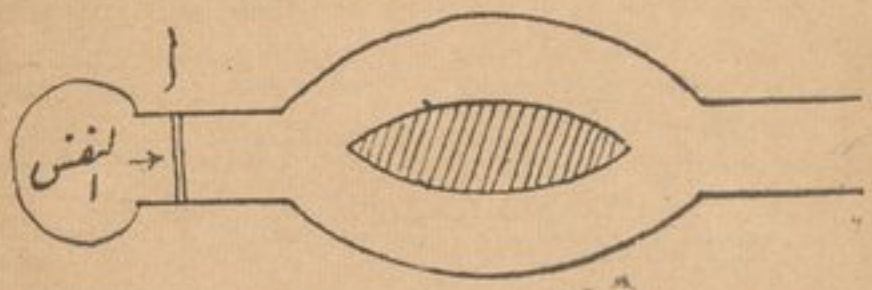

شكل ٢ : السدود عند المنبع

ويحدث ذلك حينما تكون الظروف الخارجية كريهة إلى حد يرد التيار الجارى إلى النفس ثانية . فرغبات الطفل مثلا حينما تتصرف نحو مايحيط به ـ كأمه وأبيه ، وإخوته ورفاقه ، بل والدنيا بأسرها ـ قد تصطدم بالحواجز الشديدة ، فلا يشبع الطفل رغباته فى العالم الخارجى فيعود إلى نفسه ، يعود إلى عالم من الأوهام (١) ،

---

(١) « الوهم » Fantasy اصطلاح كثير الورود فى علم النفس التحليلى ، ومعناه الفنى حلم اليقظة ، الذى تجد فيه الرغبات التى لم تتحقق فى عالم الواقع إشباعاً فى عالم الخيال . وعالم الوهم نقيض عالم الحقيقة ، والعقل المتزن السليم يدرك أن الوهم وهم ، ويحاول إما أن يحوله إلى حقيقة أو يستعمله كلهو لاضرر منه . ولكن أكثر الناس يفشلون فى تمييز الوهم عن الحقيقة وفى علاجه ؛ وإن من بين أولئك الذين اختل توازن عقولهم من لايفرق بين الحلم وحقائق اليقظة .

= والطفل الذى يتخيل نفسه بطلا من أبطال التاريخ أو فارساً من الفرسان ، إنما يعوض فى أحلام اليقظة مايفقده بسبب قيود الطفولة وعوائقها . وكم منا فى هذا العصر ـ عصر التزاحم والضجيج والتبعات الجسام ـ من يلتمس التعويض عما يقصر عن نيله فى غياهب الخيال . وأمثال هذه الأوهام عند الشخص العادى لهو لايضر ، ولكنها قد توحى فى أذهان النوابغ بأعمال فنية خيالية عظمى . أما نحن وأطفالنا فلا ننظر إليها نظرة الواثق فيها . والوهم إذا تحدد الغرض منه وقصد به إلى إدراك هدف بعينه هو أقيم مايمتلك الطفل أو الشاب . ويحدثنا التاريخ عن كثير من أبطاله الذين كانوا يحلمون بالزعامة ثم نالوها ، وحياة « كليف » Clive وكولمبس Columbus مثال لذلك. ولكن المطامح الغامضة كأن تقول مثلا : « لابد أن أعمل عملا عظيما فى يوم من الأيام » تولد عادة القناعة بالأحلام الجامحة وهى أكبر العقبات فى سبيل التحقيق .

ودراسة الخرافات الشعبية من هذه الناحية ـ ناحية الوهم ـ فرع جديد من البحث له لذه فائقة ، ويبين اتجاهات الأمم وأطماعها ، فإن فى الأقاصيص الشعبية للأمم مايشبه أحلام الأطفال فى التفوق على الكبار ، لأن الأمة الفتية كالفرد الفتى تحس بالنقص وتلتمس التعويض عنه فى الخيال .

وفى الأمثلة السائرة بين الشعب المصرى مثلا أن مصر « أم الدنيا » وأن ليس هناك أعذب من ماء النيل ، وهذه وأمثالها ضروب من الوهم ، نعوض بها أسباب تخلفنا عن الأمم الغربية التى سبقتنا فى مضمار المدنية . ولكننا إن ثابرنا على تحقيق هذه الأحلام جنينا منها خير الثمار .

أو قل بتعبير آخر أن طاقته الحيوية تصبح « فردية (١) » أو تنقلب إلى الداخل ، وإذا ماأدرك أن مواضع حبه وشهوته فى العالم الخارجى لاتفى بحاجة نفسه ، فإن حباً كثيباً لذاته ، واهتماما بشأن نفسه يحل

---

(١) « الفردى » Introvert (ويقـــابله « الاجتماعى » Extravert) هو ذلك الذى تنصرف طاقته الحيوية إلى دخيلة نفسه ، على نقيض « الاجتماعى » وهو من تنصرف طاقته الحيوية خارجاً عنه .

الاجتماعى يخرج إلى العالم ويستمتع باتصالة بغيره ويبتعد عن العزلة والتأمل ، أما « الفردى » فيبتعد ويتجنب بغريزته الاتصال بالعالم الخارجى ، وهو كتوم لا يختلط بالناس ، قانع بنفسه . الاجتماعى عامة كثير الحركة ، كثير التودد ، شديد التطلع والتدخل ، أما الفردى فيفر من الناس ويحب أن يسير وحيداً ، وأن يجلس وحيداً ويسترسل فى التأمل . ولكن هذه التفرقة ليست حاسمة فاصلة ، فالإنسان الفردى لايتحتم أن يكون أنانياً منغمساً فى نفسه ، كما لايتحتم أن يكون الاجتماعى محباً لغيره ودوداً ، يميل إلى خدمة الآخرين .

الاجتماعى يوجه انتباهه إلى العالم الخارجى ، فالناس والأشياء لها فى نظره معنى كبير ، وهو لايحب أن يبدل ماتعود ، وإذا شق عليه يوماً أن يلتى أفراد أسرته أو زملائه أو من ألف من الناس امتلأ هما وغماً ، وهو يخشى أن يهاجمه اللصوص ، أو يصيب أهله أذى ؛ يحب الحركة ولا يميل إلى السكون ؛ يرى هدفه فى الحياة واضحاً ، ولايأبه بمصلحة الآخرين إن كانت تقف فى سبيله . وإن =

محلها ، وتنمو شخصيته نمواً غير عادى على حب النفس والاهتمام بها . وأن كان السد الذى يعترض التيار كامل البناء ، حتى أن الطاقة كلها تنقلب إلى دخيلة النفس وتنصرف إلى الأوهام ، أصيب الفرد بالجنون ، وعاش فى حلم بعيد عن العالم لا يمكن الوصول إليه ، وقد يتوهم أنه من أصحاب الملايين أو ملك أو زعيم ، وينقلب هذا الوهم فى ذهنه حقيقة .

= فرداً واحداً اجتماعياً فى أسرة ما ليملأ البيت نشاطاً مادياً وروحياً ، حتى يكاد يتوارى كل من سواه ولا يكون له وجود . ومع ذلك فإن اهتمامه بشئون الآخرين ، وقدرته على مشاطرة غيره الوجدان ، قد تشتد لديه حتى يجتذب كثيراً من الأصدقاء والأتباع ، وقد يبرع كخطيب سياسى ، أو ممثل أو طبيب أو معلم ، أو رئيس منظم أو خادم للجمهور ، ولكنه لن يكون مفكراً عظيماً أو كاتباً كبيراً .

أما الفردى فالعالم الخارجى ليس له فى نظره معنى كبير ، وهو لا يأبه له ، وكثيراً ما يحب أن يخلو إلى نفسه ، وقد يستطيع أن يعيش فى حجرة كئيبة سيئة التنسيق دون أن يلحظ ما بها من عيوب ، بل وقد لا يتنبه لما يحوطه من أسباب الزينة والجمال . وهو على نقيض الإجتماعى لا يتملكه الخوف على أهله وذويه ؛ لا يفكر كثيراً فى أصدقائه وزملائه ، يطمئن عليهم فى حضرتهم وفى غيبتهم ؛ واشد ما يخشاه - رغم أنه قلما يحس بذلك - أنه قد تنقطع به الصلة عن عالم الحقيقة وعن العالم الخارجى . وقد يتملكه وهم غامض أنه ربما جن وخفى جنونه على غيره ؛ يخشى أن يلتقى بالغريب ، ولكنه يخشى كذلك =

ولكن تيار الطاقة الحيوية فى معظم الأحيان لا يتوقف كله عن التدفق ، وإنما يقف السد دون بعضه وحسب ، فتتدفق كمية كافية ، ويتمكن الفرد من العيش عيشة مرضية ولو إلى حد . نعم إنه قد يكتئب قليلا ، أو لايبالى ، أو يشرد ذهنه ، أو يمتلئ جسمه بالأمراض ، أو يصبح عصبياً ، أو تنتابه المخاوف ، ولكنه - مع ذلك - يستطيع أن يحيا بين الناس . وهذا النزاع الأولى بين إرادة

= إن لم يستطع أن يتغلب على هذه العزلة - أن يبيت ولاصديق له ، أو أن يمسه الجنون . وقد يرى فى أحلامه المزعجة (الكابوس) انه يتسلق درجا عالياً ، وكلما صعد إلى أعلى هوت من تحته الدرجات ، حتى إذا ما بلغ القمة ألفى الدرجة الأخيرة معلقة فى الفضاء . وقد يرى أنه يقطن غرفة عليا ، وأن السلم الذى يصعد عليه قديم مهدم ، وقد يتحطم إن حاول الهبوط . هذه الأحلام وأمثالها تشير إلى خوفه اللاشعورى من الانفصال عن العالم الخارجى يوماً ما انفصالا تاماً . وتراه شديد النقد لنفسه ، مترددا فى عمله لأنه لايثق فى أحكامه الشخصية ، يرعى شعور غيره إلى حد كبير ، إذ ينفذ ببصيرته إلى ما يشكون ، لأنه يرى فى خياله كيف يقع عمله على نفوس الآخرين ؛ يحب التنقل من جهة إلى أخرى ، ومن وظيفة إلى أخرى ، لأنه يرى فى ذلك حافزاً له على الاهتمام بالعالم الخارجى . ومن أمثال هذا الرجل ينشأ الكاتب والمفكر والباحث والمتدين المتحمس ومن إليهم .

والتطرف فى شعور الفردى والاجتماعى شديد الخطر ، ولكن غريزة البقاء بطبيعتها تدفع المرء إلى الاتزان والأخذ من كل منهما =

الحياة والخوف من مشقاتها ومتاعبها قائم بنفوسنا جميعاً لدرجة ما ، وجانب هام من عمل الطبيب النفسى ، ينحصر فى تحطيم العوائق وإطلاق طاقة المريض . ويرمى الطبيب إلى إخراج هذه المخاوف - وهى فى الغالب كلها وهمية لا أساس لها - إلى حيز الشعور ، لأن حدتها تتثلم حين يواجهها المرء بوعيه وشعوره .

ولو فرضنا أن السد (ا) فى الشكل الثانى قد أزيل ، فإن قدراً كافياً من الطاقة الحيوية ينطلق ، ويتدفق تياره فى شعبتين تتحدان فيما بعد كما يظهر فى الشكل الأول . ولكن هناك فى عصرنا الحاضر - عصر المدنية - حالات كثيرة لايمكن فيها لإحدى هاتين الغريزتين أن تنفس عن نفسها . فإن قليلا من الناس من يسعده الحظ فيجد

= بمقدار . فالإجتماعى يتوق إلى الدعة والراحة والقدرة على الاستمتاع بالعزلة بعيداً عن العالم الخارجى؛ بينا ترى الفردى يسعى إلى تلمس الأسباب والوسائل لاختلاطه بغيره من الناس . والرجل العادى كثيراً ما يفلح فى الوصول إلى بغيته والتمتع بشىء من التوازن . وعلى ذلك فإنك قد تجد طفلا فردياً محضاً أو جمعياً محضاً ، ولكن التربية والتعليم وكر السنين والأيام تهذب الفرد وتفل الكثير من تطرفه فى هذه الناحية أو فى تلك، وإذا فشل المرء فى إيجاد هذا التوازن أصيب بخلل عصبى قد يصل إلى حد الجنون ، ولكنه فى كثير من الأحيان لايعدو أن يكون شذوذاً عقلياً ، أو مرضاً جثمانياً . كما أنه كثيراً ماينتهى إلى عجز شديد فى ناحية من نواحى الحياة .

منفذاً كافياً لبسط نفوذه وسلطانه ومخرجا كافياً لغريزته الجنسية . والكثرة الغالبة من الناس تحيا حياتها كما فى الشكلين الثالث والرابع ، أى أن القناة الجنسية تنسد فتتدفق الطاقة الحيوية فى قناة السيطرة ، أوقد يحدث العكس ، وبعبارة أخرى كثيراً مايشاهد الطبيب النفسى حالات تسود فيها إرادة القوة حتى تصيح عاملا هداماً ، كما يصادف حالات أخرى نمت فيها الغريزة الجنسية نمواً كبيراً حتى باتت خطراً عظيما على الفرد وعلى المجتمع .

شكل ٣ : تيار الجنسى

شكل ٤ : تيار السيطرة

وهذا يؤدى بنا إلى نتيجة حتمية ، وهى أن التحرر من الخوف ، وأن تصريف الغريزة الجنسية وغريزة السيطرة تصريفاً متزناً ، ضرورة لامناص منها إن كان لابد للإنسان أن يتطور تطوراً صحيحاً طبيعياً . ويتوقف التصريف الطبيعى لهاتين الغريزتين على ظروف المجتمع وضروب المدنية . وإنى أرى أن الحياة الجنسية فى مصر مضطربة غاية الاضطراب ، وأعزو الكثير من الفشل فى الحياة العملية إلى ذلك . ولعلنا إن استطعنا أن نتوسع فى تعليم البنت - وبخاصة فى المرحلة الجامعية - وجدنا من اختلاط الجنسين فى معاهد التعليم العليا ما يزيل شيئاً من الغموض الذى يقوم بأذهان الأطفال عن الجنس الآخر ، ولقد بدأت الفتاة المصرية تخرج إلى المجتمع ، فإن سرنا فى هذه الطريق - مع المحافظة على قواعد الأخلاق العامة - استطعنا أن نزيل كثيراً مما يشغل أذهان الشباب . كما أن هناك ظاهرة خطرة أحب أن أشير إليها فى هذا الفصل ، وهى أن شبابنا المتعلم إما يؤجل سن الزواج أو لا يتزوج البتة ، فيزيد بذلك من قوة الرغبة المكبوتة مما يؤدى إلى سرعة الغضب والقلق فى كل عمل يقوم به ، ولذا فالزواج المبكر من دواعى الطمأنينة واستقرار النفس .

وليس الإنسان المتمدن خيراً حالا من أخيه الهمجى ، فللإنسان الأول من أسباب التصريف والكبت ما لنا نحن أبناء المدنية ، وإن يكن بصورة أخرى . فنحن مثلا - من حيث غريزة السيطرة - نظفر بالنفوذ عن طريق جمع الثروة وفصل الطبقات والقوة البدنية وتثقيف العقل

وليس هناك فارق جوهرى بيننا فى ذلك وبين الرجل الهمجى إذ يجمع الأبقار ، ويمارس الصيد بدلا من الألعاب الرياضية المنظمة ، ويدل على علمه بخبرته فى السحر والكهانة . وأما فيما يتعلق بالتنفيس عن الغريزة الجنسية فالإنسان البدائى خير من الرجل المتمدين ، إذ أن الحرية والاستهتار الجنسى أشد لديه مما نشاهده فى أية جماعة متحضرة ، وترتب على ذلك انعدام الأمراض العصبية والهستريا عنده ، وقد أثبت ذلك مالينوسكى بالبحوث التى قام بها بين أهل ميلنزيا ، إذ شاهد أن الأمراض العصبية تكثر حيث القيود الجنسية ، وتنعدم حيث الحرية الجنسية .

وقد يبدو عجيباً للقارىء أن شيئا من الحرية الجنسية ينتج مجتمعا صحيحا ، وأن القيود الجنسية تخرج مجتمعا كئيبا ، ولكنا لو ألقينا نظرة على المجتمع المصرى والمجتمع الانجليزى مثلا ، ألفينا فارقا كبيراً بين الاثنين ، فالأول قليل الإنتاج - ورغم ما يبدو عليه من الرزانة والجد - والثانى وفير الانتاج رغم لهوه ومرحه .

ولعل هذا هو السبب فى أن الشرق يكاد يتفرد بالبحوث الروحانية العميقة ، بينما يشتغل علماء الغرب بالعلوم المادية العملية. ولكنا إذ نوصى بشىء من الحرية الجنسية لا نرمى إلى الإباحية ، وإنما نرمى إلى تنظيم العلاقات بين الجنسين تنظيما لايخرج عن حدود والأخلاق الدين . والدين الإسلامى - كما نعلم - ييسر هذه العلاقات تيسيراً قد لا يتوفر فى أية شريعة أخرى . ونحن - مع هذا - ننصح

بشيء من ضبط النفس لأسباب سنبينها فيما بعد :

ولا شك أن الإنسان الذى يعيش وسط المدنية الحديثة أشد تعقيداً فى نفسيته من زميله الهمجى ، ولكن الدوافع الأساسية واحدة لا تتغير عند هذا أو ذاك . فإن إرادة الحياة ، أو كما يقال عنها أحيانا غريزة حفظ الذات، قوية فينا قوتها لدى الإنسان الهمجى؛ وهى غريزة لا يستطيع الإنسان المتمدن - مهما يكن - أن يغض الطرف عنها . أجل إنك قد تسأل الوالد (أو الأم) عن شدة هذه الغريزة عنده فينكر أنه أحفظ لنفسه منه لأبنائه ؛ ولكن تجارب العلماء دلت على أنه إذا أحدق الخطر اندفع الأب تلقائيا إلى نجاة نفسه أولا ثم أبنائه ثانيا . وثبت بالبحث الدقيق أن التضحية بالنفس تأتى فى المرتبة الثانية بعد غريزة حفظ الذات ، وإنها وليدة التفكير وليست عملا يقوم به الانسان تلقائيا دون جهد .

ومعنى إرادة الحياة أوسع مدى من معنى تلك الغريزة التى تحفزنا إلى الهرب من الخطر المفاجىء ؛ فإن مسألة توفير الطعام والمأوى ، وخشية الألم ، كل ذلك مرتبط بها . والمشكلة التى ينبغى للشعوب المتمدنة أن تواجهها هى ضرورة السيطرة على هذه الغرائز بأكثر مما يستطيع الإنسان الهمجى . وإن كان الرجل البدائى يخشى الكهانة والعرافة والسحر فنحن نخشى مشقة كسب الرزق ، وعدم الاطمئنان على مواصلة العمل، والمضاربة فى التجارة والصناعة ، ونكاد لا نحتمل مواجهتها بالشجاعة والإقدام . أجل إن العلوم كلما تقدمت ازددنا

بتقدمها قوة ، ولكننا نزداد خوفا كذلك ، فإن مانعلم عن الأمراض وما نتوهم أننا نعلمه عن أسبابها - كالوراثة والعدوى - تضاعف من مخاوف الحياة عند الكثير منا وهى مخاوف ينعم الهمجى فى جهله بها .

وذو العلم يشقى فى النعيم بعلمه وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

ولكن هل لهذه المخاوف التى لا نستطيع أن نقاومها علاج ما ؟ لعل من اليسير أن تجيب على هذا السؤال بقولك ، إننا يجب أن نطردها من الأذهان ، لأنها كئيبة غير سارة ، ونحن نفخر إذا أصبنا فى ذلك نجاحاً ؛ ولكنا لاندرى إننا إذ نتحدث عن طرد الفكرة من الذهن لا نعدو مجرد القول ، والحقيقة إننا إن عرفنا شيئاً ما تعسر علينا أن ننفى معرفته بعد ذلك ؛ فما مصير هذا الشىء إذن إذا نحن أبينا أن نفكر فيه ؟ إننا حين نطرده من الشعور يتسرب إلى اللاشعور ويصبح جزءاً منه ، وهنالك يقيم حرباً ينجم عنها كثير من المتاعب العصبية ما دامت مشتعلة . فإذا حمى وطيس هذه الحرب تقدم العقل الباطن بحل ما ، وهذا الحل إما لايقوم ألبتة على العقل ، وإما أن يكون تخلصا مؤقتاً وحسب ؛ وقد يتخذ الأول صورة الاضطراب العصبى واهتزاز الرأس والأطراف اهتزازاً لاشعورياً بين الحين والآخر ، أو حدة المزاج وسهولة إثارته . ومن الحلول المؤقتة غير الناجعة نذكر على سبيل المثال حال الرجل المريض يرقد فى المستشفى ويعلم أنه سيفقد وظيفته لعدم لياقته بعد خروجه . إنه يخشى أن يواجه هذا الموقف ، ولذا فهو يطرده من ذهنه فى حينه .

إنه لايقول لنفسه صراحة وشعوريا « إنى لا أستطيع أن أواجه العالم، ولذا فإن صحتى لن تتقدم » ، لأن عقله الواعى يقول له إن هذه الوسيلة لمعالجة الموقف سخيفة غير معقولة ، ولكن عقله غير الواعى يساعده على ملازمة الفراش كى لا يواجه أزمة التعطل عن العمل ؛ ويشتد فى نفسه النزاع اللاشعورى حتى ينتهى الأمر بأن يؤثر العقل فى الجسم تأثيرا فعليا وتبقى أعراض المرض . والرجل فى الحقيقة لايتمارض على علم منه ؛ ولكنه يفر لاشعوريا من مواجهة الواقع .

وكذلك الطفل حين يشكو ألما فى أسنانه مثلا ، فان هذه الشكوى قد تكون هروبا من الإمتحان ، وهو يحس بالألم فعلا رغم سلامة أسنانه من كل عطب . وقد تستطيع أن تقنع الرجل الراشد بحقيقة الأمر ، ولكن من الخطأ أن تقول للطفل إن آلامه وهمية ، لأنك بذلك تزيد من شدة الألم إذ تمد عقله الباطن بسبب آخر للشعور بالألم ، وهو ضرورة الهروب من تهمة التمارض . وقد أبان المسيو كوى Coué أن قوة اللاشعور شديدة على الجسم ؛ وأن الأمراض التى تسببها حقيقية كالأمراض العقليه. ومن السهل فى حالة الطفل أن تظهر له شيئا من العطف وأن تستخرج منه السبب اللاشعورى بلباقة؛ فإن نجحنا فى ذلك زال عنه الألم .

وتميل المخاوف إلى أن تسد تدفق تيار الطاقة الحيوية عند مصدره . والرجل المتمدن - وإن كان لا يخشى الجوع والمرض والموت بمقدار مايخشى الرجل المتوحش - قد يتوقف تيار طاقته

الحيوية عن التدفق لعدم التصريف الكافى لغريزتى الجنس والسيطرة ، وليس هذا بالأمر الهين ، فإن القوة التى تدفع الإنسان إلى حب الحياة هى بعينها التى تجعله يحب بسط نفوذه العقلى والبدنى ، فيحب أن يظهر تفوقه فى ناحية ما وأن يشكل الأمور وفقاً لإرادته . وهذه الغريزة عند الإنسان البدائى تؤدى به إلى تنمية قوته البدنية ، وإلى الاشتباك فى الحروب ، والقسوة على الأسرى ، وإلى أعمال صبيانية كثيرة . وتحتم الشعوب المتأخرة على الشاب الذى يزعم لنفسه الشجاعة أن يبرهن على مقدرته على احتمال الألم والعذاب ، وأن يبين مهارته فى القتال ، قبل أن يصبح عضواً صالحاً فى قبيلته . أما فى المجتمع المتمدن فالثروة والجاه والوظيفة تحل محل مطامع الهمجى ، وما يزال التفوق فى الرياضة البدنية وسيلة لإظهار القوة والتفوق فى المجتمع المتمدن .

ويظهر الأطفال بجلاء حبهم للقوة ، فإن الطفل الذى يضرب على المائدة بملعقته ، ويرمى بلعبته إلى الأرض كلما سلمتها إليه أمه ، أو يخلع الحذاء كلما ألبسته إياه خادمته ، إنما يريد أن يقول : « انظروا جميعاً إلى قوتى » . والطفل الذى يمتشق الحسام ويضرب فى أرجاء البيت يدق الطبل ، إنما يحلم أنه أعلى مرتبة من العالم أجمع ، أو أنه سوف يكون كذلك يوماً ما . والبنت الصغيرة التى تحاول أن تتفوق على أخيها فى الدراسة أو فى اللعب ، إنما تريد أن تثبت قوتها ونفوذها .

وهناك من الأطفال من لايجد منفذاً كافياً لإثبات تفوقه ، فتراه شموساً رغم محاولة والديه ومعلميه فى كبح جماحه ، وكثيراً ما ينفجر

ويحتد ويحطم مايلاقيه ويتحدى العالم بأسره . وهناك من الفتيات من لايظفرن بلباس حسن ، ويدركن انهن مهملات لاقيمة لهن ، فينفسن عن رغبة السيطرة بأن يتوهمن أنهن حوريات مجهولات ، وأن الرجال سوف يحثون عند أقدامهن يوماً ، وأنهن أعلى مكانة من والديهن الوضيعين ، أو قد ينفسن عن أنفسهن بزجر من هم أقل منهن جسماً أومقاماً .

والإنسان الذى يعيش فى العالم المتمدن الحديث لايجد فى أكثر الحالات منفذاً لغريزة السيطرة، فالرجل قديكون فى مكانة وضيعة وقد لايكون سيد نفسه ؛ وعمله اليومى كثيراً ما يكون عملا لايحتاج إلى الابتكار ، والمرأة قد تعيش فى منزل صغير وليس لها مصالح كثيرة فى العالم الخارجى. فكيف يحصل أمثال هؤلاء القوم من العامة على الشعور بالسيطرة والنفوذ ؟ إنهم يجدون ذلك بطرق شتى ، أكثرها ذميم غير محمود ، كالغيبة مثلا ، فهى تعطينا فكرة القوة والنفوذ والعلو على من نعرف من الناس ، لأننا إذ نغتاب شخصاً ما ، إنما نريد بطريق غير مباشرة أن نبين حطته عنا وارتفاعنا عنه . والخمر وسيلة أخرى للإحساس بالنفوذ ، فهى تجعل شاربها - لفترة قصيرة على الأقل - يحس كأنه يملك العالم . كما أن فى زجر الزوجة والأطفال الصغار الذين يقعون تحت طائلنا تفريج عن هذه الرغبة المكبوتة ؛ والزوج الذى يتزوج من امرأة غنية يحاول أن يبسط سلطانه بأن يوهمها بأنه حكيم مدبر ، أو قوى البدن شديد البأس . ولدينا فى تاريخ انجلترا

مثل البرنس ألبرت الذى تزوج من الملكة فكتوريا ، فقد أخذ يحاول حتى أفلح فعلا فى سلبها كثيراً من نفوذها على الدولة .

وأحب قبل أن أفرغ من هذا الفصل أن أقول كلمة أخرى عن موقف الإنسان من غريزة التناسل أو الغريزة الجنسية فى هذا المجتمع المتمدن . إن موقفه منها سيء غاية فى السوء ، فالغريزة الجنسية تنمو لدى الفرد سنوات عدة قبل أن تجد لها منفذا طبيعياً مشروعاً وتحتل مكانة هامة فى حياته ، وذلك من جهة لأن الإنسان المتمدن يحيا على قاعدة الحب والزواج أكثر مما يحيا الإنسان الهمجى ، ومن جهة أخرى لأن عادات الإنسان المتمدن ووفرة الطعام لديه ، وعيشه الناعم الرغد ، وافتقاره إلى المجهود البدنى ، تحث فيه الرغبة الجنسية . ويحتم المجتمع على الرجال والنساء على السواء أن يصرفوا سنوات عدة يعالجون فيها هذه الغريزة الطبيعية الأساسية علاجاً ما ، دون أن يتيح لهم الفرصة للتنفيس عنها تنفيساً طبيعياً مشروعاً بالزواج . فموقف الإنسان المتمدن من هذه الغريزة إذن غاية فى الغرابة ، إذ من الجلى أن هذه الرغبات المكبوتة ، وهذه الغرائز المكبوحة ، لابد أن توجد صراعاً فى النفس . وإن كان الصراع يسبب النورستانيا فيحق لنا أن نتساءل ولماذا لم تقع الكثرة الغالبة من الناس فريسة للأمراض العصبية . والجواب على هذا السؤال سهل يسير ، وذلك أن الانسان له قدرة عجيبة على الملاءمة بين نفسه وبين ما يحيط به من ظروف ، فكما أن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يستطيع

أن يعيش فى كل الأجواء وعلى أى لون من ألوان الطعام ، فإنه يستطيع كذلك أن يتصرف فى كثير من المشاكل العقلية والخلقية . فإن حرمته المنفذ الطبيعى الأولى لطاقته الحيوية أسرع إلى اختراع منفذ آخر يفى بالغرض . وقد وجد علماء النفس أن الرجل - أو المرأة - يبقى عضواً صالحاً فى المجتمع من الوجهة العقلية والجثمانية مادامت هذه المنافذ مشبعة مقنعة ، ويسمى مثل هذا المنفذ المرضى فى علم النفس « بالتسامى » Sublimation ، وموضوع التسامى بالرغبات الطبيعية شائك واسع الأطراف ، ولكن فى الحياة اليومية أمثلة عديدة كثيرة الحدوث ، نستطيع جميعاً أن نتعرفها ونفهمها . فنحن نعرف مثلا أن البنين والبنات فى هذه الأيام فى حاجة إلى الألعاب الكثيرة خارج الدور وإلى الألعاب الرياضية العنيفة ، وإن تركهم شاردى الذهن ضار بهم ، ويسبب لهم كثيراً من القلق النفسى . وبعبارة أخرى إن تيار القوة الحيوية الذى يدفعهم إلى بسط نفوذهم وسلطانهم ينبغى أن يجد له متنفساً ملائما ، وإلا وجد له مخرجا غير مرغوب فيه ، وقد دل البحث فى السنوات الأخيرة على أن الألعاب - وإن كانت فى عهد الطفولة والشباب منفذاً كافياً للتنفيس عن غريزة السيطرة - ليست مما يدعو إلى الإنشاء وقوة الابتكار والإبداع ، ولذا فهى لا تكفى للتسامى بغريزة الجنس عند نضوجها ، ومن أجل ذلك تدخل المدارس الحديثة فى برنامجها شيئاً من الصناعة وكثيراً من الفنون حيث يجد الأطفال مجالا للتنفيس عن حب الخلق

والإنشاء (وهو سر غريزة التناسل) وذلك بالإبداع فى التصميم والرسم والصنع . والأشغال اليدوية ضرب من ضروب التسامى بغريزة الجنس ، فيجب الاهتمام بها فى سن المراهقة .

ولعل أجمل مافى القدرة على التسامى بالرغبات الغرزية أن التسامى يرفع المرء تدريجاً من حياة كلها إشباع للشهوات الحسية إلى حياة رفيعة مليئة بحب الفن والجمال ، وإلى التدين والإيثار وحب الغير . وعلى ذلك فقد يكون فى كبت غريزة الجنس والسيطرة عوض للإنسان وفائدة للمجتمع . بل إنا لمدينون بكل ماهو رفيع فى المدنية الحديثة لكبت الغرائز الوحشية عند الإنسان .

الخوف

قلنا فى الفصل السابق إن الطاقة الحيوية أو القوة الغرزية قد تنسد عندمخرجها ، وقلنا إن الخوف من أقوى الأسباب فى هذا السد، ولذا وجب أن ندرس الخوف كى نعرف أى دور كبير يلعب فى حياتنا . ولا نقصد بالخوف هنا ذلك الإحساس الشديد بالرعب والفزع الذى قلما يصادف المرء فى حياته ، إنما نعنى ذلك الشعور، الذى ينتابك فى كل مكان وفى كل وقت ، ينتابك فى البيت وفى حجرة الدراسة وفى المكتب وفى الملعب ، وقد ينشأ عن توافه الأسباب وقد تحس به مئين المرات كل يوم، فإنك ربما تخشى أن تتعرض لتيار الهواء ، أو أن يشتد الحر ، أو لاتهضم الطعام ، أو أن يكثر العمل ، وأن تسىء إلى أحد أو يسىء إليك أحد ، وأن تفقد مورد رزقك : وفوق هذا وذاك فإنك تخشى أشد ماتخشى أن تصبح معرضاً للسخرية والضحك . ونحن نعلم أطفالنا أن يخافوا إن هم وضعوا أصابعهم فى أفواههم ، وإن صاحوا وعلا صياحهم ، وإن خرجوا وحدهم بعيداً عن الدار ، وإن حاولوا القرب من البحر ، أو تسلق الأشجار ، وإن أسرعوا فى الجرى ، وهكذا .

وأيسر الطرق وأسرعها لفرض إرادتك على فرد ما هى أن تلقى فى روعه الخوف من العواقب : وما توقيع العقوبة على الأطفال سوى ضرب من إيحاء الخوف إلى نفوسهم . ولا شك أن العلم

بالعواقب التى لامناص منها عون كبير على النظام ، ولكن خوف النتائج شديد الوقع على النفوس ، وليس هناك ما يعوق سير المدنية أكثر من خوف المشقة وخوف الفشل وخوف السخرية من الآخرين . الخوف له جاذبية لاتقل شدة عن جاذبية الحب ، فإنك إن خشيت شيئاً لبثت ترقبه بعينيك ، وتصوب نحوه ناظريك منجذباً إليه تطلعاً أو رهبة . وكثيراً مايعانى المرء من أثر الخوف حين يرتكب خطأ وسط جماعة من الناس ، كأن ينقلب منه فنجان القهوة ، أو أن يشير إلى موضوع يدرك فيما بعد خطأ التحدث فيه ، وما إلى ذلك . وكلنا يعرف انه كلما اشتد بالمرء الخوف من الوقوع فى خطأ ما زاد احتمال ارتكابه إياه . وكثير من الناس يعزو ذلك إلى سوء الحظ ، ولكن هناك فى الواقع ارتباطاً جد معقول بين الأسباب والنتائج ، وذلك أننا نميل إلى أن نعمل مانوجه إليه الفكر ، سواء كان الفكر معقوداً بشىء مرغوب فيه أو بشىء بغيض . وقد دل البحث فى السنوات الأخيرة على أن هذا الميل لايؤثر فى الوظائف التى نتحكم فيها تحكما إرادياً وحسب ، كالكلام والحركة ، ولكنه يؤثر كذلك فى حركات الجسم غير الإرادية . وعلى ذلك فإن ركز المرء فكره فى عملية الهضم على عقيدة أنها لن تتم فى يسر ، شعر بعسر الهضم ؛ وإن ألح على المرء خوف المرض من العدوى فانه يهيىء لنفسه انتقال العدوى إليه ، وقد يصاب فعلا بالمرض . وأكثر الناس يعلم هذه الحقائق اليوم ، ومع ذلك فقل منهم من يعتقد بهذه

النظرية : وهى أن الخوف من شيء هو أسوأ وسيلة لتجنبه . ويقول المثل المصرى العامى (من يخشى العفريت يلتقى به) .

الخوف من أهم أسباب النزاع الشعورى والنزاع اللاشعورى . بواعث الحياة تقول لنا دائماً « افعل هذا » وغريزة الخوف تقول لنا « لاتفعل هذا » وهذه المنازعات - كما رأينا - تستنفد حيويتنا وتسبب لنا الأمراض ، ولذا فواجبنا أن ندرس مخاوف الأطفال ومخاوف الكبار الشائعة ونعلم مظاهرها .

وتستطيع أن تتعرف الخائف ، فهو قليل الحيوية ، وقد لا يكون مريضاً ولكنه قليل الحماسة والنشاط ، شديد الكبت لغريزتى الجنس والسيطرة . فهو يفر من التبعة وينشد السلامة بأى ثمن ، وهو يؤثر أن يكابد القلق والبؤس والحرمان والظلم على أن يكافح فى وجه الناس والظروف . وكثيراً ما تبتعد الفتاة عن معاشرة الرجال — حتى أقرباءها — خوفاً لا حياء ، وقد يتحول الكبت فى نفسها تسامياً فتتفانى مثلا فى خدمة والديها وأخوتها كى تتقى خطر « الفردية » وتسمو بأخلاقها ، ولكن كثيراً ما يفشل التسامى وتصاب البنت بالاكتئاب والمرض والشذوذ .

والمخاوف التى تنتابنا كل يوم فى حياة العصر — الحاضر — حياة المدنية — يمكن تقسيمها تقسيماً سهلا يسيراً ، فهى قليلة وإن تنوعت فى مظاهرها — قليلة فى أصولها . وبما أن هذه الأصول تختلف بعض الشيء عند الأطفال عنها عند الكبار ، فيجدر بنا أن نقسمها

قسمين : مخاوف الأطفال ومخاوف الكبار .

مخاوف الأطفال :

إذا تكلمنا عن الأطفال فنحن إنما نقصد أولئك الذين يعيشون فى ظروف عادية فى بيت تحت رعاية والديهم أو غيرهم من الراشدين المسئولين عن تربيتهم ، أما المتشردون من أبناء السبيل الذين يقومون بأود أنفسهم ويتحملون تبعة بقائهم فأولئك مخاوفهم أشبه بمخاوف الكبار . ويمكن تقسيم مخاوف الطفل العادى أقساماً أربعة ، وهى الخوف من المجهول ، والخوف من الآلام والمخـــاطر الجثمانية ، والخوف من السخرية ، والخوف من الاستهجان .

١ — خوف المجهول : ربما كان الخوف من المجهول غريزة إنسانية ورثناها عن آبائنا المتوحشين الأولين ، الذى كان لديهم كل شىء غير مألوف سبباً يهدد حياتهم . ولكن بتقدم المدنية أخذ هذا اللون من الخوف يقل تدريجاً كلما ازدادت قوة الإنسان العاقلة . فالطفل فى سنواته الثلاث أو الأربع الأولى من حياته يخشى كل مالا يألف ، فالطفل الفقير ، الذى لا يألف فى بيته إلا النزر اليسير من ضرورات الحياة ، إن أتيت به إلى روضة من رياض الأطفال ، ذعر من اللعب ووسائل التسلية ذعراً شديداً ، وقد يصيح ويبكى ساعات متواليات فرقاً ورعباً . بل إن وجها غير مألوف قد يثير الرعب عند الطفل فى مثل هذه السن الباكرة . ومثل هذا الخوف

من المجهول تجده عند الكبار ، ولكنه بطبيعه الحال أقل حدوثاً ، لأن الراشد قد تصادفه الألوف من العلاقات الجديدة بين الأشياء ولكنه قل أن يصادفه شيء جديد عليه كل الجدة ، فإن التقينا به شعرنا بالخوف منه ، فإن دخل أحدنا يوماً بيته فرأى أول مارأى حيواناً له جسم القط ورأس الدجاجة شعر بالخوف فجأة ، لا لأن الحيوان خطر ، ولكن لأنه يخرج عن حدود المألوف . وكثير مما هو مألوف لنا غريب على الطفل يثير فيه الخوف والرعب ، فهو يصيح فى الظلام لأنه يتخيل شيئاً ما يكمن له ، ولا فرق بينه فى ذلك وبين رجل يجد فى حجرته فجأة ثعباناً فى الظلام . وتستطيع أن تخيف الطفل الصغير مثلا بأن تقدم له برتقالة دققت فيها بعض أعواد الكبريت ، وإنه ليخشى أن يلمسها لأنه لم يألف أن يرى البرتقالة كذلك ، وقد يتصور فيها الحياة .

٢ — خوف الخطر الجثمانى : الخوف من الخطر الجثمانى مصدر شائع للصراع اللاشعورى عند الأطفال . وقد يرى الطفل أنه عار عليه أن يعترف — حتى لنفسه — بأنه يخشى القفز فى الماء أو مداعبة الكلاب . فيكتم ذلك فى نفسه ويكون له أثره فيما بعد .

اشترى والد مرة عجلة لابنه ، وكان الولد لا يعرف ركوب العجلات ، ولكنه يتحرق شوقاً لأن يجرب هذا الضرب من اللعب . وما إن حاول ذلك حتى خر على الأرض وأصابه الأذى ، فزعم لنفسه أن موعد الغداء قد حل وأنه لايصح أن يتأخر عنه ،

وطرح العجلة جانباً ذلك اليوم . ولكنه لزم الفراش فى اليوم التالى وارتفعت درجة حرارته ، ولم يدر الطبيب لهذه الحمى من سبب ، والتعليل النفسى لهذا المرض أن الطفل أحس بالخوف من العود إلى ركوب العجلة ، ولكنه لم يعترف لنفسه شعورياً بهـذا الخوف ، فاستقر الخوف فى اللاشعور ، واصطرع مع تقدير الطفل لجرأته ورغبته فى تعلم الركوب . وجاء الطبيب النفسى وأخذ يحادث المريض وذكر أثناء حديثه أن ركوب العجلات أمر شاق ، وقال إن الكبار كثيراً مايشكون منه ، فنشط الطفل بعد ذلك بقليل ، واستعد لملاقاة التجربة من جديد والتغلب على مخاوفه .

وكثيراً مانتهم الأطفال بالتمارض ، ولكن هذا التمارض فى الواقع غالباً ما يكون مرضاً وهمياً ينشأ عن مثل هذه المخاوف . وأمثال هذه الأمراض تحتاج إلى لباقة فى معالجتها ، ومن واجبنا ألا نتهم الطفل صراحة بادعاء المرض ، لأننا بذلك نثير لديه عناداً لاشعورياً تنشأ عنه أمراض فعلية ، وإنما ينبغى أن نقتصر على إبداء الأسف له ، وأن نشجعه على مقاومته واستئنافه العمل ، وبذلك نتجنب إثارة الدافع النفسى الذى قد يدفعه لأن يثبت أنه كان مريضاً فعلا رغم ريبة الكبار فيه .

٣ — خوف السخرية : قد يكون الخوف من السخرية أشد أسباب الانكماش لدى الكثير من الأطفال ، فالسخرية يتسبب عنها الإحساس بالحطة التى تبقى أمداً طويلا بعد انقضاء ذكرى الحادث الذى أثارها .

إنك إن انفجرت بالضحك من طفل حين يخطىء فى النطق بكلمة ما ، أو حين يخطىء خطأ لا يصح الوقوع فيه أمام الناس ، فإنك غالباً ماتؤذيه أكثر مما لو ضربته ضرباً مبرحا . فإنك إن ثرت فى وجه الطفل أو ضربته تؤذى جهازه العصبى ، ولكنك إن هزأت به فقد تسىء إلى احترامه لنفسه ، وبذا تقضى فيه على تلك الصفة اللازمة له فى حياته المقبلة ، وهى الثقة بالنفس ؛ وكثيراً مانشاهد فى حجرة الدرس أطفالا لايبوحون بما يعلمون ، وتعوزهم الصراحة خوفاً من السخرية منهم . أمثـــال هؤلاء حينما يتمون الدراسة ويخرجون إلى معترك الحياة يعوزهم الإقدام خوفاً من الاستهتار بما يعملون .

والخوف من السخرية يدفع ببعض الأطفال إلى الكذب أكثر مما يدفعهم الخوف من العقوبة ، فقد يعلمون لاشعوريا أن العقوبة زائلة ولكن الإساءة إلى احترام النفس باقية لاتزول . تعلم أحمد وهو طفل فى السادسة معرفة الوقت بالساعة ، وكان شديد الفخر والعجب بذلك ، وذهب يوما إلى بيت عمه ، ولما أزفت ساعة الغداء ، أخذ يحدق فى ساعة الحائط طويلا كى لا يتأخر عن موعد الغداء ، فقال له عمه « هل أنت تنظر إلى الساعة لتعرف الوقت يا أحمد ؟ هذه الساعة لا تتحرك » . فخجل أحمد لأنه لم يفرق بين الساعة المتحركة والساعة الساكنة ، وأحس أن موضع فخره قد بات سبباً للسخرية منه فاضطر إلى الكذب وصاح قائلا : « كلا ياعمى . إننى ما كنت أحدق فى الساعة ، إنما كنت أنظر إلى الزهور التى إلى جوارها ،

ومن أكثر العيوب شيوعا بين الأطفال من أبناء الطبقة المتوسطة والطبقة العليا شدة « إحساسهم بأنفسهم » ويلاحظ أساتذة الفنون - والفنون وسائل التعبير عن النفس - أن أبناء الفقراء يتقدمون فيها أسرع مما يتقدم أبناء الأغنياء ، لأن الأولين أكثر جرياً مع طبيعتهم من الآخرين الذين يخشون نقد مايعملون . والتعبير التلقائى الذى لا كلفة فيه من مميزات عامة الجماهير ، وأما الإحساس بالنفس والكلفة فمن مميزات الطبقة العليا . نعم إن أبناء الطبقة الراقية لايبدون إحساسهم بأنفسهم بالحركات الذميمة كوضع الأصابع فى الأفواه ومد الشفتين ، ولكنهم يظهرون هذا الإحساس بمراعاتهم مراعاة دقيقة لقواعد السلوك والأخلاق ، وبالتبلد والبله - وهما من دلائل الكبت . والسبب فى ذلك واضح جلى ، ففى الطبقات الدنيا يضرب الآباء أبناءهم ويزجرونهم زجراً شديداً ، ولذا فأطفالهم لايحسون فى المدارس بالإساءة إلى شعورهم ، واحترامهم لأنفسهم وثقتهم فيها قد لا تتزعزع . وإن شعر أحدهم بالخجل فترة وجيزة ، فسرعان ما تعود إليه الجرأة ثانية . أما فى الطبقات العليا حيث يقوم بتربية الأطفال فى البيت المربيات ومن إليهن ، حيث يكاد الطفل لا يسمع إلا الكلام اللين والتدليل أو الزجر الخفيف ، فلا مناص من أن يكون الطفل شديد النقد لنفسه ، قوى الإحساس بذاته . وقد يؤدى ذلك إلى زعزعة ثقته بنفسه ، وعرقلة الدافع الطبيعى فيه للتعبير عن نفسه تعبيراً صادقاً .

ولما كان لزاماً على الأطفال أن ينشأوا على التقاليد الاجتماعية وأن يمارسوها ، فإنه لابد لهم من الزلل فى كثير من الأحيان ، وما يترتب على الزلل من مشقات نفسية . والواقع أنه ينبغى لنا أن نعلم الأطفال الصواب أولا قبل أن نتقدم فيما يعملون . فبدلا من أن نؤنب علياً لأنه لم يحسن التأدب فى حجرة الاستقبال ، يجب أن نعلمه كيف يحسن التأدب وماذا ينبغى أن يقول فى أمثال هذه المناسبات . ومن الخطأ أن نرشده إلى الصواب فى حضرة الزائرين ، فنحن لا نحب ذلك لأنفسنا . إنما ينبغى أن نرشده من قبل وأن نستعمل صيغة الإيجاب فى النصح لا صيغة النفى حتى يحسن التصرف وقت الحاجة ، وبهذه الوسيلة وحدها يصح سلوكه .

هذا إلى أننا ينبغى أن نترك الأطفال وشأنهم بقدر ما نستطيع وأن لا نكلفهم فوق طاقتهم بل وفوق ما نستطيع نحن أنفسنا ، وأن لانحتم عليهم أن يسلكوا سلوك الرجال ويتخلقوا بأخلاقهم إلا فى ساعات قليلة من النهار ، ثم نترك لهم بقية اليوم يعبرون فيه عن أنفسهم تعبيراً تلقائياً . وليس من حسن التربية فى شىء أن نترك الطفل طيلة يومه مع مربيته فإن هذا يضيع عليه فرصة النمو المطلق الصحى ، وقد يؤدى إلى فساد الطفل وإلى أسوأ النتائج . يجب أن نفهم أن الأطفال إن تركوا وشأنهم قد يتشاجرون وقد يصابون بأذى جثمانى وقد يتلفون ما يحيط بهم من أشياء ، ولكنهم من ناحية أخرى يتعلمون دروساً قيمة ، كأن يعرف الواحد منهم مثلا أنه إذا

كسر لعبته فقدها ، وأنه إن حقد على طفل آخر ساءت العلاقة بينهما ، وأن معاشرة الأنداد ينبغى أن تقوم على قاعدة التبادل والأخذ والعطاء ، وأن حب الذات لا يجدى صاحبه نفعاً فى النهاية .

والحقيقة إن سرعة تأثير السخرية فى الأطفال تغرينا أن نستخدمها كثيراً . إن زجر الطفل وتعييره ونهيه عن تأدية عمل ما قد يكون وسيلة ناجعة فى تأديبه ظاهريا ، وفى تدريبه على تقاليد المجتمع ، وقد يكون فيه إرضاء لضمائرنا حينما نقسو عليه . ولكن علاج الطفل بالسخرية كعلاج الرمضاء بالنار ، أو الحصبة بالماء البارد ، فإنك بذلك قد تتخلص من الأعراض ولكن المرض يبقى — بل قد يزيد — ثم يعود أشد مما كان . كلنا يعرف أولئك الأطفال الذين يكونون عادة سيئة جديدة كلما عالجنا فيهم عادة سيئة . وإذا لم تعد الأعراض بينة فالراجح أننا أفسدنا الطفل فساداً لارجاء فى إصلاحه ، وذلك بإبعاد الشر من منطقة الشعور إلى منطقة اللاشعور . والخلاصة أن ليس هناك ما يدعو إلى السخرية من الطفل ، وأن هذا عمل جد خطير .

٤ — خوف الاستهجان : هناك من الأطفال من يحبون الموافقة على ما يفعلون حباً يجعل الخوف من إرتكاب الخطأ عاملا نفسياً هاماً فى حياتهم . والأطفال يميزون فى سن باكرة جداً بين الخبث (العفرتة) والخطيئة فهم يعلمون أن من الخبث أن يوقظوا صغار الأطفال ، أو أن يحطموا أدوات أمهاتهم ، أو ينهروا الخدم ؛ وأن

من الخطيئة أن يكذبوا أو يسرقوا أو يغشوا . أما الخبث فيكفيه العقوبة ، وأما الخطيئة فتترك أثراً عميقاً وخزياً شديداً . وهذا الخزى هو الذى يسبب الخوف وينجم عنه الشعور بالحطة . والإحساس بالكذب ، والنزاع بين خشية العواقب والرغبة فى الاعتراف ، قد يسبب مجهوداً عصبياً شديداً وعجزاً عن مجابهة شئون الحياة اليومية . ومن الواجبات الدقيقة على المربى أن يستبعد من نفس الطفل الخوف الذى يؤدى إلى الكبت ووخز الضمير ، وذلك دون أن يقل من رقة الإحساس الخلقى الذى يحدو بالأطفال عادة إلى المبالغة فى الإثم فلا يفرقون بين سرقة الحلوى وسرقة المال ، فغريزة الأطفال صائبة ، ومن الخطأ أن تقول لسارق الحلوى « لا بأس ، إنه شىء تافه » كما أنه من الخطأ أن تقول له «أنت لص ، ولن يغفر الله لك ما ارتكبت من إثم » فإن الطفل إذا أدرك أن الكبار يضحكون من الجرم الذى كان يحس بشناعته تزعزعت فى نفسه القيم الخلقية للأعمال دون أن يصل إلى فكرة صائبة .

وهناك غير هذه الأسباب الأربعة للخوف عند الاطفال سبب آخر شائع كثيراً ما يتجاهله الباحثون ، وهو الخوف من النمو والكبر . هذا الخوف من تقدم السن يلازمنا من الطفولة حتى الموت ، فالطفل يتحاشى لاشعورياً ويحجم عن تقدمه نحو الصبا ، والصبي يخشى بدء حياة البلوغ ، والشاب يخشى الكهولة ، والكهل يخشى الشيخوخة ، والشيخ - ونحن جميعاً فى كل مرحلة من مراحل

الحياة ـ نخشى الموت . وإننا نتساءل مم هذا الخوف ؟ أما إننا نخشى الموت ـ حتى وإن يكن غير مصحوب بالمرض والألم ـ فأمر معروف لاشك فيه ، إذ أن الموت باب يؤدى إلى مجاهل لم تكتشف بعد ، ونحن لا نستطيع أن نعرف ماذا يجرى بعد الموت . والطفل الذى يقاوم النمو إلى ما بعد الطفولة مقاومة لاشعورية ، والصبى الذى يتعلق بالصبا سواء ، كلاهما يعلم بغريزته وبالملاحظة أن الحياة سوف تتطلب منهما التنازل عن المسرات والميزات التى يتمتعان بها فى هذه المرحلة أو تلك من العمر . ولكنهما فى الواقع يجهلان مسرات المرحلة التالية من العمر ومزاياها . يعرف الطفل معرفة غامضة أنه يجب أن يتخلى عن كثير من العناية به ، وعن تدليله الذى يتمتع به ، ولكنه لايدرى ما يجنيه من لذة من اتساع مداركه العقلية وزيادة قواه البدنية ، وعلى ذلك كثيراً ما نرى الطفل وهو فى نحو العاشرة أو الحادية عشرة من عمره يجاهد جهاد المستميت بحيله الصبيانية ، وبالخداع ، كى يقنع من هم أكبر منه سناً ـ وهم عادة على استعداد لقبول الإقناع ـ بأنه لا يزال طفلا ، بحاجة إلى العناية والتدليل والحماية . وما هذا إلا مظهر من مظاهر الخوف من تقدم السن .

وكذلك المراهق يرى التبعات والتضحيات جسيمة أمامه ، ويدرك أنها سوف تلاقيه عند نضوج السن والزواج ، وليس لديه فكرة ما عن المسرات التى تعين على تحمل هذه المشاق . وكلما كانت الطفولة سعيدة صحية ملأى بأسباب التنفيس عن القوى النامية ، كان

الطفل عرضة لخطر الخوف من الخروج عن عهد الصغر . ولو أنك قلت لفتاة فى العاشرة من عمرها إنها عما قريب سوف تضطر إلى أن تترك اللعب بالدمى لما لقيت منها أذناً مصغية . فيجب علينا عند تربية الأطفال أن نلاحظ أنا إن جعلنا طفولتهم كلها سعادة وخمولا وحرية ولذة فإنا بذلك نجر عليهم خطر حب الطفولة وعدم الرضا بمفارقتها ، وكما نهيىء للطفل الاستمتاع بمرح الصبا ينبغى لنا كذلك أن نضحى بلذتنا فى اعتماده علينا ، وأن نعلمه قصداً أن يواجه سن الرشد بالثقة والشجاعة ، وأن نهدى المراهق - إيماء - إلى علامات البلوغ حتى لا يرتاع لها . ففى هذه السن تنتاب الشاب طائفة من الإحساسات الجثمانية والعقلية التى لم يسبق له ممارستها ، فهى مجهولة له يخشاها كما يخشى كل مجهول ، كما أنه يخشى إن هو أفصح عنها لغيره من الكبار أن يصبح مثار الضحك والسخرية . وكل ما يقول الولد أو البنت فى هذه السن العصيبة يحتمل أن يكون سؤالا خفياً أو تحديا للكبار ، فإن قال « أنا أمقت أختى ، وأكره بيتى ، ولا أؤمن بما تؤمنون ، ولا أقدس الواجب كما تقدسون » فإنه لا يقصد بهذه الألفاظ ظاهر معناها ، وإنما هو يعبر عن خوفه ورغبته فى المعرفة ، ويسألك رأيك فى هذه الخواطر الثائرة ؛ يريد أن يعرف إن كانت هذه الآراء الثورية وهذه الدوافع التى تضطرم فى عقله مشوبة فعلا بالإثم كما تعود أن يعتقد أيام الطفولة أم لا . والطفل البالغ الذى يكتب قصصاً فاحشة بذيئة أو يرسم رسوماً قبيحة إنما يسأل الجمهور

هذا السؤال عينه ، وكأنه يقول متحديا « هذه خواطرى ، فهل هى تثير مشاعركم فعلا ، أم هل أنتم تزعمون ذلك ؟ » ، والشخص الراشد الذى مر بهذا الدور ، ثم عاد إلى اتزانه ، عليه تبعة كبرى إزاء هذه الأسئلة المروعة ، فإنه إن عبر عن فزعه واشمئزازه ، وإن أخرس السائل ، وإن حظر القصص ، فهو إنما يستجيب لهذه الأسئلة على الطريقة العتيقة ، وعاقبتها تفاقم المخاوف عند الطفل ، ودفعه إلى الثورة وإلى التحدى وإلى الانفجار أو الاستهتار . أما الطريقة الحديثة فهى أن تزعم مشاطرتك لإحساس المراهق وملذاته ، وأن تتسامح معه وتعامله معاملة الزميل . كانت الطريقة القديمة عقيمة رغم إخلاصها ، وأما الطريقة الحديثة فمجدية رغم ريائها ودهانها . ومن الشبان من لا يتقدمون بالأسئلة لأنهم - فى حقيقة الأمر - يرغبون فى الإجابة الصحيحة ولا يقنعون بالكلام المعسول . وإنهم لمحقون فى موقفهم هذا ، ولقد مرت علينا جميعا هذه المرحلة . وكان من الواجب أن نستفيد بالتجارب ، إلا أنا فى كثير من الأحيان ما نزال صرعى لمخاوفنا الشخصية ، ولذا فإنا لا نستطيع أن نخفف عن غيرنا مخاوفه .

ينبغى إذن أن يواجه الطفل سن الرشد بالثقة والشجاعة ، ولكن إلف متاعب الكبار فى سن باكرة من ناحية أخرى قد يمد الطفل بسبب للخوف قوى ، والطفل الذى يعيش فى بيت يقاسى أهله بعض الشقاء قد يحس بهذا الخوف شديداً على نفسه ، دون أن يكون لديه

أدنى علم بالسبب فى اكتئابه وبؤسه .

كانت هناك فتاة متينة الخلق ، قوية العقل ، شديدة العطف ، بلغت الخامسة عشرة من عمرها فانتابتها الكآبة والحزن والهم ، ولازمت العزلة والانفراد ، وأخذت تفكر فى الموت ، وحل بها وهم أن حياتها ستنتهى بخروجها من المدرسة . ولما كانت صحيحة البدن ، وافرة الحيوية ، فقد أدركت أن موتها لن يأتى عن طريق طبيعية ، ولذا أخذت تفكر فى الانتحار . ولما تركت المدرسة فى سن الثامنة عشرة أصابتها النورستانيا ، ولم يخفف عنها ما أصابت من حرية بعد ترك المدرسة ، فلم تجد لذة فيما كانت تجمع من تجارب وأخذت تعتقد أن سعادتها فى الحياة قد انتهت بانتهاء مدة الدراسة . وهذا مثل من أمثلة أوهام الخوف . وفى مثل هذه الحالات ينبغى أن نرجع إلى الظروف المنزلية . كى نتلمس الأسباب . وقد هدى البحث مع هذه الفتاة إلى أنها كانت أصغر أخواتها ، وأن أمها كانت تدللها كثيراً وأنها كانت تحب أمها حبا جما ، وتتصل بها اتصالا وثيقا ، ولا تستطيع أن تتصور نفسها شخصية منفصلة عنها ، أى أنها كانت تتمثل تجارب أمها لاشعوريا . وقد عاد الزواج والحياة العائلية على الأم بالحزن والهم والقلق الشديد ، وبدهى أن الفتاة كانت تنظر إلى الزواج كأنه ضرورى للفتاة التى تبلغ سن الرشد ، وأنها كانت تعتقد أن أمها ربما كانت خيراً فى صحتها وفى حياتها لو لا الزواج . وقد استطاعت الفتاة أن ترى المساوىء التى لا بد منها للحياة الزوجية ،

ولكن لا شك أن إدراك المسرات الزوجية والأمومة كانت تعوزها، فحياة أمها المحبوبة قد أفسدها الزواج - فيما كانت ترى. ثم علم الطبيب النفسى الذى كان يعالجها أن زواج الأم قد تم بعد خروجها من المدرسة، فاتضح له السبب اللاشعورى للخوف عند الفتاة: وهو أن سعادة الأم قد انتهت بانتهاء أيام الدرس، فكانت الفتاة تؤثر الموت وهى فى سن الطلب على الزواج ومايستتبعه من بؤس ومشقة وهذا « التطابق » (١) النفسى بين البنت وأمها شائع بين المراهقين، وكثيراً ما يكون سببا فى تمنع الفتيات عن الزواج، وهو سبب لابد من إزالته وإلا كان له تاثير سيء على الحياة فيما بعد.

---

(١) « التطابق » Identification هو ارتباط الفرد بتجارب الآخرين وأعمالهم، حتى أنه ليساهم فى العواطف والإحساسات التى يتوهم أنهم يشعرون بها. فإن الإنسان الذى يصادف حادثة ما، ويحس إحساساً قوياً بما يرى، حتى أنه ليسقط مغشياً عليه، إنما يتخيل لاشعورياً أنه هو الفريسة فى هذا الحادث. إنه حينئذ يطابق نفسه على نفس المصاب. هذا النوع من الإحساس كثيراً مايخطىء الناس فهمه ويحسبونه مشاركة الغير فى الشعور، ولكنه فى الواقع ضرب من ضروب « الوهم »، ومثل هذا التطابق يحدث حينما نحمر خجلا عند ما نرى شخصاً آخر يرتكب مهزلة أو يظهر عاطفة تدعو إلى السخرية، فالرجل المصرى حينما يرى رجلا إنجليزياً يقبل زوجه عند وداعها على قارعة الطريق يشعر بشيء من القلق، رغم أنه =

وبعد ، هل نحن نستطيع أن نعالج هذه المخاوف عند الأطفال ؟ أحسب أن هذا ممكن إذا دربنا أنفسنا على تعرف كل ما يشير إلى الإحساس بالخوف ، وعالجناه برقة وبعطف ، واضعين نصب أعيننا أن تعليقاً يسيراً يسمعه الطفل ولا يدركه ، أو عبارة دينية يسىء فهمها ، أو تأنيباً خفيفاً ينساه قائله بعد قليل ، أو منظراً يراه الطفل عفواً فى الطريق ، قد تولد لديه عقدة خوف تلبث سنوات عدة ، وربما بقيت مدى الحياة . ولا ينبغى أن نلجأ إلى عقوبة على الطفل حين يكذب من الخوف ، فإن العقوبة قد لاينجم عنها سوى تقوية مخاوفه ، بينما قد نستطيع علاج الموقف فى لحظة إذا توخينا الأناة فى الكشف عن سبب الخوف .

وفى تعرف عامل الخوف ، أو التغاضى عنه فى معاملة من هم

= يعلم حق العلم أن ذلك شىء طبيعى عند الإنجليز .

« والانعكاس » Projection نقيض « التطابق » فهو نسبة أفكارنا ومشاعرنا وعواطفنا إلى غيرنا لاشعورياً . فالسارق يتهم غيره بالسرقة ، والعاشق يصم غيره بالعشق وهكذا . وإنا لنشاهد أحياناً أن الخلاف يقع بين اثنين فيتفاقم ويشتد شيئاً فشيئاً ، وقد يرجع ذلك فى كثير من الأحيان إلى أن كلا منهما ينسب إلى الآخر أقواله هو وفعاله . وفى كثير من حوادث الطلاق تسمع كلا من الرجل والمرأة يشكو فى الآخر القسوة والإهمال وسوء معاملة الأطفال والبذخ الخ . . .

دوننا وفى معاملة زملائنا ، عون لنا على تجنب كثير من الجدل ، وعلى تحاشى الظلم ، والشعور الخبيث الذى ينشأ حينما يشترك الناس فى عمل واحد . وإن ماقد يرد به عليك من هو دونك من لفظ وقح ليس فى غالب الأحيان سوى رد على مهاجمتك إياه مهاجمة أثارت فيه الخوف . وكما أن الحيوان الخائف يستجيب للخوف أولا بالهروب خفية ، فإن لم يفلح فبمقابلة عدوه وقتاله ، فكذلك الرجل الجبان العاجز أو الخامل ، يحاول التخفى أول الأمر ، فإن أدركته لجأ إلى السباب الذى لا معنى له ولا أثر . وكلنا يعلم شجاعة اليائس فى الحياة ، ولكننا لانلحظ ظاهرة الخوف هذه فى مضايقات الحياة اليومية .

وإذا ماعرفنا فروع الخوف الكثيرة فى حياة الآخرين استطعنا أن نمحوه أو أن نتحاشاه ، وبخاصة حينما نعامل الأطفال والشبان . ومن أسوأ ماتقع فيه المرأة الحريصة على تربية أطفالها أن تثير فيهم المخاوف الهينة . والواقع أنه خير للطفل أن يخر على الأرض وأن يصيبه الأذى من أن ينشأ على تشجيع ألوف المخاوف . ثم إنك إن هددت الطفل وأفزعته كى يحترمك ، أو توعدته كى لايقع فى خطأ ما ، فإنك بذلك تلقى البذور لعجز يدوم معه حياته . إن الحكمة واللين والعدل لاتضر بالأطفال ؛ ولكن التعنيف الشديد وثورات الغضب والسباب الصاخب قد تهدم كل أمل للطفل الحساس فى النجاح فى الحياة ، وذلك بتكوين مراكز لعقد الخوف فى اللاشعور ،

تكون للطفل دائماً عائقاً عن التقدم فيما بعد . والمشروعات العظيمة فى الحياة تحتاج إلى ثقة فى النفس لاتعرف الخوف ، والشاب الذى جمع فى طفولته مجموعة كبيرة من المخاوف اللاشعورية والجبن فى خطر شديد فى نضاله للبقاء .

ولنا فى التربية الحديثة بعض العزاء ، فليس لأطفال اليوم من أسباب الخوف إلا القليل مما يستحق النظر ، فلقد زاد الخوف من النمو فى هذه الأيام وهو ، ماأسف له كثيراً . حقاً إن الخوف من التقدم إلى مرحلة جديدة ورائى فينا ، ومما لا شك فيه أن أطفالا كثيرين فيما مضى تمسكوا فى أنفسهم بأهداب الطفولة وحاولوا الفرار من سن الرشد ، ولكن رغم هذا كله ، فمما لاجدال فيه أن آباءنا وأسلافنا لم يعانوا من هذا الضرب من الخوف مانعانى ، فقد كانوا يعلمون مذ بداية حياتهم أن الحياة مدرسة شاقة ، وأن دروسها إجبارية . كانوا لاينغمسون فى الملبس ، ولا يتمتعون إلا بقليل من الحرية ، وقليل من الملاهى ، وكانوا يعتقدون أن المسرات تنتظرهم بعد أن تتقدم بهم السن ولو قليلا ، ولذا فقد تعلموا أن يترقبوا بنفوس متشوقة هذه الملذات المحبوسة عنهم ؛ وعلى ذلك فإن مثل هذه الحياة إن كان فيها كثير من الكبت إلا أن الأطفال فيها قلما كانوا يميلون إلى ملازمة الطفولة . كان الأطفال فيما مضى يحبون تقدم السن كى يتمتعوا بما يتمتع به الكبار ، فحياتهم النفسية من هذه الناحية كانت أصح من الحياة النفسية التى يحياها أطفال اليوم الذين

يميل بهم خوف المستقبل إلى المحافظة على حياة الطفولة لما فيها من قلة التبعات فيصابون بما يعرف فى علم النفس التحليلى « بالجمود » .

والجمود هو تلك الحال التى تنتاب الفرد حينما يرفض أن يتقدم إلى أمام فى الحياة ، ذلك التقدم الذى يتطلبه تطوره الطبيعى . وأكثر صور الجمود شيوعا اعتماد الطفل على والديه ، فكما أن الطفل يميل إلى مقاومة الفطام والانقطاع عن الرضاعة ، فكذلك يميل الصبى أو المراهق إلى قبول المعونة المادية والروحية من والديه بعد ماتتقدم به السن عن هذه المرحلة بكثير . وقد اتخذ هذا التواكل منذ عهد قديم صورة احترام الأبناء للآباء وخضوعهم لهم . وهذا الضرب من الجمود يظهر كذلك بصورة أخرى غير واضحة بين أولئك الراشدين الذين يتركون منازل والديهم ويعتمدون على أنفسهم ولو فى ظاهر الأمر ، ومن أمثال هؤلاء ذلك الرجل الذى ينتظر من زوجه أن تكون له أما ، أو الذى يتخذ أمه مثالا للمرأة التى يريد أن يتزوج . هذا الرجل أو ذاك لايزال طفلا فى عقله الباطن . و « الجمود » فى كثير من الأحيان نتيجة لإطالة مدة المحبة الأبوية ، ولاختلاط هذه الصلات الأبوية بالخوف فى اللاشعور . وعلى ذلك فموقف المرأة إزاء الرجل عامة قد يتلون بخوف مكبوت من أبيها يرجع إلى عهد الطفولة . وإذا استطعنا أن نخرج هذا الخوف إلى حيز الشعور ، وتتبعنا نشأته ، فقد نجد أنه نجم قديماً عن ذعر شديد أيام الصبا ؛ ومتى علمت المرأة بذلك زال خوفها من الرجل ،

وحل محله انسجام تدريجى بينها وبينه . والجمود بوجه عام نقيض التقدم ، فهو محاولة فاشلة لمقاومة القانون الشامل قانون التغير والتبدل.

مخاوف الكبار

قد لا تختلف مخاوف الكبار عن مخاوف الصغار فى شىء ، إلا أنها أكثر تنوعاً وأشد تعقيداً لزيادة خبرة الراشدين وتجاربهم ، وهى لذلك أشد عسرا فى اقتلاعها من أذهانهم ، لأنها من ناحية شديدة التأصل طويلة العمر ، ولأنها من ناحية أخرى أشد اختفاء فى نفوسهم. الطفل يريك مخاوفه ويثق فيك حين تقول له إن هذه المخاوف وهم باطل ، ولكن الراشد غالباً مايعتقد أنه أعلم من أى فرد آخر بحقيقة همومه .

وخوف المرض من أكثر الدواعى شيوعا لأسباب النورستانيا عند الراشدين . فالفرد العادى الذى لم يصب شيئاً من علم الطب على جهل شديد — بل وكثيراً مايعتقد فى الخرافة — فيما يتعلق بالوراثة والعدوى فى الأمراض . وقد تكون هناك أسباب خاصة يمتنع المريض من أجلها عن الإباحة للطبيب بموطن دائه أو سبب شكواه . فهناك مثلا من الناس ممن لايتصلون بمهنة الطب من يعتقد أن السل والصرع والجنون والسرطان من الأمراض التى تسرى فى أسر خاصة، وقد يضمر المريض عدة سنوات خوفه من وراثة مرض من هذه

الأمراض الخبيثة ، ويقمع الفكرة قمعاً تاما ، ولكنه قد يضعف يوما فتضعف فيه قوة المقاومة وقوة القمع ويخر فريسة إما للمرض الذى كان يخشاه أو لنورستانيا مضنية لايعلم لها سبباً . وكثيراً مايصاب أحد أفراد الأسرة بمرض غير معد ، ولكن فرداً آخر ممن يتصلون به يخشى العدوى ويكتم خشيته ، ويحبس الوهم فى عقله الباطن ، فيكمن هناك حيث يقيم نزاعاً نفسياً يضعف الصحة ويوهن الجهاز العصبى ، ولو أنه صارح بمخاوفه منذ نشأتها خبيراً بالأمر لربما تبددت أوهامه ولم يصبه أذى . ولا شك أن الكثيرين من المعتوهين فى مستشفيات المجاذيب صرعى لأوهام صبيانية ماكان أيسر من تبديدها قبل أن تتأصل فى العقل الباطن . وهناك الكثير من الأمثلة لضحايا مخاوف المرض هذه نشاهدها جميعاً كل يوم ، فهناك من يعيش العمر فى خوف دائم من أن كل مايؤكل يعسر هضمه ، ومن يعتقد أن كل تيار من الهواء البارد وكل قطرة من مطر أو رطوبة تصيبه بالبرد . وعقدة المرض هذه شائعة عامة بين الناس ، وسبب لكثير من الآلام الشديدة . ولا عجب أن تنجح طريقة المسيو كوى Coué فى العالم المتمدن فى تبديد المخاوف بالإقناع والايمان ، وإحلال الثقة محلها . وكم من مرض عولج بهذه الوسيلة .

هذا العلاج بالإيمان انتشر فى العالم الغربى انتشاراً عظيما ، وكم من مريض ذهب لطبيبه أول ماذهب وهو قليل الثقة بالشفاء ، بل

أن منهم من كان يحتج بعنف ويقول إنه لاينق فى هذا الهراء ، ولما أغلظ عليه صحابه ذهب وعاد بالشفاء . ومن أطباء النفس من يعتقد أنه كلما اشتدت بالمرء قلة الثقة زاد الأمل فى شفائه ، وذلك لأن هؤلاء المرضى قليلو الثقة فى الطب النفسى أحد ثلاثة .

ا ـ إما شخص لديه أسباب لا شعورية لعدم رغبته فى العلاج ، أسباب تصطرع مع عقيدة أخرى شبه شعورية بأنه ربما تم له الشفاء.

ب ـ أو شخص له رغبة ملحة فى الشفاء ، حتى إنه ليخشى أشد مايخشى أن يفشل فى العلاج بعد مايتملكه الأمل فيه .

ج ـ أو شخص يخشى أن يسخر منه الناس لأنه يعتقد فى هذا العلاج الخرافى ، أو لأنه شديد التدين .

والاحتجاج القوى فى العقل الواعى علامة لاتخطىء تدل على عقيدة مضادة محبوسة فى اللاشعور . والمسيو كوى Coué يزعم أن عمل الطبيب هو إقناع العقل الباطن . وربما كان أقرب المرضى إلى الفشل فى العلاج أولئك الذين تبدو عليهم علامات الثقة فى العلاج النفسى ، فإن هذه الثقة كثيراً ما تكون حجاباً يستر وراءه عدم الثقة المحبوسة فى اللاشعور ، ولكن هذا الرأى مايزال يفتقر إلى الإثبات والتأييد .

وليس الخوف من الانتقال إلى الدور الثانى من العمر — سواء فى ذلك الطفل أو الشاب أو الكهل — سوى الخوف من فقدان الملذات ، وهو سبب هام من أسباب النورستانيا ، وقد شرحنا هذا

الموضوع شرحاً وافياً عند الكلام على مخاوف الأطفال ، فليس ثمة مايدعو إلى زيادة التعليق عليه .

والخوف من العمل سبب آخر ذائع من أسباب الهم وكثيراً مايكون لاشعورياً . نشأنا منذ نعومة أظفارنا نفرق تفريقاً كبيراً بين العمل واللعب ، فنحن نتعلم أن العمل جاف ممل ، وأنه ضرورة شاقة ، مضن ، شديد الأثر على الأعصاب ، وقديؤدى إلى انحلال عصبى إذا لم نحذر الإرهاق ؛ وأما اللعب وهو مانعمل بغير اضطرار - فيجلب اللذة والسرور ، ويجدد النشاط والصحة ، ومهما أكثر منه المرء فهو أبداً يطلب المزيد . ولكن الأطفال لايفرقون بين العمل واللعب ، فالبيع والشراء ، وتنظيف البيت ، والغسل والكى ، من الملذات للطفل ، بل وتعلم القراءة والكتابة كلها من ضروب اللهو واللعب . ويبقى الأطفال هكذا إلى أن يتدخل الكبار فى أمرهم ، فيتلقون عنهم تقاليد المجتمع ، ويأخذون عنهم التفرقة بين العمل واللعب ، وبين الجد والهزل . ونظرة الطفل فى الواقع أصدق من نظرة الرجل ، فليس هناك فى حقيقة الأمر فارق بين رجل يسير على قدميه للرياضة ، وآخر يقطع طرقات المدينة للبيع أو لتوزيع الخطابات مثلا ، ولكنا نغبط الأول ونشفق على الثانى . وأى فرق هناك بين من يضرب الكرة بالمضرب ، ومن يضرب الحديد بالمطرقة ؟ ولكن الإنسان تواضع على أن يسمى العملية الأولى لعباً ، والثانية عملا . وكلنا يخاف العمـــل خوفاً تقليدياً ، ويخشى الملل منه . فلو

استطعنا التغلب على هذه المخاوف قضينا على كثير من أسباب الصراع النفسى والنورستانيا .

وهناك إلى هذه المخاوف خوف المجهول الذى تكلمنا عنه عند دراستنا للخوف عند الأطفال . فإن الأغلبية الساحقة من الناس تتشوق إلى الجديد وتخشاه فى آن واحد ، وذلك لأن حب التجارب الجديدة مظهر طبعى لإرادة الحياة ، فالطاقة الحيوية تحفزنا إلى النشاط العقلى والعاطفى والجثمانى . وإذا كانت هذه الرغبة فى الجديد لاتجد منفذاً صحيحاً عادت على المرء بالاكتئاب ، ولكن هذا الدافع الحيوى يتأثر بالخوف مما عساه قد يحدث . وقد تكلمنا فيما سبق عن عمل هذا النوع من الخوف فيما يتعلق بانتقال المرء من مرحلة من مراحل حياته إلى مرحلة أخرى ، وبخاصة من الحياة إلى الموت . وأقوى تعبير عن هذا النزاع النفسى ماجاء فى « هاملت » مسرحية شيكسبير ، حيث يتشوق بطل الرواية إلى الهروب بإزهاق روحه من الكارثة التى حلت به ، ويقابل هذا التشوق خوف وهمى مما قد ينتابه من أحلام . والآن دعنا نغض الطرف عن هذه المنازعات النفسية الكبرى التى ترتبط بالحياة نفسها ، ولنفكر لحظة فى المخاوف الهينة من الأفكار الجديدة ، والحقائق الجديدة ، والعادات الجديدة التى تقض مضاجع الكثير من الناس .

كنا يعرف أن هذه الظاهرة من الخوف تصيب الشيوخ ومتوسطى العمر ، ومع أن للكبار تجارب عن احتمالات الحياة أكثر مما

للشباب ، والواجب — بحكم السن — ألا يخشوا المجهول كما يخشاه أبناؤهم ، إلا أن أكثرهم — مع ذلك — يتميزون بالتحيز وحب المحافظة على القديم ، ويجزعون من كل جديد كلما تقدمت بهم الحياة فإلام يرجع ذلك ؟

يحس الإنسان — كلما تقدمت به السن وأحاطت به معميات الحياة وأسباب شقائها — بأنه مدفوع لأن يحتفظ لنفسه ببعض الحماية من شرور الحياة ، وهو غالباً مايفعل ذلك باتخاذ فلسفة ما صاغها غيره من قبله ، وبالاعتقاد فيها كى تحميه شديد النكبات . يشاهد المرء فى شبابه مثلا كثيراً من أسباب البؤس والشقاء فيتطلع حواليه كى يبحث عن شىء يستر به موضع الألم ، فيقع بصره مثلا على أمثال هذه العبارات « العمال العاطلون هم أولئك الذين لا يصلحون للعمل » أو « الشحاذون يحيون حياة طيبة » ، وإلا ما لجأوا إلى التسول » أو « وما يصيبك من خير فى نفسك » أو « هذا حكم الله » فيتسلح بأمثال هذه العبارات ضد نكبات الحياة وآلامها . والديانات السماوية تقدم لنا الكثير من أمثال هذه العبارات الواقية ، كما أن لدينا منها قدر كبير تحدر إلينا من الأجيال السالفة .

وكل أمة تحفظ عبارات السلف فى صورة الحكم والأمثال ، والأسرة تحتفظ بها فى أحاديثها العائلية ، فيقول الفرد منها مثلا : كان أبى رحمه الله دائما يقول . . . . . » أو « أذكر أن جدى كان ينصحنى ويقول . . . . . » ، وكلنا يشعر بشىء من الفخر فى أمثال

هذه الأقوال . والحكمة أو الاقتباس سبب كبير من أسباب الطمأنينة النفسية والأمن . ومن الأمثلة السائدة مثلا « الصدق منجاة والكذب مهواة » و « والمرء بأصغريه قلبه ولسانه » و « يكفيك من الزاد ما بلغك المحل » ، وليست هذه الأمثال وأشباهها حقا وصواباً على إطلاقها ، ولكن فيها النزر اليسير من الصدق ، وتعطينا إحساسا بالتأييد الخلقي حينما يحتدم النزاع بين الحق والباطل ولا نستطيع أن نجابه الحقيقة صراحة . والديانات التقليدية أشد وقعاً من هذه الأمثال ، لأن المثل الأعلى كلما سما اشتد أثره فى عقول البشر ، ففى الهندية والبوذية مثلا أن ما تزرع من خير أو شر تجنى ثماره ، ولا مناص من ذلك فإن فاتك الجزاء فى هذه الدنيا فأنت لابد ملاقيه فى الآخرة . والهندى الذى لا يهتم بنعيم الدنيا كما نهتم ، ويكره الجهد والكفاح ، يقوم فى نفسه الشك والنزاع ، ولكنه يخلص من هذا الصراع الباطنى بقبول الفكرة القائلة بأن كل مايقع للإنسان نتيجة حتمية لأعماله الماضية التى لا يمكن محوها ، فلا داعى إذن للجهد والمشقة . لابد مما ليس منه بد . ومن ثم كان الخمول وقلة الكدح وعدم القدرة على التنفيذ التى يعير بها الغربيون أبناء الشرق . والجماهير الهندية تجهل هذه الحقيقة : وهى أن الحاضر لا يغير الماضى ولكنه يؤثر فى المستقبل . إنهم إن واجهوا هذه الحقيقة احتدم لديهم النزاع بين الخمول والنشاط . ولكن الرجل الذى لا يكره الجد والنشاط هذه الكراهية كلها ، والذى يقدر النجاح فى الدنيا قدراً

كبيراً ، والذى يثور ثورة شديدة فى وجه الألم والخسارة ، يحاول أن يخلق لنفسه كثيراً من المخففات فيقول مثلا « إن الخطيئة لابد أن تلقى جزاءها ، ولكن الله غفور رحيم ، والأنبياء لنا شفيعون » ويقول :

من يصنع المعروف لا يعدم جوازية

لا يذهب العرف بين الله والناس

والرجل الذى يحمى نفسه بنسيج من الدين والفلسفة لديه خوف لاشعورى عميق من أن يسقط هذا النسيج ويبقى هو عرضة للهجوم. وإذا أثرت عقيدة الخوف هذه فى شخص ما ، قابلك بالاستياء والغضب والرغبة فى الإيذاء بشكل ما . ويمكنك أن تثير ألطف الناس وأكثرهم وداعة وتبعث فى قلبه الغلظة إن أنت هاجمت معتقداته أو أهواءه . وإذا مس المصلح أمته فى أمانيها وعقائدها - والمصلح رجل عود نفسه أن يجابه الحقيقة بكل صراحة - استجابت الأمة بالغضب والاستيـــاء والثورة ، وقد تنفى هذا المصلح - والحق على لسانه - أو تجد وسيلة شرعية لقتله والتخلص منه . لما ظهر المسيح ثار اليهود لا لأن عيسى عليه السلام كان يقود ثورة ما ، ولكن لأنه كان يعكر صفو نفوسهم وهدوءهم ، ويتدخل فى فهمهم لحقائق الأشياء . وقد لاقى سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام أذى شديداً على أيدى الجاهليين لأنه أراد أن يحطم أصنامهم ويهديهم إلى عبادة الله . لهذه الأسباب كان كبار المصلحين يلاقون -

خلال الأجيال التاريخية جميعاً ـ شديد الاضطهاد . وفى حياتنا اليومية قد يشكو الرجل الخوف من أن يصطدم بحقيقة مريرة تقلب له ماتعود من نظم الحياة ، وتحتم عليه أن يحسيك فلسفة جديدة. وما أسرعنا إلى اتهام أمثال هؤلاء الناس بالتعصب الدينى أو بالتمسك بالتقاليد وضيق الفكر لأننا لا ندرك مقدار الشلل الذى يصيب الفكر من الخوف . ولكنا نكرر ثانية أنه بينما يلعب الخوف الشعورى دوراً صغيراً فى حياة المرء المتمدن ، فإن المخاوف اللاشعورية هى التى تتعقبنا بغير انقطاع حتى نأتى بها إلى دائرة الشعور ونجابهها .

ومن الناس من يخشى أن يواجه شخصيته وأخلاقه ، ويعيش فى خوف لاشعورى لأنه لا يريد أن يعترف بأن الباعث الأعلى له فى الحياة ثانوى أو تافه ، ولا يقر بأنه يحيا حياة الأنانية وحب الذات . ونحن نظن ـ ونحن مخطئون ـ أن خير الرجال فى هذه الدنيا أكثرهم إحساساً بهذا الخوف . والواقع أن حب الإنسانية المجرد لا وجود له البتة ، وبخاصة فى هذا العصر الذى نعيش فيه . ولذا ينبغى أن نجابه الحقيقة وأن نعترف بالأنانية وحب النفس . أجل إنك قد تجد رجلا شفيقاً كريما غير محب لذاته ، عطوفاً ، يحب غيره . ولكن لن يكون ذلك إلا إن كان له فيه مصلحة ونفع ، وربما كان يرمى إلى إشباع شهواته الخاصة ورغبته فى أن يصفه الناس بهذه الصفات. ومن الحقائق الثابتة أن أكثرنا يبذل حياته إما فى قضاء ما تدفعه

إليه ضرورة العيش ، أو فى أداء ما تدفعه إليه ميوله ، وواجبنا أن تدرب النفس على أن تريد أو تشتهى خير الطرق وأجداها ، ولكنا إذ نفعل ذلك لسنا فى الواقع محبين لغيرنا غير أنانيين ، وإنما تلك صورة أخرى رفيعة لإرضاء النفس . وقد نجح الرهبان والمتصوفون فى إنكار الذات ، غير أن عامة الناس ما زالت أبعد ما تكون عن الإيثار . ولذا فإن من المخاوف التى تحتاج الى المجابهة الصريحة الخوف من ادراك هذه الحقيقة : وهى أن البواعث التى توحى خير فعالنا أنانية فى طبيعتها لا يرمى بها الإنسان إلا إلى إرضاء ذاته .

وإن أردنا أن نتحرر من المخاوف فينبغى أولا أن نتشجع ولا نجبن ، فإن الشخص الذى يأبى أن يواجه مخاوفه الباطنية أشبه ما يكون برجل انقض عليه اللصوص وهددوه وتوعدوه ؛ فإن لاقاهم بالبسالة والشجاعة نجا منهم ، وإن وهن أمامهم وخارت عزيمته وقع فريسة لهم . والخوف تهديد مستمر من اللاشعور للشعور . والآلام التى تنجم عن مواجهة الظالم مرة واحدة لا تقاس بالشقاء الأبدى الذى يلازمك إن كنت دائما تعيش تحت رحمته . ولا يكون الرجل حراً فى حياته حتى يمكنه أن يواجه كل حادثة تقع له فى حياته . ولكنا نكره ذلك ونؤثر أن ندفع الثمن غالياً !

ويجب ألا نخشى مجابهة الحقيقة ، فهذا أيسر من تجاهلها ، كما يجب أن نعلم أنا إن كنا نحب شيئا ما حباً يجعلنا فى قلق دائم عليه وفى خوف لا ينقطع على فقدانه ، فإننا لسنا خيراً حالا منا لو فقدنا

ذلك الشيء فعلا ، (والناس من خوف الفقر فى فقر) .

ولكنا يجب كذلك أن نذكر أن المخاوف اللاشعورية عند الكثير منا قد غاصت فى هوة سحيقة ، حتى أنا قد لانستطيع أن نخرجها إلى الشعور بأنفسنا ، ولذا فواجبنا أن نسترشد بأطباء النفس ، فهم فى هذا أكثر منا علما وتجربة ، وقد يستطيعون بخبرتهم وعلاجهم أن يخففوا عنا كثيراً من أعباء الحياة .

غريزة السيطرة

١ — عند الأطفال

قل من يدرك أهمية الخوف اللاشعورى وانتشاره بين الناس كعامل فعال فى حياة المدنية فى هذا العصر . ومن الجلى أنا لو أدركناه ، لانتقل من اللاشعور إلى الشعور ، وأمكن علاجه بطريقة ما .

وما يصدق على الخوف يصدق على حب السيطرة . هناك مخاوف شعورية نعرفها جميعاً ، وهناك حب للسيطرة كلنا يدركه . فنحن نعلم أن نابليون والاسكندر الأكبر وصلاح الدين كانوا يحبون السيطرة ، بل انا لنستطيع أن نحصى كثيراً من معارفنا الذين يصح أن نطلق عليهم وصف الطغاة ، تلتهمهم الرغبة فى حب السيطرة . ولكن كلا منا يبرىء نفسه منها . وقد يستمتع أحدنا بمركز من مراكز السيطرة والتبعة يلقى عليه إلقاء ، فيقول لنفسه رياء إنه يؤثر — لو كان له أن يختار — أن يعيش عيشة هادئة لا تتطلب منه جهداً فى الحكم والإدارة وتحمل التبعات . وقل أن تجد فرداً عادياً يعترف ويقر بغريزة حب إظهار السيطرة .

وهناك بطبيعة الحال أسباب عدة لهذه الظاهرة ، فإن العرف

العام الذى يجرى عليه المجتمع يقاوم الخضوع للآخرين كما يفرض على الرجل المهذب ألا لايبدى سلطانه على غيره إن كان له سلطان . نرى الطفل ينازع ويجاهد كى يتخذ مكانة القائد ، ويظهر صراحة بطرق عدة رغبته فى التفوق والتصدر ، ولكن حياة الجماعة سرعان ما تقف فى وجه هذه الرغبة الصريحة ، وسرعان ما يتحول القمع الإرادى لهذه الرغبة التى لاتقرها الجماعة إلى كبت لاشعورى ، فتختفى حتى عن صاحبها ، وذلك لأنا لانحب أن نخرج على قواعد الرأى العام . وكلما تقدمت بنا الحياة غاصت هذه الرغبات المكبوحة فى وهدة اللاشعور ، وبات من العسير إعادتها إلى دائرة الشعور ، ولكن التجربة قد دلت ـ رغم ذلك ـ على أن رغبة السيطرة من الغرائز الأساسية لدى كل إنسان عادى .

وكما أن الخوف وإرادة الحياة نقيضان يفل أحدهما من حدة الآخر ، فكذلك إرادة السيطرة والإحساس بالحطة ، كلاهما يعمل على الفت من شدة الآخر . ومن الضرورى أن توازن بين الرغبة فى السيطرة والإحساس بالتقييد ، فإن الرجل الذى لايحس بحدود سلطانه متهوس مخبول ، والرجل الذى يسلم قياده لإحساسه بالحطة ينمى فى نفسه المناخوليا melancho lia أو جنون الاكتئاب وبين هذين الحدين المتطرفين درجات متعددة من التوازن

والرغبة فى السيطرة ـ حينما تشتد بالمرء وتصبح لديه شهوة قوية ـ مظهر كريه ذميم لتدفق الطاقة الحيوية ، يدل على أنها لم تجر فى مجراها

الصحيح . ولكن أعمال الإنسان جميعاً ، فى دوائر التجارة والعلم والفن والنشاط الروحى ، إنما هى إلى حد ما نتيجة مباشرة لهذه لرغبة ، ولولاها لبقينا على حالة التوحش والهمجية . وتاريخ الإنسانية وتقدمها كله نتيجة لهذه السيطرة . فقد خرج الإنسان من طور الخضوع لموامل الطبيعة إلى طور السيطرة عليها وتسخيرها .

يبدأ الفرد فى طفولته كفاحاً طويلا فى إبراز هذه الرغبة وحب السيطرة على البيئة المحيطة به ، فيجاهد أولا للسيطرة على أعضائه ، ثم يكافح كى يقر والديه وما يحيط به من أشياء على إرادته ، ويجد أن البكاء يكسبه نفوذاً على أمه فيستخدم هذا السلاح حتى يبيت عديم الأثر ، ولما تفشل حيلة البكاء يحاول استخدام المداهنة فيمرن على شارات خاصة ونغم خاص فى الحديث ، فإن وجد هذه الوسائل ناجحة دأب عليها حتى آخر عهده بالطفولة . ومنهم من يبقى على عادة البكاء حتى سن متأخرة ، وقد شوهد فى رياض الأطفال عدد كبير من الصغار تأخرت عادة البكاء لديهم طويلا وشق على المعلمات العلاج . وإن فشلت هذه الوسائل جميعاً فى التغلب على الظروف لجأ الطفل إلى وسائل أخرى كثيرة ، فينصرف عن رغبته فى استعباد الناس ـ تلك الرغبة التى لا يقره عليها أحد ـ إلى اخضاع الأشياء الجامدة التى لا حيـــاة فيها ؛ وقد أدركت مدام منتسورى فى تجاربها مع الأطفال الإيطاليين الشواذ ما أدرك الكثير من الأمهات من طبقة العاملات من عهد قديم ، وهو أن

الطفل أسعد بالسيطرة على الأشياء الحقيقية منه باللعب وبحل جميع المشاكل له ، وأن فى إعطاء الطفل فرصة لبسط نفوذه وقوته ونبوغه على ماحوله تحريرا لطاقته الحيوية المشحونة ، وخير تمهيد لتربيته وتدريبه .

إن أبناء الطبقة الفقيرة الذين يحملون المكانس وينظفون حجرات بيوتهم أسعد حظاً من زملائهم الأغنياء الذين يذهبون إلى الحدائق مع مربياتهم . والأطفال يحبون من اللعب ماكان كثير الضجيج ، إذ لم يبق لأبناء الطبقة الرفيعة من أسباب التنفيس عن هذه الغريزة إلا القدرة على إثارة الصخب ، فإذا حرمت الطفل هذه اللذة يشبع بها غريزته ، فقد يؤدى من الأعمال مانستاء له أكثر من ذلك، كأن يلعب بالطيور ويؤذيها ، أو أثاث المنزل فيضر به . يحلم الطفل أنه قائد جيش أو قبطان سفينة أو صاحب سيارة ، أى أنه يحلم أنه سيد على شىء كبير قوى نافع للمجتمع .

وكم من والد ومعلم فى هذه الأيام قد أدرك الحقائق التى أذاعتها مدام منتسورى بين الناس بشأن تربية الأطفال ، ولكن كثيرا مايفقد الطفل إحساسه بالسيادة والاعتماد على النفس الذى تغرسه فيه روضة الأطفال ، وذلك حينما يخرج من هذا الدور إلى دور المدارس الابتدائية والثانوية .

والنتائج التى تترتب على التعليم ، الذى لايعطى الطفل إلا النزر اليسير من إرادة القوة ، عديدة منوعة ، لانستطيع أن نحصيها هنا

جميعاً . ومن الحقائق التى أثبتتها التجربة أننا كلما عنينا بالطفل وشددنا عليه الرقابة ساءت النتائج ، فإن الأم التى تكرس حياتها لابنها ، وتتحرق شوقاً لأن ينمو طفلها نمواً كاملا ، إنما تسىء إلى هذا الطفل ، والإساءة أشد إن كانت طفلة لا طفلا ذكراً . فإن الطفلة التى تجد من ينظفها ويلبسها ، والتى تجد دائماً من يرشدها ، والتى يحاول كل من هم أكبر منها سناً أن يدخلوا إلى قلبها السرور طيلة اليوم ، والتى لاتجد مجالا لإظهار إرادتها وعزيمتها ، والتى لاتبرحها عين الرقابة فى كل ما تعمل والتى يتحدث الجميع بشأنها ، والتى تلفها أمها جيداً قبل أن تخرج إلى الجو البارد ، وتخلع عنها لباسها كلما عادت ، والتى يبين لها أولو أمرها كيف تتصرف فى مالها الخاص ، وماذا ينبغى لها أن تقرأ وما لاتقرأ ، والتى لاتؤدى عملا شاقاً ، ولا تعانى ألبته ألماً جثمانياً ، والتى تجد دائماً من يسألها مايدور بخلدها ، مثل هذه الطفلة المسكينة إما تفقد وهى فى سن التاسعة أو العاشرة كل إحساس بالاعتماد على النفس وقوة الإرادة ، وتصبح لاعزيمة لها ، وإما تتمادى فى سوء سلوكها ، وتدهش بتصرفها أولى أمرها ، وتصبح فى هذه الحال الأخيرة عنيدة صلبة الرأى ، لايرضى عنها والداها ولا من تتصل بها . أمثال هؤلاء الأطفال يبدأون حياتهم الدراسية عنيدين متعبين للمعلمين والمعلمات . إذا تدخل فى رغباتهم أحد ، أو أراد إصلاح خطأ فيهم ، لاذوا بالعويل والصياح ، أو بالتجهم والعبوس . ولكن إذا كانت المدرسة تهيء الفرصة للاستقلال والتعبير عن

النفس أمكن إصلاح الطفلة أو الطفل ، فيستمد السرور من إطلاق نشاطه المكبوت ، ويحب المدرسة ؛ ويرى فيها منجاة له من البيت البغيض . وحينئذ قد تثور الغيرة فى قلب الأم ، التى يسيئها أن ترى ابنها يبدى مثل هذا النكران للجميل ، ولا يظهر لها محبة كافية .

وفى خلال سنى المراهقة كثيراً مايصبح هذا النضال بين البيت والمدرسة شديداً حاداً ، لأن حب القوة والرغبة فى الاستقلال يشتدان بتيقظ الغريزة الجنسية . هذا إلى أن حدة المزاج التى تنجم عن الحالة الجثمانية كثيراً ماتخرج عن طوق الفرد فى هذه السن ، فيصبح المراهق بثورته ، وقحته ، أو اكتئابه ، فرداً شديد المراس فى البيت . وفى هذه المرحلة قد يجد الطفل أن الحياة المدرسية المنظمة - بل والرتيبة التى لاتتغير - هينة على نفسه ، وأن مضايقات المنزل وشذوذه مثيرة له . يحب الطفل فى سن المراهقة أن يضرب فى أرجاء المكان على غير هدى ، وألا يعمل شيئاً بعينه ، وقد يرجع السبب فى ذلك إلى أسباب صحية . وفى العمل المدرسى اليومى المنظم المتنوع ملاذ وعون للعقل القلق الحائر . وياحبذا لو علم الآباء بذلك وتسامحوا وصبروا مع الأطفال الذين تبدو عليهم كراهية البيت .

ولنعد الآن إلى الطفل بعد ما يخرج من سنيه الأولى : إنه كلما زاد علمه بحدود مقدرته ، واشتد نقدة لنفسه ، نمت فيه مجموعة من عقد النقص بسبب توجيه إرادته توجيها غير صحيح . وأكثر أسباب هذه العقد ذيوعا عند صغار الأطفال هى الأسباب الجثمانية ، فالبنت

مثلا تحس بخطئها عن الولد . وكثير من علماء التحليل النفسى يقولون إن ذلك يرجع إلى الغيرة من مميزات جسم الطفل الذكر ، ولكن الواقع أن إحساس البنت بالحطة يبدأ لديها وهى لما تزل طفلة لاتدرك الفارق بين جسمها وجسم الذكر . وقد يكون هذا الإحساس أمس بغزيرة السيطرة منه بالغريزة الجنسية . فالبنت تدرك وهى فى سن باكرة أن الولد أكثر منها حرية وأقوى جسما . وأن الفرص أكثر له سنوحا ، فهى مثلا لاتتمتع كما يتمتع الولد بتسلق الأشجار والركض والركوب .

ومن الأسباب الذائعة لعقد النقص حجم الجسم ، فإذا كان الطفل أصغر فى حجمه أو أكبر من متوسط زملائه بقدر كبير كان ذلك سبباً لشعوره بالنقص والخجل والحياء . وكثيراً مايعوض صغار الجسوم أنفسهم بتوهمهم القيام بأعمال جليلة . وفى غالب الأحيان يحققون أحلامهم بالتفاخر والتظاهر . أما الأطفال كبار الجسوم فيجدون هذا التعويض شاقاً عليهم ، لأنهم لاينالون من التدليل والتسامح ما ينال صغار الجسوم ، وكثيراً مايسمعون قارص الكلم على قماءتهم أو سوء سلوكهم بالنسبة إلى إجسامهم ، أو يعانون من تنبه أهليهم - وإن حسنت طويتهم - إلى سرعة نموهم . يعلم أمثال هؤلاء أنهم غير محببين ، وإن أرادوا التظاهر بقواهم أنبهم أهلوهم وذووهم ، ووصموهم بتهديد غرهم أو بسوء التصريف . وعلى ذلك فإن نشاطهم قد يتوقف عن التدفق ، فيصيبهم التجهم ، ويصبحون من ذلك النوع « الفردى » ، وفى هذا

خطر كبير . فإن كان الطفل من ذوى العقول الضعيفة ، غير متفوق فى الألعاب ، انقلب إلى ذلك النوع البدين المشاغب المعروف فى المدارس . هذا إلى أن النشاط المحبوس ، الذى لا يجد منفذاً طبيعياً قد يندفع قبل النضوج ويتدفق فى المجرى الجنسى ، فيكون الطفل من أسوأ أنواع التلاميذ .

والفتاة الكبيرة الجسم تعانى الشعور بالحطة كأخيها البدين سواء بسواء ، ولكنها تعوض النقص بطريقة أخرى ، فهى تعانى من القماءة وقلة التودد إليها أكثر مما يعانى الذكر ، ولا نستطيع أن نقول متى تدرك أنها بجسمها هذا غير جذابة من الوجهة الجنسية ، والعادة أن الذكور ممن تخالط فى الأسرة لا يولونها من الالتفات ما يولون من هن أصغر منها جسما . وإن كانت موهوبة فى الفنون أو الموسيقى أو قوة الفكر وأتيحت لها الفرصة لأن تنمى هذه المواهب أمنت شر العواقب ، ولكنها إن حرمت هذا التفوق أصيبت بالنورستانيا . الفتاة الكبيرة الجسم كثيرا ما تكون ضعيفة فى بنيتها وصحتها ، وهى وسيلة لا شعورية لاجتذاب الالتفات إليها كعليلة تستحق الإشفاق ، وإذا ما ظفرت بذلك أحست بشىء من العلو والأهمية .

ونحن نؤكد للقارىء ثانية أن الولد المشاغب والفتاة المصابة بالنورستانيا كليهما لا يبذل الجهد للتعويض عن النقص وهو فى وعيه الشعورى . إن الإحساس بالحطة قد يكون شعورياً إلى حدما ، ولكنه قلما يكون كذلك إلى كل حد ، وأما الخطة التى يرسمها المصاب للتخلص

من هذا الاحساس فهى لا شعورية دائما ؛ ولا فائدة البتة من تنبيه مثل هذا الشخص إلى ما يفعل ، وإلى سبب ما يفعل . ولكن طبيب التحليل المدرب يستطيع أن يأتى بمعرفة السبب الى حيز الشعور . أما التهم التى يكيلها الآباء والمعلمون جزافا فلا تجدى ولا تغير ، لأن الطفل يرفض التهمة التى توجه إليه بشدة وباستياء ، وتزداد المشكلة تعقيدا بمثل هذا التدخل .

والعلاج الوحيد فى أيدى المعلمين والآباء هو إيجاد منفذ مشروع للطاقة المحبوسة ، وتعويض معقول للإحساس بالحطة ، ومن أمثلة ذلك إعطاء الطفل شيئاً من النفوذ والمسئولية ومن أمثلة ذلك أيضا إبعاد الطفل عن البيئة التى يشعر فيها بالحطة . وينبغى كذلك أن تعطى الطفل شيئا يتسلط عليه ويسأل عنه فيما بعد . إنا بذلك لا نمهد له — كما يتوهم بعضنا — سبيل التمادى فى قسوته أو تهديده ومشاغبته ، وعلى أية حال فالمسئولية عن الأشياء الجامدة التى لاحياة فيها وعن الحيونات آمن من المسئولية عن الأطفال الآخرين . وكثيراً ما يقترح الطفل نفسه طريقة علاجه ، ولكن أولى أمره يرفضونها لأنها قد لا تريح أو تسر بعض أفراد الأسرة الآخرين ، لا لأنهم لايشفقون على الطفل ، أو لأنهم يحبون أنفسهم ، ولكن لأنهم لايفهمون ما يترتب على أمثال هذه الرغبات التى قد تبدو لهم تافهة زهيدة . ومن الحوادث التى تذكر تأييداً لذلك أن فتاة لا تتميز بالذكاء المفرط أو بالجمال البارع ، كان لها أخوة متفوقون يتميزون بالجمال ، فأرادت أن تعوض هذا النقص باقتناء كلب تنفس به عن

غريزة السيطرة ، ولكن الظروف العائلية لم تسمح لها باقتناء الكلب فاندست الخيبة والفشل فى عقلها الباطن ، ولما حاولت الدراسة العليا والحصول على درجات عالية لم تنجح فيما أرادت ، وأصيبت بمرض عصبي شديد .

ويقول بعضهم إنه من الميسور أن نطلق طاقة الطفل المحبوسة بتعليمه عملا يدوياً أوتهيئة الفرصة له لأن يعشق عملا بذاته ويهواه ، ولكن التجارب لم تدل على ذلك ، فإن الأطفال قد يعطون كل أدوات اللعب ، ولكنهم سرعان ما يملونها ، ولن تشغل الهوية خاطر صاحبها إلا فى فترتين اثنتين : (أولاهما) حينما تكون جديدة عليه (وثانيتهما) حينما يمهر فيها صاحبها . ولكن بين الفترة الأولى والفترة الثانية ، مدة يسود فيها الملل والضجر ، وقد لا يستطيع الطفل تخطيها بغير عون ، فيجب علينا أن نحفزه بكل الوسائل ، فإما أن تصبح الهوية جزءاً من حياته المدرسية اليومية ، كما هى الحال الآن فى كثير من المدارس الحديثة ، وإما أن يشاركه فيها رفاقه وأصحابه ، ويتشجع بالمنافسة الودية . كما هى الحال بين فرق الكشافة والمرشدات . وهناك بطبيعة الحال أطفال لا يحتاجون إلى هذا الحافز ، ولكنا هنا نتكلم عن متوسطى الأطفال لا عن شواذهم .

ومن الأطفال من يعيش فى بيوت أو مدارس يخضعون فيها لنظام صارم شديد ، فيحسون بالضعف والنقص لأن الطفل الطبيعى الصحيح البدن يكره أشد ما يكره أن يكون مرءوساً ، وهو لا يحب

من يريد إخضاعه ، وقد يثور ويهتاج فى وجهه . فإن وجدت مدرسة الأطفال فيها يحاولون أن يكون لهم نفوذ على واحد أو أكثر من المتعلمين ، فاعلم أن بهذه المدرسة بعض المدرسين ممن يرون أن حفظ النظام والاحترام هو بالصياح أو بإلقاء الأوامر فى عنف وشدة ، وبعدم الاعتراف بالخطأ مطلقاً . وفى مدارسنا الثانوية المصرية كثيراً ما نرى العصيان من جانب الأطفال ، ويرجع السبب فى معظم الأحيان إلى القسوة التى يريد بعض المعلمين أن يعاملوهم بها ، ولا يخفى أثر ذلك فى مستقبل الأطفال ، ولا شك أن الوسيلة الوحيدة للحصول على العطف ـ فى التربية كما فى غيرها من شئون الحياة ـ هى إبداء العطف .

وقليل من الناس من يدرك ، حتى فى هذه الأيام التى نقدس فيها الطفولة ، مقدار ما يصيب الطفل من الأذى بسبب الإهمال الأبوى فى بعض النواحى ما دام الطفل يحس أن والديه يعنيان به ويحبانه ، وأن مثله فى ذلك مثل من يعرفهم من الأطفال الآخرين فلا ضرر عليه . ولكنه إن شك فى أن والديه لا يأبهان له ، فإن الإحساس بالحطة قد يضر به ضرراً بليغاً ، ويبدو عليه بشكل قوى ، والأمثلة الآتية توضح ما نقول .

كانت فاطمة فتاة فى الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمرها ، وكان والداها لا يعنيان بها كثيراً ، وكثيراً ما يدفعان بها إلى أقاربها وأهليها تخلصاً منها ، وكانت الفتاة ذكية أنيقة جميلة ، ولكنها شديدة

المراس لا يسلس قيادها ، وقضت بالمدرسة سنوات وخرجت منها لا تعرف القراءة أو الكتابة ، وكانت لها عادة غير مستحبة ، وتلك أنها كانت دائما تتطلب التفات الكبار إليها ، وتسعى إلى ذلك إما بالثرثرة فى الحديث أو كثرة الأسئلة التى لا معنى لها أو بالتظاهر والضجيج ، كما كانت تجذب التفات من هم أصغر منها بتهديدهم ومضايقتهم ، وبعد البحث ثبت أن فاطمة كانت تفكر وكانت تشك فى حب أمها لها ، كانت تسأل نفسها « هل هناك من يحبنى أكثر من أمى ؟ هذا مستحيل » ثم تقول « ولكن أمى لا تحبنى ، ولذا فأنا أختلف عن غيرى من الأطفال ويعوزنى شىء فى حياتهم جميعاً » وكانت طريقتها اللاشعورية للتعويض عن محبة أمها أن تحصل بالقوة - كلما سنحت لها الفرصة - على التفات الناس اليها ، وتفوقها عليهم ، وعلى المحبة التى حرمتها من مصدرها الطبيعى .

وإليك مثال آخر : كان زكى غلاماً فى الرابعة عشرة من عمره يبناه منذ طفولته زوجان غنيان لا ولد لهما ، وكان هذان الزوجان ، يأتيان له بكل ماوسعهما شراؤه بالمال ، ويفيضان عليه عطفاً ومحبة ، ولكنهما لم يذكرا له حقيقة والديه ، وقد عرف يوما صديقاً سىء السريرة ، غيوراً ، فألمع له هذا الصديق عن حقيقة الأمر فاعتقد أن أمه هجرته فى طفولته ، ولكنه لم يستطع أن يقطع بصحة ما ألمع إليه صاحبه ، فقضى عهداً من صباه مكتئباً حزينا ، لا يستطيع أن يستقر على عمل أو لعب ، ينعزل فى غرفة خاصة ويفكر فى هذه الحقيقة

المرة : وهى أن أمه قد نبذته . فتميز هذا الطفل البائس بعدم الاكتراث ، وبالقلق الشديد ، وحب الانتقال من حال إلى حال ، وبالاكتئاب ، وحب النفس ، وحدة المزاج ، والانفعال الشديد ، والتفاخر بأموال أبيه ومكانته الاجتماعية .

(وهذه الصفة الأخيرة وهم باطل ، فإن الأب الذى تبناه لم يكن من ذوى المكانة) ، ولما بلغ زكى السادسة عشرة ، اضطر الرجل الذى تبناه أن يخبره صراحة بحقيقة مولده ، فلما عرف الطفل حقيقته استقام سلوكه تدريجا بعد ذلك ، فلم يعد - كما كان - عديم الاكتراث ، شديد الانفعال ، وشرع يصلح من أمر نفسه ، وجد فى الدرس ، ونال الدرجة الجامعية بامتياز ، وبدأ حياة عملية نافعة .

وهناك أمثلة أخرى من إهمال الوالدين أو جهل الأبناء بهم ، ولكن ليس لها من الأثر ما للأمثلة التى ذكرنا . ومن النتائج الشائعة بين الأطفال من إهمال الآباء لهم ، شرود الذهن ، الذى كثيرا ما نسىء فهمه ونظنه كسلا أو خمولا . فى هذه الأحوال يصرف الطفل طاقته الحيوية - وهى دائبة النشاط فى ناحية ما - فى التعويض عن حطته الموهومة بأحلام اليقظة الشاردة التى يرى نفسه فيها بطلا محاطا بكل مظاهر الحب والإعجاب . هذا الضرب من الوهم شائع بين الأطفال ، وهو وسيلة للتعويض عن ضروب مختلفة من الحطة قد لا تتصل البتة بالوالدين .

ويجب أن نفهم أن هذه الملاحظات عن الإحساس بالحطة ، الذى

ينشأ عن نقص العناية الأبوية ، لاتنطبق على الأطفال الذين يفصلون عن والديهم إما بموت الآباء أو بمقتضيات الظروف القاسية ، كأن يتربى الولد فى القاهرة بعيداً عن والديه اللذين يقطنان الريف ، فإنه فى هذه الأحوال قد يعوزه العطف وحسن التوجيه ، ولكن هذه المشاكل تختلف عن تلك التى تنجم عن إهمال الوالدين لأبنائهم عمداً ، أو عدم محبتهم لهم ، أو عن ظروف مخزية مشينة ترجع إلى أسباب غامضة لايعرف مداها . وفى حوادث الطلاق كثير مما يؤدى إلى ذلك.

ومركز الرجال أو النساء الذين يتبنون الأبناء شاق عسير، لأنهم ينبغى لهم أن يفكروا دائماً فى مايجب أن يقال وما لا يجب أن يقال. وأما مايجب تحاشيه على أية حال فهو السكوت والكذب ، فالسكوت غير مستحب حتى وإن كان الطفل يعلم حقيقة الأمر ، وذلك لأنه - لاشك - ينسج حول الموضوع نسيجاً من الوهم والكآبة إذا لم يذكر أمامه الموضوع بصورة ما . والكذب ضار لأن الحقيقة سوف تظهر ولا مندوحة ، وحينما تظهر قد تكون الصدمة شديدة الوقع لأنها تكون حينئذ مضاعفة ، فهى ترجع إلى فقده احترام والديه (بالتبنى) كما ترجع إلى أثر علمه الجديد بحقيقة الأمر. والكارثة أشد وقعاً إن اتضحت الحقيقة فى سنى المراهقة العصيبة ، حينما تكون الشخصية لدنة مرنة وفى دور التكوين . ولذا فهذه الحقائق المرة ينبغى أن تعرض صراحة على الطفل فى سن باكرة ما أمكن ذلك ، أى حينما تبدو أدنى إشارة إلى حب الاستطلاع . فكلما بكر بمعرفة

هذه الحقائق خف وقع الصدمة ، لأن الحقائق البغيضة ، إن وصلت إلى النفس بصراحة ويسر ، لا تصل إلى الأعماق ، ولا تسبب الأوهام الكئيبة . وإنما الأمور التي يظن الراشدون أنها غير سارة ، ولا ينبغي ذكرها ، هي التي تسيطر على أذهان الأطفال .

ورغم ذلك فإنه إن كان لابد من إخبار الطفل ببعض الحقائق التي تسيء إلى والديه ، فإنها يجب أن تعرض بكل رفق ، فإنك إن أغلظت في القول ، وذكرت له أن أباه كان رجلا شريراً غير رحيم بأمه ، أخطأت خطأ كبيراً ، وربما لوثت أحكامه عن الرجال والنساء جميعاً في حياته المقبلة. لأن من الحقائق النفسية الثابتة ـ التي سوف نعالجها بشيء من الإسهاب فيما بعد ـ أن الأم تبقى طوال الحياة في العقل الباطن المثل الأعلى للأنوثة كما يبقى الأب المثل الأعلى للرجولة . وإن أردنا أن نعلم الطفل الصغير العطف والتسامح والإشفاق ، وجب أن نستغل هذه العواطف حينما نمده بالحقائق المرة.

وينبغي أن نعلم كذلك أننا لانستطيع أن نقول للطفل الخبر مرة ثم نعتقد أننا بذلك قد انتهينا منه ، بل يجب ألا نغفل عن ما نذكره للطفل وهو في الخامسة أو السادسة قد يغوص في أعماق عقله الباطن ، حتى إذا ما بلغ الخامسة عشرة أو السادسة عشرة أكد مخلصاً أنه لم يسمع بالخبر قط ، ولذا وجب أن نعاوده الحديث الحين بعد الآخر.

حدث مرة أن فتاة في التاسعة عشرة من عمرها وقعت في مشاكل عقلية ونفسية بسبب ما قرأت من أدب الحب وقليلا من نظريات

يونج وفرويد ، وقد أقرت بأنها نشأت تجهل كل الجهل كل ما يتعلق بالشئون الجنسية من الوجهة الجثمانية . ولكن بعد التحليل ثبت أنها تعلمت ما فيه الكفاية فى طفولتها عن طريق الصور والرسوم فيما يتعلق بالشئون الجنسية عن الحيوان والإنسان على قدر ما يدرك الطفل . هذه الدروس الباكرة تلقتها الفتاة فى وقت لم تتشوق فيه لمعرفة هذه الأمور ، ولذا فقد نسيت كل مايتصل بها كما ننسى السنين فى علم التاريخ ؛ أو ربما كان العلم بهذه الأمور بغيضاً على نفسها فكبتته عامدة : ومهما تكن الحقيقة ، فمما لا شك فيه أن الأطفال لايتذكرون كل ما يسمعون ، ومن الضرورى أن نذكرهم ببعضه بين الحين والآخر ، وأن نجعلهم يحسون بأنا على أهبة لأن نناقش هذه الموضوعات معهم فى أى وقت من الأوقات ؛ ولا أقل من أن نذكر الأطفال اليتامى بآبائهم بالصور أو بإحياء أعياد ميلادهم أو ما الى ذلك ، فإن الطفل - حتى إن كان لا يدين لأبيه بالشىء الكثير - أقرب إلى محبته إذا كان عيد ميلاد الوالد يرتبط فى ذهنه بالعطلة أو الوليمة .

وفى هذه الأيام التى يدعو فيها الكثير من الخبراء إلى التعليم المشترك بين الجنسين ، يجدر بنا فى هذا المقام أن ننبه الأذهان إلى بعض المشاكل التى تنشأ من اختلاط الجنسين أثناء التعلم . هذا التعليم لم ينتشر بعد فى مصر ، بل ولا يزال قليلا فى انجلترا ذاتها . وهناك من المدارس الأجنبية مايشرك الجنسين فى التعليم إلى سن معينة .

وهناك مدارس يكثر فيها البنين ، وأخرى - على النقيض من ذلك - يغلب فيها البنات .

وهذا الموضوع واسع الأطراف ، متشعب النواحى ، ولانستطيع أن نمسه فى هذه العجالة القصيرة إلا مساً خفيفاً . ولكن لامراء فى أن تطبيق هذا النوع من التعليم تطبيقاً ناقصاً (بأن لايتعادل الجنسان فى المدرسة) تترتب عليه أخطار جسيمة . ومن الجلى أن الأطفال الذكور - إن قل عددهم فى مدارس البنات - شعروا بالحطة . وكذلك البنات فى مدارس البنين ، فهن يختلطن طيلة النهار مع رفاق كثيراً ما يكونون أقوى منهن جسما وأصلب عوداً ، وأكثر تفوقاً فى الألعاب النظامية . وإذا لم يتوفر للبنت المزاج والجسم اللذان يعاونانها على أن تلحق بالولد ، فهى تشعر دائماً بالنقص ، وإن لم تستطع أن تقلد الأولاد ، فربما أشبعت رغبتها الغرزية فى العلو والتفوق بأن تسمح لنفسها بالتدليل والاهتمام من جانب كبار الأولاد والمعلمين ، وليس هذا أو ذاك مما يستحب أو يرغب فيه . وهناك فكرة تدور فى خلد بعض الآباء بأن البنات إن توجهن إلى المدرسة مع أخوتهن الذكور تقوت الرابطة العائلية وازدادت وثوقاً ، ولكنهم ينسون أن الأطفال ما يكادون يلجون باب المدرسة حتى تصبح الروابط العائلية ثانوية بالنسبة للروابط المدرسية ، وأن الأخت قد لاتقابل أخاها طيلة اليوم المدرسى ، بل وربما كانت متابعة الأخت لأخيها فى الطريق من المدرسة إلى البيت ومن البيت إلى المدرسة مضايقة له ،

وقد لايسره أن يسمع من زملائه أنهم يشفقون عليه من ملازمة أخته له .

ومن المستحيل - كما ذكرنا من قبل - أن نعدد جميع الأسباب التى تبعث على عقد النقص عند الأطفال . فالطفل الذى يتلعثم فى الكلام ، والطفل البدين ، والطفل الفقير الذى لا يستطيع أن يجارى زملاءه فى البذخ والإسراف ، والطفل المصاب بإصابة تمنعه من المساهمة فى اللعب ، والطفل الذى لا يرتدى كما يرتدى غيره من فاخر الثياب ، والطفل الذى ليس له اسم جميل (كالحمار والجحش الخ ...) - وغير ذلك كثير مما يسىء إلى الطفل ويشعره بنقصه ، ويؤدى به إلى أن يسلك مسلكا شاذاً لا يتفق البته والبواعث التى تدفع إليه . أعرف فتاة فى الحادية عشرة من عمرها عادية فى كل شىء ، ولكنها لاتعرف القراءة والكتابة ، وذلك لأنها أيام طفولتها الباكرة كانت تعانى كثيراً من سخرية الناس بها كلما أخطأت ، وكانت لا تقاوم أو تمتنع شعورياً ، بل ولا تذكر مالقيت من سخرية ، ولكن المقـــاومة اللاشعورية والنضال النفسى كان شديد الوقع عليها حتى لقد فشلت تماما رغم مابذلت من جهد ؛ وبقيت كذلك حتى خرج سبب التأخر من اللاشعور إلى الشعور . وبدهى أن الأطفال الذين نسخر من خطئهم لايتأثرون كثيراً كما تأثرت هذه الفتاة ، كما أن الطفل البدين أو الهزيل أوصاحب الاسم المضحك قد لايشعر بالنقص لهذا السبب ، فبعضهم تتكون لديه عقدة النقص ، وبعضهم ينجو منها ؛ وليس بوسع الوالد

أو المعلم إلا أن يلاحظ ويراقب ويقوم مايرى من اعوجاج قبل أن يتأصل فى النفس .

ويصح هنا أن نتساءل ماذا عسانا فاعلون كى نعين الأطفال فى النضال الذى يقوم فى نفوسهم بين غريزة السيطرة والشعور بالنقص؟ ينبغى أن نعتقد أولا أن غريزة السيطرة طبيعية ونافعة ، ويجب ألا نقضى عليها ، وذلك رغم أن صاحبها — كغيرها من الغرائز — قد يسىء استخدامها ويقلب نفعها ضراً . ولو كبتت وحبست فى العقل الباطن فلا مناص من أن يعانى الفرد عقلياً وخلقياً وبدنياً ؛ وإذا انصرفت فى اتجاهات خاطئة كابد المجتمع وانتقم لنفسه من الفرد ومن ثم كان التنفيس عن هذه الغريزة تنفيساً صحيحاً أمراً تجب العناية به .

وهناك اليوم كثير من المدارس الحديثة التى تعطى للأطفال حرية معقولة ، وتقوى فيهم العزم وتقرير الذات ، ولكن هذه المدارس عينها عانت كثيراً فى أول أمرها عند ما شرعت تمنح التلاميذ قسطاً من الحرية الشخصية . ولعلنا نشاهد هذه الظاهرة فى مدارسنا المصرية فى العهد الأخير، فقد تمتع التلاميذ بقسط وافر من الحرية فى عهد الاستقلال ، ولكنهم كثيراً ما أساءوا هذه الحرية وحطموا أثاث المدرسة وأجهزتها فى مناسبات مختلفة . وقد خرج بعض المربين من هذه التجربة بضرورة تقييد حرية التلاميذ وإعادتهم إلى ما كانوا يعاملون به من قسوة قبل هذا العهد ، ويرى

بعضهم الآخر أن فى ذلك دليلا على ضرورة توجيه نشاط التلاميذ وحريتهم وجهة صحيحة مع الإبقاء على الحرية . ونحن نرى أن الطفل الذى يميل إلى العبث والتخريب يحتاج إلى منفذ لغريزته لا إلى العقوبة، لأن عقل الطفل الباطن إنما هو مستودع من الطاقة الحيوية ، السيطرة عليها ميسورة ، ولكن بعد أن تجد سبيلها إلى الخارج.

يجب علينا أولا أن نهيئ فى المدرسة وفى المنزل بيئة صالحة للطفل ينفس فيها عن غريزة السيطرة تنفيساً نافعاً غير ضار ، ثم نفكر بعد ذلك فى عقد النقص . ومن اليسير أن يتبين المربى سبب هذا الشعور بالنقص . ومن العبث أن تحاول إقناع الطفل بأن السبب فى شعوره بالنقص وهمى لا وجود له ، فهو — إن حاولت ذلك معه — يصمك بالعمى أو عدم الإخلاص . إنما ما يحتاج إليه الطفل هو الهداية نحو صورة معينة مقنعة من التعويض عن عجزه . أعرف طفلا ابن طبيب أصيب بمرض جلدى مزمن كان يعوقه عن التنفيس الطبيعى عن نشاطه ، فبدأ يشعر بضعف العقل، فخطر لواحد من أصدقاء أبيه أن يعلم ابنه مهنة يدوية، فتعلم الطفل النجارة ، ووجد فيها تنفيساً قويا عن غريزيه ، ونجا بعقله وليس فى هذا الحل اليوم غرابة ما ، ولكن هذا الضرب من العلاج كان غير مألوف فيما مضى .

وهناك اليوم العدد العديد من الأطفال الذين لا يبدو عليهم شذوذ ولكنهم مع ذلك يبوءون بالفشل فى المدرسة أو فى البيت ، ولا يفكر

أحد فى أن يسوق أمثال هؤلاء إلى طبيب خاص بالأمراض العقلية . ويعتقد كثير من علماء التربية اليوم أن ليس هناك طفل كسلان ، وربما كانوا مغالين فى ذلك ؛ ولكن مما لاشك فيه أن الطفل لا يولد بائساً أو مكتئباً أو غير راض عن حياته ؛ فإن أصيب بشىء من هذا فيما بعد ، فإنما يرجع ذلك إلى أن أولى أمره يجهلون الأوهام التى تسيب له هذا الغم ، كما يجهلون المنافذ الصحيحة التى ينبغى أن تتوفر له كى يرفه عن نفسه .

ب — عند الراشدين :

دراسة نفسية الكبار أشد تعقيداً من دراسة الصغار لأسباب عدة : أولها أن الهوة بين الشعور واللاشعور عند الطفل ليست عميقة لأن خواطره المكبوتة لم يتسع لها الوقت بعد كى تغوص فى الأعماق . وفضلا عن ذلك فإن دائرة تجاربه ضيقة ومن ثم كانت عقده النفسية لاتنطوى على عوامل متنوعة . هذا إلى أننا عند دراسة الأطفال عادة ماتكون لدينا دراية كافية بتجاربهم السالفة ؛ ويساعدنا هذا كثيراً على تتبع أسباب مشاكلهم واستئصالها . ويرى طبيب النفس فى العصر الحاضر كما يرى عالم التحليل النفسى أن كثيراً من أسباب النورستانيا عند الراشدين يرجع إلى حوادث هينة وقعت لهم أيام الطفولة ، ولكنها انحدرت بالتدريج من الشعور وبلغت أعماق اللاشعور فى متوسط العمر ، حتى بات من العسير على الطبيب

أن يستخرجها إلا بعد أشهر عدة من التحليل النفسى ، بينما أمثال هذه الحوادث عند الأطفال قريبة التذكر ؛ لا يجد الطفل مشقة فى استذكارها . وقد يضطر الطبيب أول الأمر إلى مواجهة « المقاومة » من نوع ما ، ولكن المقاومة عند الطفل طفيفة ضعيفة إذا قورنت بها عند الراشدين . ويترتب على ذلك أن مسألة إرادة السيطرة وعقدة النقص تصبح أعسر علاجا عند الكبار منها عند الصغار .

ولنلاحظ أولا أن الرجل العادى يجهل الرغبة العامة فى السيطرة التى تتملك الناس جميعاً . وإنه لمما يدعو إلى العجب أننا بعد قرون عدة من المدنية لانزال نجهل هذه الغريزة الأساسية . كلنا يعلم أن الغريزة الجنسية عامل قوى فى حياة الإنسان ، ولاينكر أحد أثرها فى نفسه ، ولكن كثيراً من الناس لايفهم حب السيطرة على معناه الصحيح ؛ ويصور لنفسه أننا نقصد بها إخضاع إخواننا من مواطنينا أوغيرهم . ولما كان حب السيطرة على هذا المعنى غريزة غير اجتماعية ، فليس من اليسير أن يقر المرء بأثرها فى نفسه .

وهناك صعوبة أخرى تعترضنا عند البحث فى غريزة السيطرة عند الكبار ، وتلك هى أن هذه الغريزة ترتبط أشد الارتباط بالغريزة الجنسية ، ويبين الشكل الأول من هذا الكتاب أن الطاقة الحيوية تشبه التيار المتدفق الذى قد ينساب لوقت ما فى قناة دون الأخرى ، ولكن التيار واحد ، والجزيرة التى تقسم التيار إلى

مجربين تمثل الظروف والبيئة . الجنس والقوة كلاهما عند الإنسان والحيوان شيء واحد فى أساسه ، ويشاهد فى البلاد المتمدنة أن أحدهما قد يقوم مقام الآخر ويسد مسده فى حياة الإنسان اليومية ، وقد تقوم المهنة مقام الزوجة ، وفى التعبير الأدبى يصح أن نقول عن كتب المؤلف ورسوم الفنان إنها « أطفاله » وهذا يدل على امتزاج الغريزتين ببعضهما، ولذا فبحثنا فى هذا الفصل إنما هو البحث فى جانب السيطرة من غريزة الجنس ، وسنعالج فى الفصل التالى جانب الجنس من غريزة السيطرة .

وأيسر طريقة لعلاج غريزة السيطرة عند الكبار أن تبدأ أولا بتحليل رجل — أو امرأة — هذه الغريزة تلعب فى حياته دوراً عادياً صحياً غير شاذ . ولنأخذ على سبيل المثال مزارعا ناجحاً فى عمله وصانعاً ماهراً فى صنعته ، وزوجة موفقة ، فهؤلاء جميعاً يشتغلون بمهن تحتاج إلى المهارة وقوة الحكم وبعد النظر ، وينتجون أعمالا مرضية محسوسة تراها العين المجردة ، وكلها نافع للمجتمع ، فالمزارع يبذل القوة ويستخدم المهارة فى فلاحة الأرض ، ويعنى بالبهائم ويديرها فى العمل ، ويرأس العمال ، ويجمع المحصول ، ويحفظ أمواله وما إلى ذلك ، وكلما زادت مهارته زادت ثروته ، والثروة له مصدر جديد للقوة والسيطرة فهو بها حر يستطيع أن يتزوج وأن يجد منفذاً لغريزتى الجنس والأبوة ، ولاداعى لحجز الطاقة الحيوية عن التدفق فى إتجاهها الطبيعيين . وهكذا الحال مع الصانع الماهر

والزوجة القادرة . أى أن هناك عدداً كبيراً من العالم المتمدن تتوفر لهم وسائل الحياة الطبيعية المتزنة التى تؤدى إلى الصحة ورضا النفس ولسنا نعنى بهذا أن المزارعين جميعاً والصناع والزوجات قوم سعداء حياتهم متزنة . كلا ، بل أن المزارع الذى يود لو كان موظفا فى الحكومة ، والصانع الذى يود لو كان يشتغل بالأمور العقلية ، والزوجة التى تود لو كانت معلمة أو عاملة ـ أمثال هؤلاء لا يجدون منفذاً لميولهم الطبيعية ، ولكنهم يؤدون أعمالا يرون فيها نوعا من الذل والاسترقاق ، وربما أصيبوا بالأمراض العصبية والقسوة واختلال التوازن العقلى كغيرهم من أعضاء المجتمع . ولكن الإنسانية فى تطورها من الهمجية التى تتوفر معها المنافذ الطبيعية الكافية لغرائز الإنسان الأولية ، إلى المدنية الراهنة ، أمكنها أن تحقق الغاية المرغوبة — من بعض الوجوه — بزيادة عدد المنافذ الصحية وتحسينها ، بينما فشلت — من وجوه أخرى — فشلا ذريعا .

هناك طبقتان من الناس يتعسر عليهما إشباع الغرائز الطبيعية بطريقة بسيطة مباشرة ، وهاتان هما عمال المصانع والتجار وموظفو المكاتب فى المدن ، والمرأة العانس التى لم تتزوج . وليس من همنا هنا أن نعالج الأخطاء الاجتماعية والاقتصادية التى خلقت هاتين الطبقتين ، ويكفينا أن نعلم بوجودهما ، وأنهما لايكونان مشكلة اجتماعية اقتصادية فحسب بل ومشكلة نفسية كذلك . والمشكلة التى نواجهها هى أن العدد الأكبر من السكان ينبغى له إما أن يتعلم طريقة عسيرة دقيقة يسمو بنفسه بها ، وإما أن يحيا حياة شقية فاشلة .

نعم إن كل امرئ — مهما كان سعيد الحظ — ينبغى له خلقيا وروحيا أن يسمو بغرائزه ، ولكن هذا العمل أيسر حينما لا تقف الظروف عقبة فى تدفق الطاقة الحيوية فى المجريين الطبيعيين .

التسامى بالرغبة أو الغريزة هو أن يجد لها المرء قناة غير القناة البدائية المباشرة تتدفق فيها طاقته دون أن يلحق بالمجتمع أذى . وكل امرأة وكل رجل كريم النفس لا يحب الأذى لغيره يحقق بسلوكه شيئاً من التسامى . والرجل الزاهد المتصوف المخلص هو ذلك الذى بلغ به التسامى أعلى الدرجات .

ومميزات التسامى الكامل ثلاثة ، فهو يجب أولا أن يكون لذيذاً ساراً ، ويجب ثانيا أن يكون نافعا للمجتمع ، كما ينبغى أن يحقق للمرء مثله الأعلى . فالفتاة التى تقتنى كلبا كى تشبع غريزه الأمومة فى نفسها ، إنما تغير مجرى هذه الغريزه الطبعى ، ولكنها لاتتسامى بها تساميا تاما لأنها لا تحقق سوى الشرط الأول ، فهى تجد لذه ومتعة فى مداعبة الكلب ، ولكنها تصرف نشاطها فيما لايفيد المجتمع . وهى فى اللحظات التى تواجه فيها الحقائق تعلم أن هذا المنفذ غير جدير بالتقدير ، ولذا فهو لايحقق مثلها الأعلى ، والرجل الذى يعتمد فى عيشه على ثروه زوجته ويصرف وقته فى اللهو بالرسم أو بالتصوير يشبه فى نفسيته هذه الفتاه صاحبة الكلب .

والفتاة التى تيأس من الزواج فتكرس حياتها للخدمة الاجتماعية أو تلتحق بالدير ؛ إما لإحساسها بالواجب ، أو كى تفر

من الحياة المنزلية ، قد تتسامى بنفسها تساميا يحقق الشرطين الثانى والثالث ، ولكنها إذا لم تستمد من حياتها هذه لذة ومتعة ، فإن صحتها العقلية والجثمانية قد تتعرض للمرض . وفى الحياه العادية مثال مألوف ، وهو تلك البنت التى تقضى حياتها مخلصة فى العناية بوالديها وهما مايزالان متوفرى النشاط . إنما هذه الفتاه كسابقتها ، ولكنها لاتحقق الشرط الثانى كما تحققه الأولى ، لأن إنكارها لذاتها قد لايكون نافعا حقا لوالديها

والرواية الحديثة فى الأدب الإنجليزى تعالج هذا الضرب من التسامى ، وياحبذا لو فطن أدباؤنا إلى هذا الفرع الجديد من علم النفس ، وكتبوا لنا القصص والروايات التى تبين للقارىء أثر الكبت والقمع فى سلوك الناس ، وكيف يؤدى إلى الفشل حينا وإلى التسامى حيناً آخر .

وفى رأينا أن الفتاة التى تقضى حياتها فى خدمة أبويها لا تجد لغرائزها من التنفيس ماتجد غيرها ممن يخرجن إلى الحياة العامة ويشتغلن بالمهن المختلفة ، بل وممن يترهبن ويقضين حياتهن فى الإخلاص لله وللدين .

الفتاة التى لاتتزوج وتبقى فى خدمة البيت بائسة فى نفسيتها ويحق لها أن تثور فى وجه المجتمع ، ولكنها قل أن تفعل ذلك لأسباب ثلاثة . أولها أن فشلها فى الزواج يسبب لها الشعور بالنقص ، وهذا الشعور يجعل العصيان أمراً شاقاً من الوجهة النفسية .

وثانيها أنها لا تدرى ماذا تفعل إن هى ثارت على أهليها ، وبخاصة إن كانت من غير المتعلمات . وثالثها تربيتها الخلقية والدينية وعقيدتها أن العناية بالوالدين هى المثل الأعلى لحياة العذراء ؛ وهى بهذه الحياة تحقق الشرط الثالث من شروط التسامى (وهو تحقيق المثل الأعلى فى الحياة) ، ولكن الفتاة ـ رغم هذا كله ـ لاتجد الفرصة الكافية للتنفيس عن غرائزها الأساسية ، فالأم ماتزال ربة البيت وصاحبة النفوذ فيه . والفتاة فى الطبقة الفقيرة خير حالا من زميلتها فى الطبقة الغنية ، لأن الحياة الاقتصادية الضنكة التى تحياها تحتم عليها أن تؤدى بعض الخدمات . ويحسن الآباء صنعاً لو وجهوا بناتهم إلى الخدمة الاجتماعية العامة كى يشعرن بأنهن يؤدين عملا نافعاً .

وأمام المرأة الحديثة غير المتزوجة طريقان تنفس بهما عن غرائزها ، وهما مهنة التعليم ومهنة الطب والتمريض . فمن اليسير لكثير من السيدات أن يتناسين الغريزة الجنسية المباشرة فى غريزة الأمومة ، لأن الغريزتين ـ الجنس والأمومة ـ مظهران لقوة واحدة . وقد تكون غريزة الأمومة أقوى من الغريزة الجنسية . وكثير من البنات يحببن الزواج للأمومة ، وقد يضحين براحة أزواجهن فى سبيل سعادة أبنائهن . ومهنتا التدريس والتمريض ـ فضلا عن أنهما يهيئان الفرصة للتنفيس عن غريزة الأمومة ـ كلاهما يحقق شرطى اللذة والمنفعة . كما أن مهنة التمريض تحقق الشرط الثالث ، لأنها تفى بالمثل الأعلى فى الحياة فى نظر المرأة . والمرأة العادية ترضى بالتمريض

وتتخيل أنها تصبح به موضع الإعجاب والاحترام من الرجال . ولكن التمريض - رغم ذلك - لا يسمو بالفتاة سموا كاملا ، لأن العمل إن كان يمدها بتجارب مختلفة من نوع معين فى أول الأمر ، إلا أنها بعد ماتمرن عليه تجده لايقتضى منها مجهوداً عقلياً ، فهى لاتحتاج إلى زيادة علمها فى الطب ، وهى لاتحتاج إلى استخدام ذكائها وقوة ابتكارها . وكلما طال بها الأمد فى مهنتها زادت خبرتها العملية ، ووقف تطور عقلها ونموه . وسرعان ما تجد أنها لاتعرف من الأحاديث إلا ما يتعلق بالمهنة ، وذلك لأن العقل أثناء التدريب يمثل التجارب كما يمثل الجسم الطعام ، فهو لا يحتفظ به على صورة من العلم التفصيلى الذى يمكن روايته ، وإنما يحوله إلى قواعد وأحكام عامة . والممرضة التى يقف ذهنها عن النمو بسبب قلة استخدامه تصبح غير قادرة على تمثيل المعرفة أو الخروج بها من التفصيل إلى التعميم ، ولذا فهى لا تعرف أكثر من ترداد تفصيلات تجاربها مما يبعث على ملل السامعين .

وهناك خطر آخر فى مهنة التمريض ، وهو أن جانب الأمومة والإنسانية عند الممرضة قد يخضع خضوعا تاماً لجانب السيطرة لديها ، فتسىء إلى من هم دونها .

أما مهنة التعليم فهى أقل من التمريض فى تحقيق المثل الأعلى للحياة فى نظر المرأة ، لأن مهنة التعليم - رغم شرفها وعلو مكانتها - لاتزال تعانى كثيراً من قلة تقدير الناس لها تقديراً كافياً ، وما تزال

ترسف فى قيود الآراء العتيقة التى علقت بها أيام أن كان لا يتبادلها الأكفاء من الرجال والنساء. وليس فى حياة المعلم والصورة الوهمية عنه — وهى النزاع القائم بين المعلم والمتعلم — مايشجع على احترام هذه المهنة أو تقديرها . إن الرجل الذى يكسب عيشه بتعذيب الأطفال والعاجزين لن يصبح بطلا فى أعين الجمهور . إنما هو موضع لسخريتهم ، والمرأة المتعلمة أسوأ حالا من الرجل فى هذا .

ولكن مهنة التعليم - رغم هذا كله - تمد المرأة بسبب قوى للتنفيس عن حيويتها ونشاطها ، لأنها - إن أخلصت لها المرأة - تناشد فيها غريزتى الأمومة والحماية ، كما تمهد لها السبيل لإظهار قدرتها على الابتكار وبراعتها فى الأعمال العقلية الإنشائية . ولكن فيها مع ذلك خطراً جسيما ، فالمعلمة بحكم وظيفتها كثيراً ما تسىء استعمال سلطانها ، وقل من المعلمين أو المعلمات من لا ينساق لرغبته الباطنة فى حب السيطرة . والظلم والاستبداد من الصفات الشائعة حتى فى خير المدرسين علماً وأرقاهم خلقاً .

وربما كان السبب فى ذلك هو أن التنفيس المباشر للغرائز أيسر على المرء من التسامى بها ، فالمعلمة عادة تحيا حياة فردية من الوجهة الجنسية ، وقد لاتخالط غير زميلاتها ، وقل أن تسمو بغريزتها الجنسية إلى الأوج الذى تتطلبه مهنتها ، ولذا فلا مناص لها من كبت هذه القوة فى نفسها . وحينئذ تتوقف طاقتها الحيوية عن الانصراف فى أحد المجريين وتندفق فى مجرى واحد بقوة عظيمة ، ولذا فلا مندوحة

عن إظهار السيطرة على صورتها الهمجية ، واستعمال القسوة والشدة على أشدهما .

والتسامى بالغرائز عند الذكور المشتغلين بالصناعة أوبالوظائف الكتابية أيسر منه عند المرأة غير المتزوجة - من بعض الوجوه - وأعسر من وجوه أخرى . فهو أيسر لأن المهنة فى هذه الحال لاتتطلب من الرجل أن يحيا حياة فردية ، فله أن يعيش عيشة زوجية ، وهو فى الكثير من الأحيان رجل متزوج له أطفاله وله بيته . وكثير من الرجال يجدون مجالا لبذل نشاطهم الحيوى فى التغيير من العمل اليومى الممل إلى ملذات البيت وما فيه من تفريج عن الهموم . ويعطينا هنرى فورد فى كتابه « تاريخ حياتى » - وهو فى الواقع تاريخ حياة صناعة السيارات المعروفة باسمه- حقائق مدهشه عن موقف الصانع إزاء عمله الممل . يقول فورد إن أنصار الإصلاح الاجتماعى ومحبى الإنسانية ، فى صيحتهم فى وجه الملل القاتل الذى ينجم عن حياة المصانع ، إنما ينسبون إلى العامل بغضهم هم أنفسهم لمثل هذا الملل ، فهو (هنرى فورد) يرى من تجاربه الخاصة أن الأغلبية الساحقة من الناس تؤثر العمل الآلى المتشابه الذى لا يدعو إلى إعنات الفكر والابتكار على غيره من الأعمال ، ويذكر فورد أنه كان لديه فى مصنعه رجل ذكى توفر له المال ، ولكنه مع ذلك آثر أن يبقى فى عمله الآلى لايغيره ، وكان يكفيه من التغيير فى حياته بيته وشعوره بالقوة والأمن لما له من ثروة .

وربما كان فورد مخطئاً فيما وصل إليه من نتائج ، لأن عماله يتقاضون أجوراً مرتفعة ، ويساهمون فى العمل بسهوم مالية ، ولذا فالإنتاج والأرباح تهم كل فرد منهم ، وعلى ذلك فهم يختلفون جد الاختلاف عن غيرهم من العمال فى المصانع الأخرى ، فإن لهم متعة ولذة فيما يعملون حتى إن كان العمل فى ذاته غير شائق ، وهم يملكون المال وهو نوع من السلطة والنفوذ . ولكن الشركات العادية لا توفر لعمالها من أسباب الراحة مايتوفر لعمال فورد فلا يجدون مجالا للتنفيس عن غريزة السيطرة ، فتكثر بينهم الاضطرابات والقلاقل ، ويحبون الألعاب للتنفيس عن نشاطهم المكبوت ، ورغبة فى التفوق على غيرهم . كما أن بعضهم يحب قراءة القصص كى « يطابق » بين شخصية البطل وبين شخصه .

وكثير من الطبقة المتعلمة من الموظفين ومن إليهم يحبون قراءة القصص البوليسية ، وهى لهم بمثابة القصص الخيالية عند الأطفال ، لأنها تمدهم بسيطرة موهومة يجوز تحقيقها . ولا يحتاج الرجل إلى مجهود كبير كى يطابق بين نفسه وبين البطل كما يحتاج لو كان يقرأ قصصاً خيالية بحتة . وليست قراءة الروايات الخيالية من صور التسامى الرفيعة ، لأن الرجل الذى يقرأ القصة لمجرد المتعة إنما ينقل نفسه إلى عالم وهمى لاضرر منه ، ولكنه فى الواقع يفر من مواجهة الحقيقة . فالقصة والمسرح والسنما ماهى فى الواقع إلا وسائل مشروعة للتفريج عن النفس من نضال الحياة ، ولكنها لاتستر كل مابنا من

نقص . ولو عرفت أى الكتب يقرأ الرجل وأى الروايات السينمائية يحب عرفت الكثير مما يكبت فى نفسه .

وكما ذكرنا آنفاً قل من الناس من ينجح نجاحا تاما فى التسامى بحب السيطرة الغرزى ، أو كثيرون يفشلون فشلا ذريعاً . فالغيرة ، والظلم ، وبعض ألوان المرض الخفيف ، والمشاجرة ، وسرعة الغضب ، والقسوة — كلها مظاهر لعدم توافق الفرد مع بيئته .

وكثير من الناس يفرق بين الغيرة الجنسية وغيرها من ضروب الغيرة ، وينسبون الأولى إلى عدم توجيه الغريزة الجنسية توجيهاً صحيحاً ، كما ينسبون الثانية إلى قصور فى إعلاء غريزة السيطرة . ومهما يكن من شىء فالغيرة فى أساسها عاطفة تنشأ عن الوقوف فى سبيل بسط الرجل نفوذه وسلطته . وقل من الناس من يخلو منها . وهناك من يظن أن الغيرة الجنسية إن هى إلا حب الرجل إظهار رجولته ، والمرأة إظهار أنوثتها ، ولكننا ان تذكرنا أننا نشاطر هذه العاطفة مع الحيوانات الدنيا ، وأنها تسبب عدداً كبيراً من الجرائم بين الناس كما تسبب التنافر بين القلوب ، لم تعد لها قيمة فى أعين الناس . والغيبة والنميمة يرجعان فى الواقع إلى الغيرة ، لأننا نحاول أن نحط من شأن الفرد الذى نغتابه خشية أن يظن أحد أنه يعلونا بوجه ما . والغيرة فى المهنة هى الشعور الذى يدفع بنا إلى الضن بغيرنا أن ينجح فى عمل نحن به قائمون . ونحن نغير فى الصداقة وفى الحب ، لأننا كلما انفردنا بهما ظهر نفوذنا وسلطاننا . إن الرغبة فى

أن يكون الفرد هو خير الناس فى نظر رجل ما شائعة بين كثير من الناس ، ومعناها أننا نحب أن نتملك هذا الرجل كى نشبع غرائزنا على وجه من الوجوه .

والمظالم البسيطة ، والمنازعات الخفيفة ، وسرعة الغضب والهياج ماهى جميعاً إلا مظاهر غير محمودة للغريزة قبل التسامى . فنحن فى بيوتنا قد نهب فى غيرنا لأمر تافة زعماً منا بأن التوانى تنطوى على مبادىء هامة ، ولكن الدافع إلى ذلك هو فى الواقع رغبتنا فى بسط إرادتنا على غيرنا لمجرد السيطرة . وفى أثناء الحماسة والحرارة يمدنا الشعور بسبب معقول للنزاع لأننا لانحب أن نعترف لأنفسنا بأننا إنما نتشاجر لإثبات شخصيتنا ، وبعد ساعة أو بعض ساعة — وربما كان ذلك بعد أذى كبير وضرر بليغ — لايسعنا إلا أن ندهش لسلوكنا . وهذه هى الحال عند ما تتقابل أمتان من الأمم المتمدنة فى حرب من الحروب ، فإن الدولة التى تعلن الحرب ليس لديها سوى داع واحد حق وهو حب السيطرة . والآن بعد نحو ثلاثين عاما لو رجعنا بأبصارنا إلى أسباب الحرب الكبرى أدركنا مطامع الدول ، وأنكرنا السبب المباشر وهو الاغتيال الذى وقع فى الصرب .

وتنشأ هبات الغضب عادة من الوقوف فى سبيل إحساس الفرد بقوته ، فقد يحدث له ما يدعوه إلى الإحساس بالنقص ، فيقرر شخصيته على حساب أول فرد يلاقى ويستطيع أن يهدده دون أن يصيبه بأذى . وكثير من نكاتنا ومن المواقف المضحكة فى المسرحيات

أو فى القصص الخيالية تدور حول هذه الحقيقة النفسية . فالرجل الذى يعود إلى بيته بعد عمل يوم لم يرضه كل الرضا ، يهب فى وجه زوجه وأطفاله وخدمه ، والموظف الكبير الذى يتمتع بنفوذ وسلطان ، يبيت بعد إحالته على المعاش ولا نفوذ له ولا قوة ، فيصبح سريع الغضب والتهيج ، وقد يبغض الزوج حماته لأنها تحب أن يمتد نفوذها إلى ابنتها حتى بعد زواجها وخضوعها لزوجها . وجندى الشرطة فى الريف مكروه لأنه يستطيع أن يسوق الفلاحين إلى السجن بتهمة العدوان والإساءة إلى النظام ، فيحاول الفلاحون أن يظهروا مساواتهم له بالسخرية منه .

ومن الضروب السخيفة للتسامى بغريزة السيطرة بين النساء ادعاء المرض أو المبالغة فيه . وكثير من النساء ـ وعدد غير قليل من الرجال ـ يتمارضون لأنهم يرون فى المرض وسيلة لاكتساب عطف أهليهم وتنفيذ إرادتهم بعد ذلك .

وكثير من الأمراض المستعصية التى يحار فيها الطبيب ، ما هى فى الواقع إلا حيلة من اللاشعور يتخذها كى يجذب إليه النظر . ومن المعروف أن للعقل تأثيراً قوياً على الجسم ، تأثيراً يكفى لأن يظهر فى الجسم فعلا أعراض المرض . وكثير من السيدات يزعمن ضعف الصحة كى يظفرن بعطف الآخرين وخدمتهم . والإنسان عادة لا يكفيه أن يخدع نفسه ويخدع غيره بأنه « متوعك » فحسب ، بل إنه ليحب أن تظهر عليه أعراض معينة ملحوظة . وكثير من أسباب

السعال والبرد وسوء الهضم وما إليها إنما يرجع إلى أن المريض لم ينفس عن غريزة السيطرة تنفيساً كافياً . وفى كثير من الأحيان لا تكتفى المريضة بأن تظفر بالعطف والانتباه ، بل ربما كان زوجها متشاغلا عنها بعمله الخاص فتريده على أن يهمل عمله بعض الشى. كى يوليها عنايته ، وربما كان أطفالها يتأهبون للرحيل فتتحايل عليهم بالمرض كى يعدلوا عن السفر . وقد تحاول المرأة مغالبة المرض شعورياً ، ولكن كلما اشتدت المقاومة اشتد النزاع فى العقل الباطن، وقد ينفد النشاط كله فى هذا النزاع فتشتد وطأة المرض . بل لقد يدرك العقل الباطل أن مغالبة المرض أدعى لكسب العطف والعناية من المرض عينه . ومن العسير على المريض أن يعتقد أن مرضه من أثر الإيحاء الذاتى ، فإذا كان مصاباً بسعال أو صداع ظاهر لا يسعه إلا أن يرفض هذه التهمة ـ تهمة الادعاء ـ التى تصمه بسوء التصرف. وقد تشتد هذه الحال حتى يفقد المريض سلطانه على نفسه ويصاب بالحبوط العصبي الذى يحتاج إلى العلاج النفسى .

وليس المرض هو السلاح الوحيد الذى يمكننا من بسط نفوذنا على من نحب ، وإنما نحن نستطيع ذلك بأقل من هذا جهداً ومشقة ، وذلك بأن نصيب غيرنا بالعجز وأن نجعل حياتهم متوقفة علينا ، وأوضح مثال لذلك ما نجده فى العلاقة بين الأم وولدها ، ولكنها كذلك ذائعة بين الزوج وزوجه وبين الأصدقاء ، فالأم تسعى لإطالة مدة طفولة ابنها ، وهى تحب أن تظفر بقلبه ولذا تراها تؤدى

له خدماته جميعاً ، فهى تقدم له المأكل والملبس وتعنى بنظافته وأدواته وترضعه وتمرضه وتداعبه طيلة اليوم دون أن ينافسها فى ذلك أحد حتى لا ينصرف ابنها عنها بقلبه . والطفل من ناحيته قد لايحب رفقة صغار الأطفال لأنهم لايفسحون المجال لأنانيته أن تظهر ، وقد يتمارض كى يفر من المدرسة ويبقى بالمنزل .

وليس منا من لم يصادف ذلك الصنف من الأطفال الذين فسدتهم أمهاتهم بشدة حبهن لهم . أعرف طالباً فى مدرسة ثانوية أيكره المدرسة ويسميها « السجن » ، ولا يحب أن يرافق أحداً سوى أمه ، وهو يلازمها أيام العطلة حيث يكون فى أسعد أوقاته . وهو - رغم أنه فى الخامسة عشرة من عمره - يحب أن تعاونه أمه فى كل شىء ، فى ملبسه وفى إعداد فراشه ، وحتى فى استحمامه . وهذا النوع أكثر ذيوعا بين البنات منه بين البنين لأن الرأى العام قد يقر هذا السلوك من البنت ولكنه لا يقره من الولد .

وكل مظهر من مظاهر حب القوة يلاقى معارضة الجمهور . فالشعب يثور فى وجه من يريد أن يبسط سلطانه بغير مبرر . وينعكس الرأى العام فى حكم الرجل على نفسه ، ونقده لذاته ، فهو إلى حد ما يرى نفسه بأعين الجمهور ، ويحب أن يؤدى ما ينتظر منه . وإن كان يريد إشباع رغباته ويبقى على احترامه لنفسه فى آن واحد فلامناص من أن يخدع نفسه إلى حد ما ، وهو يفعل ذلك بايجاد سبب معقول تقبله النفس . إنه يدرك أنه حين يبسط نفوذه على المجتمع

يثير ضده الشعور العام ، ولذا فهو يحاول أن يبسط السلطان لا لإرضاء نفسه ولكن للصالح العام . وهكذا ينشأ المصلحون من محبي الخير للإنسانية .

وقد أشرنا من قبل إلى حب الإنسانية . وهذا الحب إما تسام تام وإما « تبرير (١) » أعمى . فهو تسام لدى الرجل الغيرى ، ولكن

---

(١) « التبرير » Rationalisation ظاهرة نفسية خلاصتها أن العواطف التى تثيرها العقد المكبوتة ليس لها سبب معقول فى العقل الواعى ؛ فقد تكره مثلا جارك زيداً كرها عنيفاً ، وقد لا يكون لديك مبرر لهذا المقت الشديد ، ولكنك قد تسمع مصادفة إنه عامل صديقك عمرواً معاملة جافة نوعا ، فتميل إلى جانب عمرو بحماسة تدهش لها أنت نفسك أشد الدهش ، ثم تجد فى هذا سبباً قوياً لكراهيتك لزيد ، فإما أنك لاتلاحظ أن انتصارك لعمرو « يتبع » كراهيتك لزيد كراهية لا مبرر لها ، أو انك تعلل هذا التناقض بقولك إنك كنت تعلم بالغريزة أن زيداً شخصية غير محبوبة ؛ وهذه العملية العقلية ، عملية إيجاد سبب معقول لعاطفة غير معقولة ظاهراً هى « التبرير » . ولو استطعت أن تطالع عقلك الباطن فقد تكتشف أن صوت زيد يذكرك بصوت معلم لك كنت تكرهه لسبب معقول ، ولكنك نسيته كل النسيان .

وإليك مثال آخر : رجل أخنى عليه الدهر ، تضطره حاله المادية أن يلجأ فى علاجه إلى المستشفيات المجانية حيث يقف طويلا فى وسط لا يرتاح ولا يطمئن إليه ، فإذا ما أتاه الطبيب انفجر بالشكوى =

الغيرى قل أن وجد حتى اليوم ، ولذا فهو شاذ لا ينطبق على القاعدة العامة ـ فالزاهد شاذ من حيث إنكاره لذاته . وهو تبرير لدى الأنانى الذى يعتقد أن السلطة والملق وإعجاب الجماهير وثناء الصحف هى أعز مايشترى بالمال ، وهذا الرجل شاذ كذلك . أما الرجل المتوسط الذى يفكر فى مصلحة الآخرين تفكيراً جدياً بتقديم خدماته الشخصية ، فالأنانية والغيرية يشتبكان لديه ، ولا يمكن أن تخلص حب النفس من حب الإنسانية عنده ، ومهما تم العمل فى الخفاء ، ومهما يكن من قلة تقدير الجمهور له ، فسيبقى له على الأقل رضا نفسه عن نفسه ، ومن الناس من رضا النفس لديه أهم من رضى

= انفجاراً عنيفاً ، وشكا سوء المعاملة والشدة التى يعامل بها الممرضات ، الفقراء من الناس والأطفال ، والواقفين بباب المستشفى. فيرتاب الطبيب فى الباعث على هذه العاطفة الحادة ، وهو يعلم من تجاربه أن مرضاه يعاملون بالحسنى ، فيشك ويستنتج أن عقدة الفقر عند هذا الرجل قد أثارها اهدار الكرامة بقبوله الإحسان فى معالجته، وبقاؤه شخصياً ينتظر طويلا وهو غير مطمئن . نعم قد يثور الإنسان لكرامة غيره فى أمر سياسى أو اجتماعى ، أو يحتد لما يلاقى غيره من مشاق ، ولكنا حين نجد أن أمراً معينا ، ظاهره غير شخصى ، يثير فينا دائماً الميل إلى الجدل بحرارة وبشدة، ويهيج عواطفنا ، فمن الخير أن ننظر ونتبين أى روابط شخصية تصل ما بيننا وبين هذا الموضوع .

الآخرين . ونحن نكرر ثانية أن الشخص الذى يتصف بالاتزان العقلى هو ذلك الذى يدرك ويواجه مايشوب دوافعه الباطنية الخفية . والرجل الذى يحب الإنسانية مخدوع أن ظن أنه لايحب إلى جانبها نفسه ، والرجل الذى يقول : « إنما أنا أخدم لوجه الله ، لا أرجو جزاء ولا شكورا ، وأنا أفنى فى مصلحة الآخرين . وأنا لاأطمع فى الشرف والألقاب ، إنما يخدعه عقله الباطن ، وهو إنما يحاول أن يبرر مايعمل .

ويسود هذا الضرب من التبرير أثناء الحروب ، فكل فرد حتى من لايخرج إلى ميدان القتال ، ذكوراً واناثا ، والشركات وما إليها ، تظن أنها إنما تعمل لمصلحة الأمة ، ولا يحسب منهم أحد أنه إنما يعمل للذته وفائدته . ولدينا مثال من هذه الظاهرة فى الثورة المصرية الأخيرة ، فإن كثيراً من الشخصيات البارزة فيها كانت وما تزال تظن أنها إنما تسعى للمصلحة العامة ، وهم لايخلون من المصلحة الذاتية فكثير ممن لم يكن لهم نفوذ أو سلطان حصلوا عليه ووجدوا سبيلا للتنفيس عن غرائزهم وحيويتهم ، وقد أفادت الأمة من كثير منهم ، ولكن كثيراً غيرهم ثمل بالسلطة وانصرف إلى نفسه . وقد أخرجت الحرب العظمى المرأة إلى ميدان العمل فعرفت لذة النفوذ ، ولما انقضت الحرب لم تقبل المرأة أن تعود إلى ما كانت عليه ، وبقيت تناضله فى سبيل حريتها .

ومن الأنواع الأخرى الذائعة لتبرير حب السلطة الاعتذار

« بالكفاءة » ، فكثيراً ما تسمع أن رئيساً ما لا يحب أن يعطى لمرءوسيه ولو قليلا من النفوذ ، ظنا منه أنه وحده كفء للعمل ، وأن غيره لا يحب العمل، ولذا فمن واجبه أن يؤديه جميعاً . كما تسمع كثيراً ممن يشكو كثرة العمل ، وهو - مع ذلك - لا يتنازل عنه خشية منه أن يفسده الآخرون . ومن الحكم الذائعة هذا المثل « ما حك جلدك مثل ظفرك ، فتول أنت جميع أمرك » وهو يؤيد هذا النوع من التبرير الذى ذكرنا ، كما أن مثل هذا القول « لا أنا فى العير ولا فى النفير » يساعد على الفت من حدة هذه الرغبة .

ومن المظاهر البغيضة لغريزة السيطرة التى تجد من أربابها تبريراً قوياً ، القسوة على الأطفال وعلى من هم دوننا . فالمعلم القاسى يبرر قسوته بأنه إنما يسعى لصالح الطفل ، ومثل هذا البيت :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً فليقس أحياناً على من يرحم

وهذا البيت :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

إنما هو دليل على حب القسوة والوحشية فى المعاملة . وهناك وسائل أخرى كثيرة غير العقوبة البدنية يستطيع بها القوى تعذيب الضعيف . فكلنا يعرف ذلك الوالد الذى يعلم من أى الكلام يخجل ابنه ، فيستخدم نفوذه لكى يسىء إلى نفسية الولد . وكثيراً ماتنسب « السادزم » (١) (أو حب الشر للغير) إلى الأشرار من الناس

(١) « السادزم » Sadism اصطلاح فنى معناه لذة إيقاع الألم =

وحدهم ، ولكنها فى الواقع تصيب كلا منا بمقدار .

ولقد حاولت فى الصفحات السابقة أن أعالج المظاهر الأساسية لغريزة السيطرة ، وقد عالجتها كأنها منفصلة عن الغريزة الجنسية ، ولكنها فى الواقع وجه آخر من وجوهها ؛ ولكن الدكتور آدلر يؤيد نظريته — وهى أن اعتراض الشعور بالنقص لتدفق حب السيطرة هو أساس أعمال الإنسان جميعاً — ويسوق الأمثلة المتنوعة حتى أن قارئه ليخيل له أنه وحده قد عثر على مفتاح اللاشعور . كما أن فرويد من ناحية أخرى يسوق الأمثلة ويؤيدها بالبرهان والدليل أن الغريزة الجنسية هى وحدها الحافز لنا فى أعمالنا جميعاً . والواقع على أن آدلر يقول إن الغريزة الجنسية مظهر من مظاهر غريزة السيطرة ، بينما يقول فرويد إن حب السلطان ماهو إلا فرع من فروع الغريزة

= بالآخرين ، أو مشاهد توقيع الألم على غيرك من الناس . فإن نيرون حينما كان يحرق بلده وينظر إلى ذلك بعين السرور إنما كان يعبر بصورة قوية عن نفسية تنتاب الكثير من الناس ، ولا ينكر أحد أن كثيراً منا يلذ له بعض الشىء أن يرى منزلا يتهدم أو اثنين يتشاجران .

« والماسوشزم » Masochism نقيض « السادزم » ، ومعناه حب تعذيب النفس والتمتع بالآلام العقلية والبدنية . ومن هذا الصوم وما يفعله فقراء الهنود ، والتقشف والزهد .

والماسوشزم والسادزم كلاهما فى نظر علماء النفس دليل على انصراف الغريزة الجنسية إلى غير موضعها الطبيعى .

الجنسية . وقد تصلح الأمثلة التى يسوقها أحدهما مع قليل جداً من التحوير للبرهان على نظرية الآخر .

ولذلك فإن كثيراً من الأمثلة التى ذكرنا فيما سبق تصلح دليلا على قوة إحدى الغريزتين . وفى الفصل التالى عن الغريزة الجنسية لايمكننا أن نغض الطرف عن غريزة السيطرة . ولا نستطيع من الوجهة العملية أن نفصل أحد الدافعين عن الآخر ، وإن كنا لسهولة الدرس نوجه الانتباه حيناً لهذا وحيناً لذاك .

الغريزة الجنسية

أول ماينبغى معرفته فى هذا الباب هو تعريف هذه الغريزة فى نظر علماء التحليل النفسى، لأن استعمالهم لهذا الاصطلاح يختلف عن استعمال العامة له اختلافا كبيراً .

إننا تعودنا حينما نفكر فى الجنس أن ننظر إلى مجرد العلاقة بين الذكر والأنثى اللذين يرميان إلى تخليد النوع ، وما يستتبع هذه العلاقة من عواطف ومشاعر ، ولكن — كما أن حب السيطرة له معنى فى علم النفس أوسع من المعنى الذائع بكثير ، فكذلك « الغريزه الجنسية » عند عالم التحليل النفسى تتسع لأسباب ونتائج أبعد مدى مما يفهم منها الرجل العادى .

ويظهر أن فرويد ويونج فى بحوثهما فى سلوك الإنسان وبخاصة فى أسباب النورستانيا قد بدآ بتعريف الطاقة الجنسية — أو النشاط الجنسى — على معناها الضيق ، ولكنهما سرعان ما توسعا فى مدى التعريف حتى شمل كل مظاهر الحب والعطف والجاذبية التى يعرفها الجنس البشرى . ولذا فنحن اليوم نفهم من الطاقة الجنسية السبب الأساسى لكل ميل من الفرد نحو شىء معين . فاللذه الفائقة التى يحس بها المرء عند رؤية الجبال المعممة بالثلوج ، ومنظر الزهور فى الحقول ، والقمر يفضض الماء ، والموسيقى ، والشعر ، والتصوير —

و ما تشعر من حب حار نحو أخيك وزميلك فى المدرسة ، وخادمك وكلبك — وحب الأم لولدها ، وحب الولد لأمه — وإعجاب الفتاة بجمال جسمها - واهتمام الطفل بلعبته الجديدة - وشعور النحات نحو الحجر ، وإخلاص الزاهد لله - هذه المظاهر كلها هى تدفق الطاقة الجنسية ، وليست أقل من حب الرجل للمرأة من حيث القيمة النفسية .

وقد شرح علماء تحليل النفس وجهة نظرهم عن هذه الطاقة للجمهور فيما مضى ، فثار الناس فى وجوههم ، واستاءوا لما سمعوا . وكان الموضوع لما يزل غامضاً ، والعلماء يتخبطون فيه ، كما كانوا يعالجون ضنوفاً وضيعة دنسة من الناس ، وكان يعوزهم التعبير العلمى الصحيح ، فظن الجمهور أنهم يقصدون أن أعلى العواطف الإنسانية وأسماها ماهى إلا مظاهر للشهوة الجنسية والنشاط الجنسى انصرفت فى هذا السبيل محجوبة تحت ستار . ونحن نحتاج إلى أمد طويل حتى نصلح هذا الخطأ فى أذهان الجمهور .

ولعل تحريمنا البحث فى الشئون الجنسية نفسه ، واعتبارنا أن مناقشتها أمر غير خلق ، ودليل على كبت الدوافع الجنسية . ونحن نعلم مما سبق أن الدور الذى يلعبه الجنس فى اللاشعور أهم من الدور الذى يلعبه فى الشعور . ومن العجيب أن يثور العامة إذا تكلمنا عن الغريزة الجنسية من الوجهة النفسية ، ولا يثورون إن نحن تحدثنا عنها من حيث وظائف الأعضاء أو العمل البيولوجى .

والرسوم التى وضعناها من قبل لبيان تدفق تيار الطاقة الحيوية

تلقى بعض الضوء على هذا الموضوع المعقد . فالطاقة الحيوية ، أو قوة الحياة ، أو قوة الروح القدس (كما يسميها المسيحيون) ، تظهر فى المخلوقات جميعاً فى كل مكان . وهى تبدو فى مملكة الحيوان على الأقل فى صورة غريزتى السيطرة والجنس . وهاتان الغريزتان لدى الحيوانات الدنيا لا تجدان لهما منصرفاً إلا من الناحية الجثمانية ، فالسيطرة هنا معناها بقاء الحيوان الأقوى ، والحب هو الدافع الجنسى نحو الجنس الآخر ونحو الصغار . وإذا ما صعدنا فى سلم التطور والارتقاء بلغنا الإنسان ، حيث لا يجرى تيار الطاقة الحيوية فى مجرى ضيق ضحل ، وهو المجرى الجثمانى . وحتى عند الانسان البدائى ترى أن فروعاً من المعرفة والتجارب تساعد على اتساع المجرى العام ، فيعمق ويتسع . وإذا ما بلغنا مرتبة الزاهد أو العبقرى وجدنا أن الطاقة قد باتت تياراً واسعاً قوياً يكاد لا يبلغ مداه البصر ، وما أشبهه حينئذ بالنهر الطبيعى الذى يغمر فى مجراه الأدنى بفروعه الكثيرة مساحة واسعة ، ويكون عاملا قوياً من عوامل التحات : فكذلك تيار الطاقة الحيوية الذى تغذيه التجارب ، فيتسع ويقوى حتى يؤثر فى الحياة التى يتدفق خلالها ، فلا تعود القوة هى المقدرة على التخريب ، ولا يعود الحب قاصراً على اللذة الجنسية الجثمانية ، لأن التخريب والشهوة البهيمية البحتة لا تخلب لب الرجل المتطور . ومع ذلك ، فكما أن المياه التى تكون الجداول على جوانب الجبل لا تختلف نوعاً عن مياه النهر الكبير ، فكذلك الطاقة الحيوية التى تدفع

الحيوانات إلى اللقاح والتناسل هى بعينها التى تدفع الأبطال إلى الموت فى سبيل الإنسانية .

والغريزة الجنسية فى كل مظاهرها ترتبط ارتباطاً قوياً بقوة الإبداع والخلق ، وهى ناقصة غير تامة مالم تنته بخلق شىء جديد . ومن الضرورى للإنسان كى تطمئن نفسه أن يوحد - بطريقة ما - بينه وبين الطاقة الحيوية المتدفقة ، وأن يؤدى هذا التوحيد إلى الإبداع فى النهاية . وعلى ذلك فاللذة التى يستمدها المرء من التأمل فى المناظر الخلابة الجميلة لا تبلغ منتهاها إلا إن استطاع الرائى أن يمثلها أو يحولها إلى صورة أخرى. ويعرف الفنان كيف يحول اللذة إلى قصيدة أو صورة أو قطعة من الموسيقى ، كما يستطيع رجال الدين أن يقاربوا بين نفوسهم وبين الله . هؤلاء الناس وأمثالهم يفهمون كيف يرتفعون بالإحساس بالجمال إلى ذروة النشوة والسعادة . أما أولئك الذين لايفهمون ذلك فقد يكون التأمل فى الجمال لديهم مصدراً من مصادر الألم ، لأنهم لايستطيعون تحويل الجمال إلى صورة فنية من خلقهم . هذا الألم يقوم على شعور بالخيبة غامض أليم . وقل منا ممن يحسون بجمال الطبيعة من لم يشعر بهذه الخيبة يوماً من الأيام . وفى هذا التعبير : « إنه لجمال مرعب » ما يدل على ذلك . والصداقة لن تتم حتى تجد منفذاً للإبداع والخلق . بل إن العلاقة بين الانسان والحيوانات الأليفة لتخضع لهذا القانون عينه ، ولا تقوى إلا إن كان للحيوان نفع مادى محسوس ، فشعور الراعى أو الصائد نحو

كلبه أعمق وأصح من شعورنا ، لأنه يرتبط فى عمله بهذا الحيوان . ولن يستطيع الرجل أن يؤدى عمله بغير معونة الحيوان .

وينبغى لنا حين ندرس ميول الأطفال والمراهقين أن نلاحظ إلى أى حد ، وفى أى اتجاه تعبر الغريزة الجنسية عن نفسها ، فهى من ناحيتها الجثمانية تختلف باختلاف الأفراد . ويتبين هذا حتى عند الأطفال ، فكثير منهم يدركون هذه الغريزة حتى قبل أن يتعلموا الكلام والمشى ، وبعضهم لايدركها إلا بعد ثلاث سنوات أوأربع ، ثم يفقدها كلما تقدمت به السن ، وهى عند بعضهم الآخر قوية ملحة من عهد الطفولة إلى ما بعدها . وكثيراً ما تظهر هذه الغزيرة حيناً ثم تختفى حيناً آخر ، ولم يبحث هذا الموضوع حتى اليوم بحثاً كافياً حتى نعلم إن كانت هذه الاختلافات ترجع إلى أثر البيئة ، أم هى من طبيعة الأفراد . ولكن لا شك أن هذه الاختلافات موجودة يدركها كل من يشتغل بالتربية .

ويرى بعض المربين فى العصر الحديث ضرورة تعليم الأطفال فى جميع المراحل شيئاً عن هذه الغريزة ، ولكن قل من يدرك المشقة والصعوبة التى يلاقيها المعلم عند تلقين الطفل علماً لايأبه له البتة . ويقال إن التشوق إلى المعرفة الجنسية ذائع بين الأطفال جميعا ، ولكن هذه مسألة ما تزال مجالا للشك . وإن كان الطفل لايهتم بهذا النوع من المعرفة فقد يكون العلم إذن عملا غير مفهوم له ، ولذا فمن المحتمل أن ينسى كل ما يسمع بعد فترة وجيزة . ومن ناحية أخرى

إننا لو حبسنا تلقين هذه المعارف عمن يتشوقون إليها فإننا قد نصيبهم بالقلق النفسى . ولا شك أن هذه المعرفة ضرورية لكثير من الأطفال كى يصحوا عقلا وبدنا . فيتحتم أن نشرح لهم الوظائف الجنسية شرحا وافيا فى سن باكرة . ولا يكفى أن نعلمهم بطريقة غامضة عامة « من أين يأتى الصغار » ، وإنما يجب أن يفهموا - على قدر ما نستطيع من الدقة - وظيفة الأب وطريقة الولادة . لأن هناك كثيراً من الأطفال الذين وصل إليهم العلم غامضاً ، والذين يفكرون كثيرا فى هذا الموضوع ، قد قامت فى أذهانهم أوهام عجيبة ، منها أن بعضهم يظن أن الأطفال تخرج من الأفواه ، ومنهم من يظن أنهم يخرجون من البطون أو الأدبار . هذه الأوهام غير مرغوب فيها . أولا لأنها لا تكفى لإقناع الطفل ، ولذا فعقله يظل دائما مضطربا قلقا ، وثانيا لأنها تركز انتباه الطفل إلى أجزاء خاصة من الجسم فتتولد لديه عادات خبيثة قد يكون أقلها خطراً وضع الأصابع فى الأفواه .

وهذه العادة الأخيرة ذائعة بين الأطفال ، وتقتضى منا بعض التفكير . إن الطفل الذى يمتص أقلام الرصاص ويمضغها كما يمتص منديله أو إبهامه أو سبابته إنما يستعمل هذه الأشياء عوضا عن أطراف الأثداء ؛ إنه فى الواقع يعود لاشعوريا الى مرحلة الطفولة الأولى ، ولا يقبل أن يواجه الحرمان من الرضاعة والعناية التى كان يلقاها من أمه . وما ذلك الا مثل آخر من عدم الرغبة فى تقدم

السن الذى أشرنا اليه فى الفصول السابقة . ولكن - بغض النظر عن هذه العادة ، عادة الامتصاص - فإن كثيراً من الأطفال يميلون إلى وضع كل ما يصادفهم فى أفواههم . بل إن بعضهم ليحاول فى فترات شرود الذهن أن يضع يده كاملة حتى الحلق . وقد رأى علماء النفس أخيراً أن هذه المحاولات جميعاً - الامتصاص والمضغ وما إليها - إنما ترتبط ارتباطا لاشعوريا بأوهام الجنس وغريزة السيطرة . وينبغى لنا ، حين نلاحظ هذه الظاهرة عند الأطفال ، أن نتعرف إن كان الطفل يكبت فى نفسه تشوقا إلى المعرفة الجنسية .

ولكنا لا ينبغى أن نوجه إليه أسئلة مباشرة ، أو نمده بعلم لم يوجه إلينا سؤالا فيه ، فهاتان الطريقتان كلاهما قد تدفعان الطفل إلى عدم الصراحة . هناك طرق متعددة غير مباشرة نستطيع بها أن نجعل الطفل يشعر أن أمثال هذه الموضوعات ليست مما لا يصح التحدث فيه . فإن عرف ذلك انطلق بالسؤال يطلب العلم والمعرفة . والطفل الذى يتشوق إلى المعرفة كثيراً ما يبدى هذه الرغبة بعبارات صريحة مؤكدة يتحدى بها الكبار ، فلو تجاهلنا قوله كرره مرة بعد أخرى ، وقد يبدو عليه شىء من الغضب والتهيج ، ولذا فلو سمعت طفلا يقول « أنا أعلم من أين يأتى الأطفال ، لقد هبطت إلينا بهم الملائكة » فاعلم أنه إنما يطلب العلم ، فإذا لم تشبع فيه هذه الرغبة ، أخذ يبالغ فى أوهامه ، فيقول مثلا « لقد رأيت الملك بعينى رأسى حين هبط بالطفل وقال لى ، هذا أخوك ، ثم انصرف » . يشعر الطفل

أنه إذا ما دأب على اختراع أمثال هذه الأقاويل التى يدرك بطلانها فقد يأتى يوم يقبل فيه واحد ممن يكبرونه التحدى ، فيراجعه القول ، ويكشف له عن الحقيقة .

أما فى حالة الطفل الذى يشعر شعورا قوياً بالغريزة الجنسية ، فإن « العلم قوة » لمثله بالمعنى الحرفى لهذا القول ، فإننا إن لم نطفىء تشوقه هذا ، انصرفت غريزته الجنسية ، كما تنصرف غريزة السيطرة لديه ، إلى وجهة غير محمودة ، وسلك للتعويض سبلا شتى ، السرقة من أكثرها ذيوعاً . فلقد أثبت علماء النفس الذين تخصصوا فى دراسة الشواذ من الأطفال أن السرقات الطفيفة عند الأطفال ترجع فى معظم الأحيان إلى «تروما» (١) جنسية من نوع ما . ومن العسير جداً إقناع عامة الناس بهذا الرأى . فليس من المعقول البتة للرجل العادى

---

(١) « التروما » Trauma حال غير صحية تنجم عن هزة جثمانية أو عقلية . ومن أمثلتها أن فتاة فشل تعليمها لأنها كانت تقع فريسة للمرض كلما حل موعد عودة الدراسة ، وقد فشل الأطباء فى علاجها ، ولكنها لما عرضت على الطبيب النفسى ، استخرج الطبيب من عقلها الباطن أنها حينما ذهبت أول ماذهبت إلى روضة الأطفال صحبت أخاً لها فى مدرسة الطب إلى حجرة كان بها هيكل عظمى مروع المنظر ، فوقعت منه فى مرض عضال وقد كبت هذا الحادث ثم نسى ، وبقيت الرابطة بين المدرسة والمرض ، ونشأت عنها ماروينا من نتائج . ولم يكد الطبيب النفسى يكشف عن هذه الحقيقة حتى زالت الأعراض . ومثل هذا الكبت الشامل كثير الحدوث

أن سرقة الأطفال ترجع إلى نقص فى معرفتهم الجنسية أو خطأ فيها، ولكن علماء النفس يقولون إن الغريزة الجنسية قوة ، والامتلاك كذلك قوة ، فمن المنطق السديد أن يحصل الطفل على القوة والسلطان بصورة غير مشروعة إن حرم الحصول عليهما بصورة أخرى ، ولكن منطق اللاشعور أيسر وأبسط وأكثر صراحة من منطق الشعور ، فنحن لاننقد أنفسنا لاشعوريا ، ولانحس بالخطأ فى أعمالنا ، ولانرى أن تعويض المعرفة الناقصة فى ناحية ، بسرقة المال مثلا عبث غير معقول . فالمال والمعرفة كلاهما رمزان للقوة ، ولذا فمن الجائز استبدال أحدهما بالآخر .

هذا المرض النفسى — مرض السرقة Kleptomania — كثيراً مايتعسر اكتشافه ، لأننا حين نحول الكشف عن السارق غالباً ما نفكر حين التحقيق فى الدوافع المعقولة ، أو فى تاريخ الشخص وفى سلوكه . ولكن هذا النوع من السرقة الذى ألمعنا إليه كثيراً ما يقع بغير دافع ظاهر ، فقد يسرق الطفل المال وهو يملك منه الكثير ، وقد يسرقه ثم يرميه ، وقد يسرق أشياء لافائدة له البتة منها . وهناك ظاهرة أخرى عجيبة تبدو فى أحوال كثيرة ، وذلك أن العمل الذى يدفع إليه اللاشعور يبقى مجهولا ولا يخرج العلم به إلى حيز الشعور ، أى أن الآثم لايدرك إثمه ، ولذا فهولا يعترف بخطئه، أى أن الفرد يرتكب جريمة السرقة وهوفى حال عقلية أشبه ماتكون بحال النائم الذى يهب من سباته ويقوم ببعض الأعمال دون إدراك.

وكلنا عرضة لمثل هذه الحال على صورة ما ، فنحن قد نؤدى عملا عاديا ، كالنهوض ودق الجرس ، أو إضاءة المصباح الكهربائى ، أو إغلاق الباب ، ثم ننسى بعد دقيقة أو دقيقتين إن كنا قد فعلنا ذلك أو لم نفعل ، لأن العقل الواعى لم يتنبه إلى العمل ، إذ أنه عمل عادى لايفكر فيه . ومرض السرقة هذا قد لا يمس العقل الواعى ، لأن الدافع إلى السرقة صراع قائم كله فى اللاشعور ، ولأن العقل الواعى يرفض النظر إليه . ومهما يكن من شىء ، فلاشك أن « الامنزيا » التامة ظاهرة شديدة الإرتباط بأمثال هذه السرقات التى لاتدفع إليها الضرورة .

ولكى نتحاشى أمثال هذه الأعراض ينبغى أن نشدد الرقابة على الأطفال الذين تبدو عليهم أمارات الرغبة فى المعرفة الجنسية ، وأن نعمل على إطفاء التشوق إلى المعرفة لديهم بطريقة ما . ولايتصور القارىء أن الاهتمام بهذه الأمور فى سن باكرة ظاهرة يؤسف لها ، إنما يتعلق الأمر بمزاج الطفل ، فهناك من البنات من يملن صراحة إلى صحبة الأولاد ، ولا يجدن لذة فى رفقة البنات من جنسهن ، وما يقال عن البنات يصدق على الأولاد . وهناك من البنات من يجدن لذة فائقة فى كل مايتعلق بالأمومة ، فإن بدت هذه الرغبة ، علمنا أن هناك تشوقا إلى المعرفة والفهم ، ووجب علينا إطفاء هذا التشوق . ومن الغباء ألا ندرك أن البنت التى تحب اللعب بالدمى حباً جماً تتشوق إلى معرفة مأتى الأطفال ، فإن كانت لا تتشوق إلى

ذلك جازلنا أن نشك فى صحة عقلها .

ولا ينكر أحد فى العصر الحاضر أن الطفل قد تصيبه صدمة فجائية فيما يتعلق بالأمور الجنسية ، ولكن قل من الناس من يعرف كيف أن حادثاً بسيطاً قد يكون شديد الوقع على الطفل ، وليس من الضرورى أن يكون الحادث ثورياً أو غير عادى . والصدمة كثيراً ما تنجم عن معرفة مفاجئة ، أو الارتياب فى حقيقة ما . وبعض الأطفال أشد من غيرهم تأثرا فى ذلك ؛ ولذا فإن صورة أو تمثالا لجسم عار أو منظر الأم ترضع وليدها ، أو حيواناً أليفاً حاملا ، قد تسبب اضطراباً عاطفياً قوياً ، لأن الطفل لايفهم الأمر فهماً صحيحاً ، بينما قد يقع بصره على مشهد دنس بذىء حقاً فيمر به دون التفات لأنه لا يدرك البتة خطره . وكل مسألة ـ أية كانت ـ يسكت عنها الوالدان وكبار الأخوة سكوتا تاماً ، أو يتحاشون التحدث فيها ، تترك أثراً سيئاً فى الطفل ، لأنه يعلم أن أمه لاتسكت عن شىء ولا تتحدث فيه إلا إن كان مزعجاً مخيفاً . وخطر العلم الناقص عن الشئون الجنسية ومولد الأطفال أشد خطراً من أى موضوع آخر لسببين ، أولهما أن البنت التى تحس بغريزة الأمومة إحساساً قوياً قد يقوم فى عقلها الباطن صراع لا ضرورة له بين الرغبة فى إيجاد أطفال لها والخوف من الميلاد . وثانيهما أن عدداً لاحصر له من صغار الفتيات يقعن فريسة لعذاب عقلى من أجل ذلك . وتقول فتاة كاتبة وهى Dame Ethel Smythe فى اعترافاتها

إنها قبلت مرة شابا فقضت عدة أشهر بعد الحادث فى فزع ورعب من هذه الجريمة خشية أن تلد طفلا حراما . وبعد عدة سنوات ، زادت تجاربها وعادت تضحك من نفسها على تلك المخاوف ، ولكنها تقول إن صحتها أيام ارتكاب الإثم كادت أن تتدهور وأعصابها أوشكت أن تنحل .

وقد دلت البحوث الحديثة فى تطور الأطفال النفسى ، أن الطفل يمر بأدوار ثلاثة فى تطور الغريزة الجنسية ، يبلغ الواحد منها ما يقرب من سبع سنوات . ففى السنوات السبع الأولى يتركز اهتمام الطفل حول نفسه ، فهو يحب نفسه - كما يقول فرويد - ولا يهتم إلا بجسمه وبحاجات بدنه . يريد من أمه كل اهتمامها ، وتمثل الأم فى عينيه الطعام والراحة البدنية . وهو شديد الاهتمام بأعضائه ، يحاول أن يتعرف مدى قدرتها . وهو فخور بمقدرته على العدو ، ولا يهمه أن يظهر عاريا . وقصارى القول إن نشاطه يتدفق نحو هدف واحد : هو نفسه . وهذا الاهتمام بالنفس شديد جداً عند بعض الأطفال ، وعبثا تحاول الأمهات أن تعلمن أمثال هؤلاء حب الغير والتنازل عن الأنانية ولو قليلا . وإن أعطيت الطفل فى هذه المرحلة شيئا من الحلوى استأثر بها لنفسه ولا يرضى أن يعطى أخاه أو أخته شيئا منها .

وبعد السابعة تبدو على الطفل ظاهرة جديدة ، وهى اهتمامه بالأطفال من جنسه . ذكوراً أو إناثا ، فينتقل اهتمامه من النفس

إلى الجنس ، ويتركز حول رفاقه ومن يكبرونه من جنسه . يحب المدرسة ويهتم كثيراً بمعلميه وزملائه . والأبطال فى نظره هم أبوه أو أخوه الأكبر ، أو أخ كبير لصديق له . ويزدرى البنات ، كباراً وصغاراً . وتمر البنت بهذا الدور عينه ، فلا تحب غير رفقة البنات الأخريات . ومن الاعتراضات الهامة التى يوجهها علماء التربية للتعليم المشترك بين الجنسين فى هذه السن هذه الرغبة الطبيعية عند الأطفال فى مخالطة أبناء جنسهم أو بنات جنسهن .

وبين الرابعة عشرة والسابعة عشر أو الثامنة عشر تقريباً تبدأ المرحلة الثالثة ، وهى مرحلة حب الجنس الآخر . وتنمو فى المراهق الرغبة فى معاشرة البنات ، وقد يدخل الطفل فى هذه المرحلة تدريجاً وبصورة غير محسوسة ، وقد يدخلها مباغتة وفجأة . وهى عند بعض الأطفال تبدأ بالاهتمام بالوالد عند البنات ، وبالوالدة عند البنين ، فترى البنت أن أباها عامل هام فى الحياة ، ويتغير رأى الولد فى أمه وفى أخواته ، فيرى أن اخته ربحاً له لا ديناً عليه .

وهذا الشعور هو ما يعبر عنه فرويد « بعقدة أوديب » ، والاصطلاح مستعار من اسم (أوديب) فى الأساطير اليونانية ، وقد قتل أباه وتزوج من أمه . والواقع أن شعور الطفل نحو والديه معقد أشد التعقيد ، فهو ليس حباً خالصاً ، وليس كرهاً خالصاً . إنما هو مزيج من هذا وذاك . ولا شك أن جانب المحبة هو الغالب فى أكثر الأحيان . يحس الطفل أن أمه تحميه وتفى بحاجاته ، ولكنه

يحس كذلك أنها تحرمه بعض العادات ، كما يحدث عند الفطام مثلاً ، فيبغضها من أجل ذلك ، وهو يدرك كذلك أن أباه يستنفد كثيراً من وقت أمه ومحبتها ، وكان يود لو يستأثر بقلب أمه كله له ، ولذا فهو يحس بمنافسة أبيه ، ويود لو لم يقف فى سبيله . ولكن غيرة الولد من أبيه تتعارض مع بعض العواطف الأخرى السامية ، فالوالد يحب ابنه ويظهر هذه المحبة ، فلا يسع الولد إلا أن يجاوب هذا العطف . هذا إلى أن الوالد ـ فى نظر ابنه ـ عليم بكل شىء ، قادر على كل شىء ، فهو المثل الأعلى فى نظر الابن ، ومحط الإعجاب منه ، فيعجب الولد بأبيه ويحبه من ناحية ، ولكنه يحب التخلص منه من ناحية أخرى . وما قلنا عن الولد يصدق على البنت سواء بسواء . شعور الأطفال إذن نحو آبائهم مزدوج متناقض .

وهذا الشعور المزدوج هو مايعرف فى تحليل النفس باسم : Bipolarity . وموجز هذه النظرية أن الإنسان لايحس إحساساً واحداً خالصاً . نحن نحب الموت كما نحب الحياة ، فكأن الإنسان يحب أن يعود إلى الطين كما بدأ . وكلنا لاشك قد مارس فى خواطره وفى أحلامه هذه الرغبة فرأى نفسه وقد انقضت حياته فى هذه الدنيا ، فالإنسان لديه غريزة الموت كما أن لديه غريزة الحياة . والمنتحر الذى يقبل على الموات يحب الموت كما يحب الحياة ، كأنما هو يريد بانتحاره أن يظفر بالنفوذ الذى فشل فى الحصول عليه فى حياته . ويستشهد بعض علماء النفس بانقسام الأحياء إلى ذكور وإناث على صحة هذه

النظرية ، فالرجل إنسان ناقص والمرأة إنسان لم يتم نموه ، وفى الرجل شىء من الأنوثة ، وفى المرأة شىء من الرجولة . ويذكرنا هذا الرأى بحوار من محاورات أفلاطون إذ يقول : إن الإنسان كان له فى أول الأمر أربع أذرع ، وأربع أرجل ، ثم جاء « زيوس » وقطعه نصفين ، وسيظل كل جزء يبحث عن نصفه الآخر ، فإذا ما اجتمع النصفان ، أحب أحدهما الآخر ، وعاد الجسم إلى وحدته. وهكذا يتم باتحادهما الإنسان الكامل . ومما يؤيد هذا الرأى كذلك أن الشىء قد يدل على نقيضه فى الحلم ، فالبياض قد يرمز إلى السواد ، والعلو قد يرمى إلى الانحطاط ، والصغير يدل على الكبير وهكذا . ويقول : « آبل » Abel وهو من علماء الألسن إن الشىء ونقيضه فى اللغات البدائية لهما لفظ واحد ، والضوء والظلام لهما رمز واحد فى الكتابة الهرغلوفية . ونحن فى الأحلام نستعمل لغة بدائية ، لغة تفى بأغراض الحلم ؛ ولكنها لاتفى بحاجات اليقظة . وروح « بروتس » فى رواية « يوليوس قيصر » لشيكسبير تحب قيصرا وتكرهه فى آن واحد . الحب إذن دائماً ممزوج بالكراهية ، واللذة مختلطة بالألم ، والألم باللذة ، وما يجذبك إليه ينفرك منه وهكذا . ويقول أتباع فرويد إن « عقدة أوديب » هى صميم نظرية التحليل . وإنه فى أثناء التحليل قد يحدث مايعرف « بالانتقال » Transference ، وهو أن يعيد المريض مع طبيب التحليل تاريخ عقدة أوديب ، ولا يتسع كتاب صغير كهذا للتغلغل فى فلسفة « الانتقال » . فالموضوع

شائك دقيق . ولكننا نستطيع فى إلمامة قصيرة أن نقول إن « الانتقال » هو شعور المريض بالثقة فى طبيبه واحترامه له ، ومشاركته إياه الوجدان . وأكثر الناس يحسون هذا الإحساس نحو الطبيب أو نحو المعلم أو نحو من يقدم لهم المعونة ؛ ولكن المقاومة التى أشرنا إليها آنفاً كثيراً ماتتخذ صورة الانتقال السلبى نحو طبيب التحليل ، وذلك أن المريض - وهو لايرغب فى مواجهة عقله الباطن - يثير فى نفسه عاطفة الكراهية لطبيب التحليل ، ويتخذ هذه العاطفة معذرة له عن عدم ثقته فى الطبيب أو تغيبه عن موعد العلاج ، فليس من المعقول أن يقاومه دون أن يقدم المعاذير . وليس « الانتقال السلبى » دائما لونا من « التبرير » ، وإنما قد يرجع إلى أسباب أخرى ، ولكنه ما دام قائما فهو عائق للعلاج الناجع .

ونعود إلى المرحلة الثالثة من مراحل تطور الغريزة الجنسية ، فنقول إن هذه السن التى يزداد فيها اهتمام الطفل بالوالد أو الوالدة (الجنس الآخر) خطيرة جداً ودقيقة فى حياة الطفل . يصبح الوالد فى رأى البنت - لاشعورياً - المثل الأعلى للرجل ، وبعبارة أخرى المثل الأعلى للزوج ، وتتأثر آراؤها فى الحب والزواج به كثيراً ، لأننا حينما نقول إن اهتمام البنت بأبيها يزداد فى هذه السن لا نعنى ما بينهما من حب البنوة والأبوة وحسب ، فالفتاة (أو الفتى) فى سن المراهقة شديدة النقد فى حكمها . وإن تولد لديها وهى فى الخامسة عشرة أو السادسة عشرة شعور بالاحتقار ، أو

البغض ، أو الخوف من أبيها ، فمن المحتمل جداً أن تؤثر البقاء فى مرحلة الاهتمام ببنات جنسها دون أبناء الجنس الآخر ، وأن تكره الحياة الزوجية ، بل والرجال من الناس أجمعين ، وفى هذا ضرر بليغ لا على الفتاة التى تتزوج فحسب ، بل كذلك على أولئك اللائى يقمن بأعمال أخرى ، لأنه من الضرورى للمرأة المتزوجة ، كما هو من الضرورى للمرأة التى تخرج إلى ميدان العمل أن تفهم الرجل وتعرف وجهة نظره .

وكثير من البنات يصبن بالنورستانيا ، ويتبين فى موقف عصيب وهن فى سن المراهقة ، وقد يصبن بالأمراض العصبية ، فيكتبن كثيراً من الآراء ، ويختل توازن عقولهن نتيجة لفشلهن فى إيجاد علاقات صحيحة بآبائهن ، فيبقين فى مرحلة الاهتمام ببنات جنسهن ، ويقضين هذه السنين العصبية ، سنى التطور الجثمانى ، دون أن يقفن من الحقائق الجنسية موقفاً صحيحاً ، أو قد يملن فى هذا الشأن ميولا لا يرغب فيها . ولا ضرر البتة من أن تجد الفتاة لذة فى رفقة صاحباتها وزميلاتها من البنات ، بل لقد يكون ذلك تسامياً بالغريزة مستحباً ، مادامت تدرك مركزها فى الحياة وتفهم نفسيتها فهماً صحيحاً . ولكن بعض مدارس البنات التى لا تسمح بإشراك الجنس الآخر فى التعليم ، تجعل المدرسة مليئة بضروب المتع والسعادة . وإن امتد أجل اهتمام الفتاة ببنات جنسها ثلاث سنوات أو أربع بعد الفترة الطبيعية ، فقد تلبث بدأ فى هذه المرحلة ، فيكون لذلك أثر على عقلها وخلقها ، فى وقت

قد نضج فيه جسمها نضوجاً يسمح لها بالحياة الجنسية الطبيعية . وقد لاتدرك البنت الخطر من ذلك البتة ، فتلجأ إلى إطفاء شهوتها — جهلا منها وسذاجة — بطرق غير مشروعة ولامستحبة ، فينتهى الأمر إلى تحطيم حياتها تحطيما لانجاة منه .

ومرحلة الانتقال من الاهتمام بالنفس إلى الإهتمام بالجنس الآخر عند الأولاد ليست أقل مشقة منها عند البنات ، ولكنا ندرك خطرها ، فنبذل جهداً كبيراً لتمكينهم من إدراك الموقف وتحاشى الخطر . يقابل الأولاد المشكلة عينها التى يقابلها البنات حينما يبلغون السن التى يجتذب إنتباههم فيها النساء من الأسرة ، ولكن الولد الذى لا يجد فى أمه أو فى أخته المثل الأعلى للأنوثة فى نظره ، لايتحرج أن يواجه الحقيقة الجنسية ، بل ويواجهها بفكرة وضيعة عما يتوقع من النساء ، فيتزوج من امرأة لاينتظر منها أن تكون فى مستواه العقلى أو الخلقى ، ويؤسس أسرة الزوجة فيها أقل فى نظره من أن تكون أما لأطفاله .

ومشكلة الحياة الجنسية بأسرها فى المجتمع المتمدن الحاضر تتيسر كثيراً لو أدرك عامة الناس مدى هذه الغريزة وما تنطوى عليه من مشاكل . وكما ذكرنا آنفاً ليس نشاط الأعضاء التناسليه إلا مظهرا واحداً خاصاً من النشاط الحيوى الذى يملأ نواحى الخليقة جميعاً .

ولنعد ثانيا إلى تشبيه النهر وفرعيه الذى لجأنا إليه من قبل ، فإن فرع الطاقة الجنسية أعمق بكثير مما يظن الكثير منا ، والسبب

فى أن هذا الفرع كثيراً ماينسد أو تقف دونه الحواجز ان الظروف الإجتماعية تعترض سبيل التنفيس عن الغريزة الجنسية الطبيعية . وهذه العقبات قد تكون عسيرة أو يسيرة حسب ظروف الفرد الخاصة . فإذا أحب الفتى أو الفتاة ، ومنعته الظروف من الزواج ، كان توقف المجرى الجنسى عن التدفق شديداً ، وشق علينا إزالة العقبة وتسهيل التدفق كى نكفل له ـ أولها ـ حياة صحية من الوجهة البدنية والعقلية ، ولذا وجب علينا مواجهة هذه المشكلة ومحاولة التسامى بها بطريقة ما .

والشبان الذين يحسون بالقلق الجنسى وحدة الغريزة الجنسية الناهضة كثيراً مايشبعون خيالهم بالأدب الغزلى ، وهم يفعلون ذلك ، وهم يجهلون ولايدركون أنهم بذلك يثيرون الرغبة بدلا من أطفائها . وهم بالحصول على تفريج مؤقت يزيدون من شدة العلة .

ومن الأمور الشاقة على المربين إيجاد المنافذ الكافية لهذه الغريزة ، وتدريب الأطفال فى طرق التسامى القويمة ، والواقع أنا ينبغى أن نوجه مجهوداً كبيراً من تفكيرنا نحو هذه المشكلة ، مع العلم بأنها عويصه ، والكثير عن حقائقها مجهول لنا . كم من الناس يحاولون سنوات عدة أن يتجاهلوا الغرائز المكبوتة دون أن يقدروا نتائج ذلك ، وكم من فتاة تنشأ على عقيدة أن غريزة الجنس كامنة فيها لاتثور إلا عند الزواج . ولذى فلا يبذل القائمون بأمرهن أقل جهد فى التسامى بهذه الغريزة . وهناك من الفتيات من إذا

أزيلت القيود المدرسية من وجهها واستبدلت بها الحرية وتقرير الذات وقعت بغتة فى عادات عقلية وجثمانية تجعل التسامى مستحيلا، فهى تندفع فى العبث ، أو تسترسل فى قرارة الأدب الغزلى ، وتقسم وقتها بين القراءة وزيارة صديقاتها من البنات ، وتشعر بالميل نحو زميل لها فى الكلية أو مدرس من مدرسيها ، وتسمى هذا الميل صداقة ، وتسترسل فى هذه الصداقة إلى حد غير مرغوب فيه ، لأنها قد لاتدرك أن هذه الصداقة ضرب من ضروب الحب . وبهذه الوسائل تقيم فى عقلها الباطن صراعا عنيفاً ، وبعد ما تقضى عدة أشهر فى شقاء جثمانى وعاطفى قد تصاب بالهستريا التى تنسبها إلى الإرهاق فى العمل . والولد الذى يسترسل فى هذا الضرب من الصداقة ينبغى له أن يعلم جيداً إلى أى حد يجب أن تقف هذه العلاقة ، ولو فعل لبانت هذه الصداقة من أرق العلاقات التى نعرفها فى الحياة . ولكن التجربة دلت على أن البنات لايعرفن الحد الذى ينبغى أن تقف لديه الصداقة مع البنين جهلا منهن ، ويعتقدن أن العلاقة الجنسية إنما تقوم بين الرجال والنساء ، ولا تقوم بين الطلبة والطالبات، ولا تدخل فى حدود الصداقة بينهما . ولكنهن يجب أن يعلمن أن اللذة المعنوية التى تصحب كل مغامرة جديدة فى الحياة إنما هى فى كنهها ومغزاها ، وقوع فى الحب ، وتحتاج إلى رقابة شديدة وتسام فعال .

وفى كتاب Leonora Eyles (ليونورا أيليس) «الحياة الخفية»

صورة قوية عما يمكن وما لا يمكن من التسامى بالغريزة الجنسية فى الظروف المختلفة ، وتسوق المؤلفة أمثلة كثيرة لا يتسع المقام هنا لذكرها جميعاً ، ولكنا نسوق بعضها لايضاح الموضوع بعض الشىء. يذكر المؤلفة لنا مثل الزاهد المتقشف الذى يتوق إلى المتعة الجنسية ولكنه ينكرها على نفسه حباً منه فى إنكار الذات ، وتقديساً للطهارة الجثمانية ، وتضحية فى سبيل الله . وقد ينجح فى إنكار هذه اللذة نجاحا تاماً حتى يقع فى حب امرأة ، ولكنه يرى أن المثل الأعلى للتقشف هو فى العزوبة فلا يتزوج ، ويبدأ الصراع فى نفسه وينتهى بتهدم جثمانى وعقلى عظيم . ومثال آخر : المرأة التى رفضت الزواج لأنها ظنت أن والديها بحاجة إلى خدماتها . ولما كان والداها فى صحة جيدة ، وعلى شىء من الثراء ، فإن خدماتها لم تملأ حياتها عملا ، فقضت عشرات السنين حسرة على ذلك الزوج الذى أضاعته ، حتى أنشأت أحلام الحب والخيال فى نفسها صراعا خلقياً انتهى بها إلى الحبوط العصبى . وإلى جانب هذه الأمثلة من الفشل من جراء كبت الغريزة الجنسية أمثلة أخرى نجح أصحابها فى التسامى بالغريزة . ومن هؤلاء تلك الطبيبة التى أحبت رجلا لم تستطع الزواج منه ، فشعرت بالخيبة والفشل ، ثم تسامت بنفسها بتكريس حياتها لخدمة الإنسانية ، والعاشق الذى ظن أن العمل نوع من التسامى أرقى من الزواج ، فنجح فى عمله نجاحاً تاماً لأنه كان يعتقد بكل قلبه أن العمل لمصلحة الغير قد يكون منصرفاً كاملا للغريزة الجنسية .

وقصارى مايجنيه القارئ من هذا الفصل أن النجاح فى التسامى يتوقف على فهم طبيعة الصراع النفسى . فإن الزاهد الذى فشل ، والعاشق الذى نجح ، كان كلاهما ينفق العمر اصالح الإنسانية ، وكان كلاهما عاشق يحب امرأة لا تحول تقاليد المجتمع دون الزواج منها ، ولكن الزاهد فشل لأنه حاول أن يصرف غريزته بمهاجمتها مهاجمة صريحة ، ونجح الرجل العاشق لأنه وجه نشاطه وجهة أخرى . أى أن الأول حاول أن يسد المجرى سداً تاماً فانفجر السد ، وأما الثانى فقد أدرك أن هناك حاجزاً فسمح للتيار أن يتدفق فوقه وحواليه .

وأكثر الحوادث التى تعرض للطبيب النفسى هى حوادث تتعلق بكبت الغريزة الجنسية أو قمعها . وليس من شأننا هنا أن نتعرض لتفصيلات عمل مثل هذا الطبيب ، ولكننا نستطيع أن نفهم عمله إجمالا . ذلك أن الرغبات الجنسية المكبوتة كثيراً ماتغوص فى أعماق اللاشعور ، فيدور أكثر العلاج حول إخراجها شيئاً فشيئاً إلى دائرة الشعور ، وقد يدرك الطبيب فى ساعة أو بعض ساعة الرغبة المكبوتة ، ولكن يشق عليه أن ينقلها من اللاشعور إلى الشعور بمجرد نصح المريض أو شرح المسألة له ، فالمريض لا يعتقد ، ولا يقر البتة صدق مايقال له . ومهارة الطبيب فى إقناع المريض إقناعاً قوياً بحقيقة الصراع اللاشعورى . وإذا مابات الصراع شعورياً انفك مقدار كبير من النشاط المحبوس . وإن أمكننا توجيهه وجهة جديدة نحو مجار جديدة خير من السابقة نجحنا نجاحاً تاماً . وعمل

الطبيب ينحصر فى إقناع المريض بأن هذه المجارى موجودة فعلا ، وأما توجيهها وجهة جديده فيتعلق بالمريض وحده دون سواه .

ومن الجلى أن المهارة التى يتطلبها هذا الفرع من علم النفس تنحصر فى صعوبة إخراج الرغبات المكبوتة من اللاشعور إلى الشعور . وعملية تهذيب العقل الواعى وتلقينه الحقائق الجديدة والملاءمة بينه وبينها تحتاج إلى دراية وعطف وسياسة ، ولكنها ليست عسيرة كعلمية التحليل . وينبغى أن يكون فى مقدور المعلم والوالد والواعظ أن يقوم بها . ولكن التحليل يحتاج إلى شخص مدرب واسع الثقافة فى هذا الباب .

ولذا فإن كثيراً من أسباب النورستانيا يمكن إزالتها بشئ من الحكمة . ولو أن منهج الثقافة العامة فى المدارس الثانوية يشتمل على معلومات أولية عملية عن الغرائز الأساسية وكيفية علاج مظاهرها ، لقلت عند الأطفال الرغبات المكبوتة بمقدار كبير ، وبات فى مقدور الوالدين والمعلمين معالجة المراهقين من الوجهة النفسية ، وتوجيههم وجهات صحيحة ، ويقل بذلك عمل طبيب التحليل . أجل ان حوادث النورستانيا الشاذة لن تنقطع ، ولكن المأساة اليوم هى أن عدداً كبيراً ممن نظن أنهم قوم عاديون ، هم فى الواقع من الشواذ ، وماذلك إلا نتيجة لأخطاء وقع فيها المربون ، وكانوا يستطيعون تلافيها .

الأحـــــــلام

كان الناس حتى عهد قريب ينظرون إلى الأحلام كأنها هراء لامعنى له ، وقولنا « هذا حلم » و « أنت تحلم » يدل على الرأى العام فى الأحلام . ولكن المتوحشين والشعوب البدائية تهتم بالأحلام وتحاول تأويلها . وكتب الأحلام الشعبية ماتزال شاهداً على اعتقاد العامة فيها بعض الشىء .

لم نذكر كثيراً عن الأحلام فى الفصول السابقة ، لأن الحلم - رغم أنه أداة هامة للطبيب النفسى فى علاج النورستانيا - له قيمته عملية محدودة للرجل العادى فى حياته اليومية . والحلم الذى لايحلله صاحبه لا أهمية له . وتحليل الأحلام يحتاج إلى علم واسع ومهارة وخبرة ، وكثير ممن يعشقون تفسير الأحلام على غير أساس متين من العلم يقعون فى أخطاء جسيمة . ولكن الأحلام - رغم ذلك كله - كانت منذ البداية شديدة الارتباط بعلم النفس التحليلى ، فلا يمكننا إهمالها عند عرض العلم ، مهما كان العرض مختصراً .

ولقد كان بحث فرويد فى الأحلام هو حلقة الاتصال الأولى بين تحليل النفس وعلم النفس العام . كانت الأحلام حتى سنة ١٩٠٠ تعتبر فى أنحاء العالم أجمع خرافة لا تستحق الدرس ، ولا يصح أن يعبأ بها العلم ، وكان بعض الأطباء يعتقدون أنها تنشأ عن اضطرابات

فيزيقية فى المخ أثناء النوم . وهناك من كان يربط الأحلام بالكهانة . حقاً إن نظريات فرويد لم يعترف بها إلا القليل حتى الآن ، ولكن ليس من باحث اليوم لايعتقد أن دراسة الأحلام هامة فى علم النفس ، وأن للأحلام قيمة عملية فى علاج الاضطرابات العصبية ، حيث ينبغى تعرف الطبقات العميقة فى العقل .

ونحن حين نحاول أن نعالج موضوع الأحلام ، ذلك الموضوع الذى لايزال غامضاً حتى فى عقول كبار علماء التحليل النفسى ، لانزعم لأنفسنا إننا نصيب الحقيقة التى لامراء فيها . بل إنا لنعترف أن كل مانقول فى هذا الباب عرضة للنقد والتفنيد ممن لايؤمنون بالنظريات التى نورد ، وممن يعتقدون فى أراء أخرى فى هذا الموضوع .

كانت العقيدة السائدة أيام ظهر علم النفس التحليلى أن الأحلام جميعاً تعبير رمزى للصراع القائم فى العقل الباطن . ثم قام أخيراً بعض الباحثين ممن يقول بأنها ليست جميعاً كذلك ، وأن هناك فرقا فى المغزى بين حلم وآخر ، فليست الأحلام جميعاً رمزية ، وليست جميعاً قابلة للتحليل والتأويل . ويرى « كستر » Coster أن عمل العقل أثناء النوم يختلف كثيراً باختلاف الأشخاص ، وباختلاف الأزمان ، وأن الحلم الرمزى ، الذى يفيد طبيب التحليل كثيراً ، ماهو إلا نوع شائع بين عدد كبير من الناس . وقد تكون هناك أحلام أعمق من هذه غوراً ، تبدو فيها الحقيقة بطريقة أخرى غير الطريقة الرمزية ، ولكننا فى هذا الفصل لن نتعرض لغير الأحلام

العادية التى يمكن تأويلها وتحليلها .

حين ينام المرء تفتر إلى حد كبير قوة الكبت التى تعمل على إخفاء الأفكار غير المرغوب فيها ومنعها من الظهور فى ميدان الشعور ، فيضعف إحساس المرء بما هو حق وما هو جائز ، وبما يتفق واحترامه لنفسه . وتمر بالعقل الخواطر التى نأبى التعرض لها أثناء اليقظة ، على هيئة الصور . ولكن الحاسة الخلقية لاتختفى اختفاء تاماً أثناء النوم ، وإنما يبقى لها نفوذ عظيم فتحدد مجرى الحلم إلى حد كبير . فهناك وقت النوم مايوقف التعبير الصريح عن الآراء البغيضة التى نحب إبعادها ، فلا نسمح لها بالظهور إلا فى صورة رمزية ، أو فى صورة تشبه الحقيقة وليست بها . ولم يفسر لنا أحد ممن كتبوا فى هذا الموضوع هذا المانع تفسيراً كافيا ، ويسميه فرويد «الرقيب النفسى الباطنى» Eudo Psychic Censor ، ومن العسير أن نفهم لماذا يحاول اللاشعور أن يتصل بالشعور ، وأن يفعل ذلك على حساب هزيمته . ولكن هذا هو مايحدث . وكما أن القصص التمثيلية هى أقاصيص مأخوذة من الحياة اليومية ، إلا أنها تنطوى على معنى خفى ، فكذلك الأحلام لحمتها وسداها الحوادث اليومية ، ولكنها ترمز إلى مشاكل نفسانية أشد غوراً .

وإليك شرح موجز للطريقة التى تحلل بها الأحلام : يقص المريض حلمه ، ويرشده الطبيب إلى تتبع كل مايرتبط بالأفراد ، والأشياء والحوادث التى وردت فى الحلم . وفى أكثر الأحلام

تؤدى الزوابط من حوادث بسيطة غير هامة وقعت فى اليوم السابق إلى حادث أكثر أهمية بكثير وقع فى الماضى البعيد ، ثم إلى مشكلة كبيرة أو صغيرة فى عقل المريض . ويسمى الحادث أو الظرف المباشر الذى بعث الحلم « بالصورة الظاهرة » ، والحوادث البعيدة الهامة التى ترتبط بها « بالصورة الباطنة » ، وأعمق من هذا وذاك أن الحلم فى صورتيه الظاهرة والباطنة يرمز إلى شىء آخر سنحدثك عنه بعد قليل ، والحلم فى الواقع يترجم الصورة الباطنة إلى الصورة الظاهرة ، وذلك دون تدخل القوى العاقلة . وإليك الآن تحليل حلم من الأحلام البسيطة لتوضيح ماذكرنا .

جاء إلى الطبيب النفسى يوما رجل فى حالة عصبية شديدة ، وروى له الحلم الآتى : « رأيت فى الليلة السالفة أن كلباً مجنوناً يطاردنى » . وقد استخرج الطبيب من المريض كل مايرتبط فى ذهنه « بالكلب المجنون » فوصل إلى التحليل الآتى : —

قال الرائى عن الكلب المجنون :

ا ـ أنا أكره الكلاب ، وقد رأيت أحمد بالأمس وكلبه معه ، فهب الكلب فى وجهى .

ب ـ كان والدى يحتفظ بعدة كلاب أيام طفولتى ، وكنت أخشى أبى ، وقد انتابه دور عجيب فيمابعد فأرسل إلى مستشفى الأمراض العقلية . وإنى لأحس أحياناً أنى أسير فى الطريق عينها التى سلك أبى من قبل ، وانى قد انتهى إلى مرض عقلى .

حـ ـ الكلب المجنون ! إن فى نفسى شيئاً كالكلب المجنون يريد أن ينطلق ، ولو حدث ذلك لقضى على .

هذا التحليل يبين لنا أن (ا) تفسر الصورة الظاهرة ، وأن (ب) تؤول الصورة الباطنة ، وأن (ج) هى الفكرة الأساسية للطاقة الحيوية المتدفقة ، أو الطاقة الغرزية . ويلاحظ أن (ا) و (ب) يقومان على الروابط الشخصية عند هذا الرجل ، وأن (ج) رمز عام قد يصدق على أى فرد . والطاقة الحيوية المتدفقة كثيراً مايمثلها حيوان كالأسد أو النمر أوالثور الغاضب .

وهذا الحلم الذى روينا يبين أن النورستانيا عند الرجل ترجع إلى خوف شخصى من أن يرث جنون أبيه .

ولكن الأحلام ليست دائماً بهذا الوضوح ، وعلى أية حال فإن أحلام الاطفال وغير المتعلمين ، أشد وضوحا وأقل تعقيداً من أحلام الطبقات المثقفة .

ومما يساعد على تعقيد « الرمزية » فى الحلم أن كل شخص أو حادث هام فى الحلم يمثل وجهاً من أوجه النفس ، فالكلب المجنون مثلا — بغض النظر عن كل معنى آخر له — يمثل طبيعة المريض الدنيا . ومن الرموز الشائعة فى الأحلام أن يرى النائم والده فى صورة الملك وأمه فى صورة الملكة أو غير ذلك من الشخصيات الكبيرة الهامة . ويرمز الحلم للميلاد بالماء ، وللموت بالسفر ، وللعرى بالملبس ، وللذكر بالعصا أو السكين أو الرمح ، وللأنثى بالأوانى

الفارغة والكهوف والصناديق وما إلى ذلك من الأجسام الجوفاء ، والليسر بالخضرة . ومن الذائع بين الناس أن الرمز لابد يدل على شيء معين ، ولكن تحليل النفس أثبت أن هذا يتوقف على الفرد والمعانى المترابطة فى ذهنه .

وإليك مثالا آخر يعين على توضيح الموضوع . روت فتاة متعلمة هذا الحلم:

« كنت فى حجرة خالية فى أعلى بناء مرتفع ، ورأيت أن الدرج الذى صعدت عليه قد تهدم خلفى ، وكنت أخشى ألا أستطيع النزول ثانية . وكانت النافذة مفتوحة ، ولم ألبث قليلا حتى طار نحو النافذة رجل زرى الهيئة ، ولكن الشفقة تبدو عليه ، فاختطفنى على عجل وطار بى إلى مكان آمن . وقد سرنى أنى نجوت ، ولكنى غضبت من الرجل لسلوكه الذى لم يراع فيه آداب اللياقة .

« والصورة الظاهرة » لهذا الحلم هى أن الفتاة كانت فى اليوم السابق تحزم متاعها فى الطابق العلوى من البيت الذى يمكن الوصول إليه على على سلم شديد الانحدار

« والصورة الباطنة » هى أن الرجل الفظ يمثل طبيب التحليل ، لأن طرائقه تخلو من اللياقة وليست محببة إلى النفس. والحجرة العليا هى المأزق الحرج الذى وقعت فيه من أثر الوهم وعدم النظر إلى الحياة نظرة عملية . فالفتاة « معلقة فى الهواء » ولا تدرى إن كانت تستطيع الهبوط ، والدرج (أو الطرق العادية لعلاج الموقف) قد

خانها ، والنافذة مفتوحة ، ومعنى هذا أن هناك مخرجا . وطبيب التحليل « يطير » وينقذ الفتاة . أى أن طرائقه فى العلاج عجيبة لم تكن تتوقعها . وقد «نجت» وانفرج الكرب ، ولكنها «غضبت» بعد ذلك ، أى أن علاج الطبيب قد ينجح ، ولكنها لاتحب هجومه المباشر على موطن الضعف فيها .

والرمز العام لهذا الحلم هو أن الرجل الفظ يمثل خلق الفتاة تمثيلا عملياً ، وهى تحتقر فى نفسها هذا الخلق ، ولكن نجاتها معلقة به . والحجرة العليا التى إنحصرت فيها الفتاة فى حلمها هى رمز شائع فى الأحلام ، ويشير إلى الانفصال عن الحقائق والخوف من الجنون

وهذا الحلم فيه بالإضافة إلى التفسير الذى ذكرنا معنى الغريزة الجنسية وغريزة السيطرة . فالمريضة قد نمت فيها غريزة السيطرة نمواً عظيما ، وضربت لنفسها فى الحياة مثلا أعلى غير عملى ، مما جعل أوجه الغريزة الجنسية البدائية كريهة لديها . وهاتان الحقيقتان يمكن استنتاجهما من الحلم بغير عسر .

ويقول فرويد فى مؤلفاته الأولى أن الأحلام جميعاً تمثل رغبة لم تشبع عند صاحب الحلم . ورغم أن البحوث الأخرى فيما بعد كانت تميل إلى إيجاد أنواع أخرى غير هذا النوع ، فقد لبث هذا الضرب — وهو « تحقيق الرغبات » — كثير الإنتشار . فالصادى يرى أنه يشرب ، والجائع يأكل . وقد يحقق الرائى رغبة من رغبات الصبا كموت أخيه مثلا . ولكن الأحلام ليست جميعاً كذلك ، فقد يحلم

الطفل مثلا بأن حيواناً متوحشاً يهاجمه ويريد التهامه ، وقد يحلم طفل آخر أنه دائماً يسقط من أعلى . فمثل هذا الطفل الأخير ربما كان يقطن منزلا فى الطابق العلوى وتحذره أمه من السقوط إذا لم يحرص. فلو أمعنا فى النظر قليلا لأدركنا أن حلمه هو فى الواقع تحقيق لرغبة، لأن السقوط فى النوم طريقه لاشعوريه لتحقيق أمنية دفينة ، وتلك هى أن هذا الولد ، وهو طفل صغير يتعلم المشى ، سقط مرة ، فأتت إليه أمه وأولته عطفها ، فأرتبط السقوط بعطف الأم ، ولذا فهو بسقوطه فى الحلم يرمى إلى الظفر بعطف أمه .

وربما كان أكثر الأحلام شهرة فى العالم أجمع حلم يوسف عليه السلام وهو صبى . فقد رأى أن أحد عشر كوكباً والشمس والقمر تسجد له . ولسنا نتعرض هنا إلى رؤيا النبوة ، ولكننا ننظر إلى قصة يوسف كما تروى لنا، فنراه أخا صغيرا يكرهه إخوته ويسيئون معاملته فيفكر فى الانتقام منهم ، ولكن نفسه الكبيره تأبى عليه ذلك ، فيريد الله أن يحقق له هذا الرغبة فى الحلم أولا ، وفى سيادته عليهم فعلا آخر الأمر . وقد ينبىء الحلم بالمستقبل اذا بلغ بالشخص نفاذ البصيره أن يتوقع ما تحققه الأيام . فليس عجيبا أن يحلم التلميذ المجد بالنجاح ، ثم ينجح .

ومن الأنواع الأخرى الشائعة فى الأحلام ذلك الحلم الذى يمثل الصراع اللاشعورى . وإليك مثالا من حلم من هذا النوع ، رأته فتاة قوية الخيال ، ويبين خيالها الصراع بين الخلق « الفردى » والخلق

« الاجتماعى » . كانت الفتاة فى ذلك الوقت شديدة الفردية تحيا فى عالم داخلى غنى بالأوهام القوية المشبعة ، ولكنها كانت لا تشعر شعوراً تاما بخطر حالتها النفسية . وانطلاق الطاقة الحيوية انطلاقا باطناً هكذا سبب لها أعراضاً متعددة غير عادية ، منها السرقة غير المقصوده Kleptomania . وقد بدأت هذه العادة عندها فى سن باكرة من الطفولة نتيجة لصدمات جنسية طفيفة صحبها شغف بالمعرفة قوى لم تنطفىء ناره . وكما هو شائع فى أمثال هذه الحالات ، كانت المسروقات عادة أشياء زهيدة تافهة ، فلم ينتبه إليها أحد ، ولم يشتبه أحد فى خلق الفتاة . ولكن لما تقدمت بها السن إزدادت سرقاتها . ومما ساعد على تعقيد الأمر أن كبتها للجريمة كان شديداً جداً لدرجة أنها كانت شديدة النسيان لها . وكانت ترتكب السرقة وهى فى حال عقلية تشبه حال النائم الذى يهب ويمشى وهو فى غفوته . وبعد تحليل طويل عادت إليها ذاكرتها تدريجاً ، واستذكرت الحوادث واحداً بعد الآخر فى فترات متباعدة قد تبلغ الأشهر أحياناً .

وهذا مارأت الفتاة فى يوم من أيام التحليل :

قالت : « رأيت إنى نابليون ، يدنى الجميع أن أغامر فى موقعة ما ، وأردت أن أخرج إلى الحرب ولكنى لم أفعل ، ولذا فقد عدت إلى خيمتى ، وكانت فاخرة فى الداخل ، بها كثير من الصور والرسوم وأسباب الجمال ، وكان مكاناً خاصاً لا يتردد عليه أحد . ولبث الناس خارج السرادق يحاولون إخراجى واشتراكى فى الموقعة .

وكان الجند جميعاً يريدون ذلك، وأظهرت الألوف منهم هذه الرغبة. ولكنى ما ان أعلنت الرفض حتى ارفضوا وانصرفوا وانتهى الأمر. وكان لابد لهم من القبول وهم كارهون . .

« رأيت إنى نابليون » مامعنى هذا ؟ إن « فردية » الفتاة فردية شاذة كانت ترجع إلى رغبة فى العلم لم تشبع ـ وبخاصة العلم بالشئون الجنسية ـ وكانت القوة فى نظرها مرادفة للعلم ، ولذا رأت أنها شديدة النفوذ كنابليون .

« وكانوا جميعاً يريدوننى على أن أشترك فى القتال الخ . . . » مامعنى هذا ؟ معناه أن الأفراد الذين تهمهم سعادتها كانوا يحبون لها الشفاء ، فكأنهم يريدون لها ـ فيما يرى عقلها الباطن ـ القتال والموت وقد رأت أنها « نابليون » فكان من حقها ألا تنزل إلى ميدان القتال إلا بإرادتها .

« عدت إلى خيمتى الخ . . . » أى أنها قررت أن ترفض القتال ، ولذا تقهقرت إلى عالم من الوهم ، إلى مكان خاص ، حيث تستطيع أن تخفى أسرارها ، إلى مكان « فاخر » غنى بقوة خيالها الخصب ، حيث رأت « صوراً ورسوماً وزخارف » كثيرة ، وكلها تمثل الحقائق ، وليست بالحقائق عينها .

« وكان الجند جميعاً يريدون ذلك ، وانتشر الألوف منهم » . فى هذا رمز ثنائى ، فإن كل الحوافز فى العالم الخارجى ، وكل قوى البيئة الاجتماعية كانت تصر على أن سلوكها الفردى يجب أن يقف عند

حد . وكان استحثاث الطاقة الحيوية يدفع إلى الخارج ، فكان التيار المحجوز يحاول أن يحطم الحواجز .

« ولكنى ما إن رفضت حتى انتهى الأمر » . قررت ألا تحاول . كانت « نابليون » فلم يستطع أحد أن يرغمها على فعل ما لا تريد . ولذا فقد وقف تحليلها عند هذا الحد ، ولم يمكن السير به إلى الأمام .

وهناك ضرب ثالث من الأحلام ، لا هو يحقق الرغبة ، ولا هو يمثل الصراع اللاشعورى . وهو كثيراً ما يقع فى الفترة الأخيرة من التحليل ، ونسميه حلم التسامى . وقد يتم هذا الحلم فى وقت لا تحليل فيه . ومن الأمثلة الطيبة لهذا النوع ذلك الذى رأت الفتاة التى ذكرنا آنفاً فى الأيام الأخيرة من فترة علاجها .

روت عن نفسها ما يأتى « كنت فى الكنيسة فى صلاة مسائية ، واتخذت مكانى المعهود ، وكان المرتلون هناك جميعاً ، وأكثرهم من الرجال والأولاد الذى كنت أعرفهم ، وكان بعضهم يغنى « المجد والعظمة لله » وبعضهم الآخر لا يغنى مطلقا . ولحظت فجأة أن الشموع على المذبح من ناحيتهم لم تكن موقدة ، بينما كانت تتوهج الشموع فى الناحية الأخرى ، فنهضت وأضأت الشموع الأولى واحدة بعد الأخرى ، بادئة بالصف الأول ، ثم بالعلوى ، فالسفلى . ولما عدت إلى مقعدى بدأ المرتلون فى الخروج ، وبدلا من أن يتسللوا اثنين اثنين ، خرجوا واحداً بعد الآخر . وهكذا كونوا

خطا واحداً ، وخلفوا الكنيسة » .

وتفسير هذا الحلم أن الفريقين من المرتلين يمثلان جانبين من نفس الفتاة ، جانبا لايريد أن ينخرط فى سلك الحياة فأظلم ، وآخر يريد الخروج إلى الحياة فأضاء . وقد رأت الفتاة أن المرتلين قد خرجوا موحدين فى صف واحد ، أى أن جانبي نفسها قد اتحدا .

ويقول فرويد أن وظيفة الحلم هى وقاية النوم ، وذلك بتحويل كل مايهدد بإزعاج النائم فى نومه إلى تحقيق رغبة من رغباته تحقيقا خياليا ، وبذا يهدأ النائم . وقد يكون ما يهدده جثمانيا أو عقليا ، ألم فى المعدة أو الحاح فكرة مزعجة أثناء النوم . وفى معظم الأحيان - بل فى كلها ، اللهم إلا حينما يكون النوم عميقا جداً - يخف إزعاج النائم بطريق معقدة . ترتبط الفكرة المزعجة برغبة مكبوتة ، وهذه الرغبة المكبوتة لاشعورية صبيانية ، فيتخيل النائم أنه يشبع هذه الرغبة المكبوتة . ثم يتغير تحقيق الرغبة هذا تغيراً شديداً قبل أن يبرز إلى الشعور فى صورة الحلم .

وهذا التغيير ضرورى لأن الرغبة تتعلق بالجانب المكبوت من العقل ، وهو الجانب الذى لايستطيع أن يخرج إلى حيز الشعور ، وقبل أن يبرز الى الشعور ينبغى له أن يمر بالرقيب الذى يقع بين الشعور واللاشعور . وان كانت الرغبة المكبوتة قوية جداً ، لاتستطيع عملية الحلم اتمام هذا العمل ويفشل الحلم فى وظيفته ، ويحس النائم بما يعرف «بالكابوس» ومعناه أن «الصوره الباطنة» لم تختف

اختفاء كافياً ، فيشتد الخطر على النفس ويستيقظ النائم كى يعالج خطر الدافع اللاشعورى الذى أوشك أن ينطلق ، ويتم هذا فى حالة اليقظة خيراً مما يتم فى حالة النوم ، لأن الرقيب أثناء اليقظة يكون أشد تنبهاً ، ولذا « فالكابوس » عبارة عن محاولة غير ناجحة من جانب الطاقة الحيوية للتخلص من الخواطر المكبوتة. وهناك من يقول بأن الكابوس عبارة عن رعب مندس فى العقل الباطن ، وأنا لا نستطيع الفرار منه حين يهاجمنا لأنا نستجيب كما كان يفعل الإنسان الأول بالسكون لا بالحركة . وأمثال هذه الأحلام مصحوب فى الغالب بالخوف الشديد أو بعاطفة أخرى غير سارة ، وهى ذات قيمة كبيرة فى دراسة اللاشعور .

وقبل أن يخرج الدافع المزعج فى صورة حلم كامل يختلط بالرغبة المكبوتة ، ثم تتحقق الرغبة فى صورة يقبلها الشعور، وهذا مايسمى « بالتحريف » Distortion . وهو مما يساعد على غموض الأحلام وصعوبة تأويلها ، فنحن فى الحلم مثلا نرى المكان الواحد فى صورتين مختلفتين ، والشخص الواحد فى أكثر من هيئة واحدة . وكثيراً مايبدو من المكان أو الشخص بعض مميزاته فحسب ، وتختلط بمميزات مكان آخر أوشخص آخر ، أو تبرز المميزات المشتركة بين شخصين مثلا فى صورة واحدة ، وهذا مايعرف « بالتركيز » ، ومعناه اختلاط الصورة الظاهرة بالصورة الباطنة ، وبالتحليل تتميز هذه عن تلك .

ومن مميزات الأحلام التى ينبغى أن نشير إليها قبل أن نترك الموضوع ما يعرف « بالاستبدال » Displacement (١) حيث تنتقل مزايا شىء إلى آخر .

وكثيراً ما تتحول خواطر الصورة الباطنة إلى مايشبه الرواية المسرحية تتمثل فى رؤيا النائم . وعند ما ينتقل الحلم إلى الشعور يتم له ما يعرف بالتحريف الثانوى » ، وذلك أن الحلم تترابط أجزاؤه ، ويتماسك فى صورة معقولة . وتستمر هذه العملية إلى مابعد اليقظة . فلو كتبت الحلم بعد اليقظة مباشرة ، ثم حاولت تذكره بعد مدة ، وجدت أن ذكرك إياه بعد زمن يختلف عما سجلت

---

(١) والاستبدال معروف فى بعض الظواهر النفسية الأخرى ، وهو مألوف بين الأطفال . هب أنا عرضنا فى مناسبات مختلفة على طفل ما لعبة فى شكل أرنب له فرو كثيف ، وأنا كل مرة نعرض فيها الأرنب نحدث ضجيجاً عالياً خلفه ، فإن الطفل ينكمش خوفاً من الأرنب ، ثم هو يفعل ذلك فيما بعد حتى لوقدمنا له الأرنب بغير الضجيج . ماذا حدث ؟ لقد أصبح الطفل يستجيب بالخوف من منظر الأرنب وحده بغض النظر عن الضجيج . أى أن الأرنب أصبح له عند الطفل معنى ، وكان من قبل هذا المعنى ينشب فى ذهنه من مجموعة الأرنب جزء منها . ولكن الخوف كان مبدأ الأمر يرجع إلى الضجيج وحده .

وللأطفال ميل فطرى إلى الخوف حينما يفاجأون بصوت مرتفع .=

على القرطاس حين التيقظ . ويجب ألا تفوت المحلل هذه الظاهرة . فعمل الحلم إذن يشبه العمل الأدبى ، فهو مشاهدة تجربة ما ، ثم تعديلها بحيث يمكن إن تقع فى الحياة فعلا ، ويتم ذلك دون علم منا .

وقد قلنا من قبل أن الأفكار الباطنة تتقهقر (١) إلى اللاشعور

= هذا الميل الآن انتقل إلى الأرنب، نظراً لأن الأرنب والصوت كانا فى وقت ما يكونان مجموعة واحدة . وليس هذا معناه أن الطفل لن يخشى الأصوات المرتفعة فى المستقبل ، ولكن معناه أنه سوف يخاف الأصوات والأرانب ذات الفراء . وفوق ذلك فإن عملية « الاستبدال » أو « اكتساب المعنى » قد تستمر إلى ما لا نهاية مادامت مصادر الخوف المتتابعة يشترك فيها عامل واحد . وإذن فالطفل - نتيجة لمجموعة الأرنب والضجيج - قد يخشى فى المستقبل عمة له ترتدى الفراء ، ثم يخاف من أى شخص يشبه العمة فى شىء ما كالأنف الطويل مثلا . وتستمر الحال على ذلك حتى يبلغ سن الرشد ، ويقول إنه يكره « بالغريزة » كل من له أنف طويل . مثل هذا الشخص فريسة لاستبدالات متتابعة ، رغم أنه قد يجهل هذه الحقيقة .

(١) نقصد بالتقهقر أو التراجع Regression أن المرء قد يواجه مشكلة ما ولا يستطيع التصدى لها . وهذا الضرب من الإحساس تلمسه فى حياة الناس كل يوم . فالفتاة الصغيرة التى تجد نفسها وقد تخطت المرحلة التى كانت أمها تستطيع فيها أن تحميها من كل =

الصبيانى . وهى كذلك « تتقهقر » بمعنى آخر ، وذلك بأنها تتحول من خواطر مجردة معنوية إلى محسوسات ، فهى لا تفهم كلمة « الصوت » وإنما تسمعه ، ولا تتصور « الرائحة » وإنما تشمها فعلا .

ويظهر من تحليل الأحلام أن الكثير من مادتها مشتق من الحياة الجارية ، ومن ذكريات الطفولة . ولذا فدراسة الأحلام تهيء لنا الفرصة لمعرفة خفايا اللاشعور ، ومايزعج العقل الباطن فى وقت ما ، ومايرتبط به من انفعالات وخواطر .

ولزيادة الإيضاح نروى الأحلام الآتية مع محاولة تفسيرها .

١ — رجل متزوج يعرف رجلا آخر له زوجة أجمل من

= شرور العالم الخارجى ، تضع أصبعها فى فمها ، وتهذى هذيان الأطفال كى تنجو مما لاتحب . وهى بهذا تتراجع إلى الطفولة . والشاب الذى يأبى إلا أن يكون كلا على البيت ، لايقوم بغير اللعب ، ويتحاشى العمل ، إنما يتقهقر إلى الطفولة ، لأن الرجولة تبدو له ثقيلة على نفسه . ونحن نرى أن مثل هذا الرجل عضو غير نافع فى المجتمع ، وإن تمادى فى ذلك أصيب بنوع من الجنون . ومن الأمثلة الشهيرة لهذا التراجع ذلك الجندى النمساوى الذى أصيب بارتجاج شديد فى الحرب العظمى ، فتراجع فى تصرفاته إلى طفل عمره عام ونصف العام ، وأخذ يزحف على أطرافه ويهذى هذياناً أبعد ما يكون عن الكلام المفهوم ، ويلعب بالصور ، ويسر من رسوم الحيوان ، ويطلق عليها مسميات الأطفال .

زوجته . رأى هذا الرجل يوماً جبلا شاهقاً ، وأن بجانب الجبل كهفاً ، وأنه وقف إلى جوار الكهف ، وظن أن الكهف هو قبر نابليون فى «سنت هلناً» ، وكان اسم زوجة صديقه «هلن» . فى هذا الحلم دليل على حبه «لهلن» ، ولكن الفتاة لم تظهر له فى الحلم كى لايحس بوخز الضمير ، إذ قد لايفهم معنى الحلم بعد يقظته ، رغم أن العقل الباطن قد قضى بالحلم مأربه . ومثل هذا الحلم نافع لصاحبه لأنه يطفىء بعض شهوته بطريق لايحاسبه عليها العرف والأخلاق

٢ — رأى رجل أنه يسكن إلى جانب بحيرة ، وأن على سطح البحيرة زورقا لايتسع لغير راكب واحد ، وأن الزورق قد انقلب وغرق راكبه فى لجة الماء (وكان فى اليوم السابق يقرأ شيئاً عن حياة الصيادين) . وبالبحث مع هذا الرجل ظهر أن له ابنا واحداً ، وأن هذا الابن كان متغيباً فى رحلة مدرسية ، وكان يخشى أن يكون ابنه قدمات لسبب ما . وقد رآه فى النوم فعلا وقد غرق ، لأن الشعور كما ذكرنا من قبل مزدوج دائماً . فالأب يحب ابنه ويخشى عليه من الموت ، ولكنه يكره فيه من ناحية أخرى منافسته له فيحقق رغبته فى التخلص منه بهذه الوسيلة فى الرؤيا .

٣ — شاب يحب أمه حباً جماً ، ولكنه رأى فى نومه أنها قد ماتت فهل هو يحقق بذلك رغبة فى نفسه ؟ أجل ، ولكن هذه الرغبة التى يحققها فى سن الشباب مندسة فى نفسه من أيام الصبا ، حين كان لايعقل كثيراً ، ويتمنى لأمه الموت لأنها تضربه تأديباً له .

٤ — رسب طالب فى الامتحان ، وكان يتمنى أن يكون له « ملحق » فرأى أنه اشترى قماشاً ، وأن القماش لم يكف رداء له ، فاشترى « ملحقاً » للقماش يكمل به الرداء . وفى هذا الخلط اللفظى مثل من أمثلة الاستبدال ، فى الأحلام

٥ — روى تلميذ صغير يتعلم الكتابة أنه كتب اسمه فى الحلم خمس مرات . وتأويل هذا الحلم أن الطفل يحب أن يتعلم كيف يكتب اسمه ، وقد حقق هذه الرغبة فى الحلم . وقد تسأل ولماذا كتب اسمه « خمس مرات » ؟ وقد يكون ذلك لأن أباه أعطاه خمسة مليمات فى صباح اليوم الذى رأى فيه الحلم

ومما يجدر ذكره هنا أن بعض الأحلام قد عرضت على أطباء مختلفين للتحليل فاختلفوا فى التفسير . ويرى بعض الناس أن فى هذا دليلا على أن تحليل الأحلام لاقيمة له ، وهذا خطأ لا شك فيه ، فليس معنى تفسير القصص الدينية على صور مختلفة أن القصص الدينية لا مغزى لها ، فليس الحلم بالأمر الواقع الذى يمكن تفسيره بسهولة ، إنما هو أمر معقد ينطوى على معان كثيرة . وعالم التحليل ، الذى يظن أن الغريزة الجنسية هى صاحبة السلطان ، يرى رموزاً جنسية ، بينما قد يجد غيره رموزاً للقوة . ولكن بما أن الغريزتين ماهما إلا صورتان مختلفتان لقوة واحده ، فإن طريقة التحليل ليست بذات أهمية . هذا إلى أن بعض مفسرى الأحلام يهتمون بالصوره الباطنة ، بينهما يهتم الآخر بما يرمز إليه الحلم . وكما أن الصورة لا يفهمها على

صحتها الا مصورها (والمعنى فى بطن الشاعر) فكذلك الحلم لايعلم مايرتبط به وما يشير إليه الا صاحبه .فالمحلل إذن مرشد فقط ، وهو يقترح التأويل ، وللمريض وحده أن يقبله أو يرفضه ، ولا يتوقف صدق التحليل على عقيده المحلل ، وإنما على ثقة الحالم نفسه .

17 SEP 1997

الاستهواء

من الثابت فى علم النفس ان العقل والجسم بينهما علاقة وطيدة ، فالخائف قلبه ينبض رعبا ، والمريض لا يستطيع أن يفكر تفكيراً جدياً . وليس هذا مجال التبسط فى هذا المبحث ، وإنما يكفينا أن نشير إليه إشارة خفيفة لما ينبنى عليه من حقائق فى التحليل النفسانى . يقول علماء التحليل إذا صح أن توهم الموت يؤدى الى الموت فعلا ، فلماذا لا تؤدى العقيدة فى سلامة البدن الى الصحة والعافية . ولدينا دليل قوى فى أثر الطلاسم والرقى على العامة الذين يعتقدون فيها ، وأثر الأولياء على كثير من المرضى . تؤثر هذه الأوهام فى العقل الباطن فتفعل فعلها وتظهر نتائجها على الجسم . ولامراء بعد هذا فى أنك إن قلت لرجل صحيح البدن ، سليم الأعضاء ، إنه عليل ، وكان فى قولك من التثبت والتأكيد ما لا سبيل إلى الشك فيه ، اعتقد الرجل فى مرضه وأحس به فعلا ، وبخاصة إن كان المتكلم طبيباً له نفوذ فى هذه الناحية على عقل المريض . ولو قلت لرجل مريض إنه يطرد فى التحسين ، وإن قوته تزداد ، والصحة تبدو عليه ، وكررت له ذلك فى لهجة الصدق ، كان لكلامك تأثير يؤدى إلى شفائه ، وبخاصة إن كنت ممن يعتقد فيهم . ومن ثم كان أثر الوالدين شديداً على أبنائهم لأنهم يكررون لهم منذ طفولتهم

كثيراً من الآراء مما يشق انتزاعه فيما بعد ، والطفل - كما نعلم - شديد الثقة فى والديه . فللتكرار إذن من الأثر ما هو أقوى من الإقناع بالمنطق ، وتقوم الإعلانات التجارية على هذا الأساس ، فهى كاذبة فى كثير من الأحيان ، ولكن كثرة وقوع العين عليها يؤدى إلى الثقة فيها والتصديق بها . والزعماء والخطباء يلجأون إلى هذه الوسيلة عينها لأنهم أعلم بنفسيات الجماهير، فيعمدون إلى تكرار الرأى فى صور مختلفة ، ولا يحاولون تعزيزه بالعقل والمنطق . ولقد كان الدكتور « بودوان » يعالج مرضاه بقوة الاستهواء الذاتى فينصح للمريض أن يلهم نفسه بما يريد ، ويكرره صباح مساء ، حتى يحقق رغبته . وتقوم نظرية التنويم المغناطيسى على هذه القاعدة عينها ، إذ أن المنوم يطلب إلى مريضه أداء عمل معين ، فيقوم به هذا دون تفكير . ولا شك أن الاستهواء أشد ما يكون أثراً فى الحالات التى يكون العقل الواعى فيها قليل التيقظ ، وذلك فى الغالب قبيل النوم وبعيده . وكثيراً ما يتوهم أحدنا أن الطقس بارد فيبرد ، أو أن الجو حار فيتصبب منه العرق . وللوهم أثر كبير ، فقد يتوهم الرجل أنه شجاع فيتشجع فعلا . وإنا ننصح للحزين أن يتوهم السرور، وللخجول أن يتوهم الإقدام فيقدم .

ومن المبالغة أن نقول إن الإيحاء يشفى جميع الأمراض ، وإنما هو أشد ما يكون نجاحا فى الأمراض التى نشأت عن علة فى النفس، أو فى الأمراض النفسية كاعتقاد الطفل فى غبائه ، أو الرجل فى

ضعفه ، اعتقاداً لا أساس له من الصحة .

ومما سبق تتبين أهمية المعتقدات وتأثيرها فى النفوس . ونحن على ضوء هذه الحقائق نوصى بالاهتمام بدراسة الدين فى سن الطفولة، حيث نثبت المبادىء السامية فى ذهن الناشىء كى يعمل على التمسك بها فى حياته . ونجاح الأنبياء فى رسالاتهم يعزى إلى قوة عقيدتهم التى لا يعتريها الشك . وما يصدق عليهم يصدق على كبار القادة والزعماء .

والمرء لا يتأثر بإيحاء فرد معين فحسب ، وإنما هو يتأثر كذلك بالعقائد السائدة والأمثال الشائعة ، كما يتقيد بالعرف والعادة ، ويميل إلى التقليد . والواقع أن فى ذلك خدمة كبيرة للمجتمع ، إذ لولا ذلك لتفككت الجماعة وسار كل منا على نهجه الخاص . ونحن إذ نقلد غيرنا من أفراد المجتمع الذى نعيش فيه لا نفكر ، ولا نعمد إلى تأييد المنطق . وكلما ضعفت مقاومتنا للرأى نجح الاستهواء ، ومما يساعد على نجاحه أن يصادف قوة وجدانية من فرح أو غضب أو حماسة . ولذا فإن قوة الاستهواء وقابلية الناس له تختلفان اختلافاً كبيراً باختلاف الناس واختلاف الأحوال . وكما تؤثر فينا الآراء السائدة وأصحاب النفوذ ، تؤثر فينا الصحف والمجلات والصور والكتب . ومن ثم وجب ألا ينشر من الكتب إلا ما يعمل على رفع المستوى الخلقى وما يقدم مثالا عالياً فى الحياة . وقد أصابت الحكومة إذ حظرت على الصحف نشر أخبار الانتحار ، لأنه شوهد أن مثل هذه الأخبار توحى لكل من يصيبه هم أن يتخلص من الحياة بالموت .

وأساس الاستهواء هو ان كل فكرة تخطر بالبال لا تبقى مجرد صورة قائمة فى الذهن ، بل تتحول بطريقة لا شعورية إلى اعتقاد أو عمل . فكل فكرة بها قوة كامنة فيها تجعلها تتحول إلى عمل أو إلى نزوع إليه على الأقل ، فهى إذن بداية عمل . وأثر ذلك يتجلى واضحاً فى الأطفال ، وفى من يقرب من الفطرة والبداوة ، فإنه لايكاد يخطر بفكر أحدهم خاطر حتى يرى أثره بادياً فى ملامحه أو فى أعماله ويظهر ظهوراً تاما ، فغالب أعمالهم اندفاعية . فى حين أنه يقل وضوحاً عند الإنسان المتحضر الراقى لأن المجتمع وتقاليده ، وسلامة المرء ، تقتضى منه أن يكتم فى نفسه كثيراً من الآراء والغرائز والعواطف . هذا وإن عقل الإنسان المتحضر مشحون بكثير من العادات والآراء التى اكتسبها من بيئته وتربيته ، فتقف فى سبيل غيرها ، ولا تحتم على المرء أن يقبل كل مايوحى إليه به . ومع ذلك فكل منا يحس أثر ذلك فى كثير من الظروف ، فإن تذكر نغمة موسيقية يدفعنا إلى ترديدها أو تحريك قدمنا . فأثر التفكير والرغبة يظهر فى عمل المرء وحركاته ، فإذا ماشعرت بأن القلم وقع من يدك انحنيت لالتقاطه ، وإذا أحسست بدنو ميعاد ما أخرجت الساعة وإذا أحسست بحرارة الحجرة فتحت النافذة ، فتصور الفعل يدفع إلى الفعل نفسه

وقابلية الاستهواء عامة بين الناس ، فهى ميل فطرى فينا يتصل اتصالا وثيقاً بغريزة الجماعة . وهذه القابلية تختلف قوة وضعفاً

17 SEP 1957

حسب الظروف والأحوال التى تمنع الآراء المعارضة من الظهور فى الشعور ، أو التى تعين على ظهور الآراء والانفعـــالات المؤيدة وحدها . فكأن مجرى الشعور فى الاستهواء يضيق حتى لا يبقى فيه إلا ما يؤيد موضوع الاستهواء ويزيده قوة . فإن ما يحدث هو انفصال الآراء والذكريات والعواطف المعارضة للفكرة المدعى بها ووقوفها موقفاً سلبياً ، فى حين أن الآراء والانفعالات المؤيدة هى التى تكون بارزة فى الشعور ومتخذة موقفاً إيجابياً . فالقابلية للاستهواء تكون عظيمة إذن عند الجهل بموضوع الاستهواء ، وقلة الخبرة به ، أو عدم وجود معلومات منظمة عنه ، وعند الأطفال لشعورهم بضعفهم وبقوة مدرسيهم أو آبائهم ، وعند ضعاف الثقة فى أنفسهم ، والمتهورين والعصبيين ، وفى الجماعات ، لأن الإنسان وسط الجماعة يكون أشد ميلا إلى قبول مايوحى إليه به غيره منه إذا كان منفرداً ، وعند ما تكون حالة المرء النفسية ملائمة للموضوع الذى يراد استهواؤه إليه . فإن كنت تتردد فى شراء شىء لارتفاع ثمنه ، ثم أغراك البائع بجودة الصنف اندفعت إلى الشراء دون تفكير ؛ وعندما تنقص قدرة المرء على حكم قواه العقلية من جراء التعب العقلى أو البدنى أو المرض أو اليأس وتشتت الفكر ، أو فى التنويم المغناطيسى ، حيث يكون خضوع المرء لإرادة غيره شديداً جداً .

وتكون قوة الاستهواء كبيرة إذا كان الموحى شخصاً له قيمته ، أو له مكانة عالية . فالاستهواء قوى إذا صدر من رئيس إلى مرءوس ،

أو من مدرس إلى تلاميذه ، أو من الغنى إلى الفقير . ويكون الاستهواء شديداً كذلك إذا صدر من شخص له ثقة فى نفسه ، وإذا تكرر ، وإذا قيل فى صيغة الإثبات لا صيغة النفى ، لأنا بالنفى نثير فى الموحى إليه قوة المعارضة ، وإذا قيل فى صوت قوى له رنين حتى يسلس قياد المستهوى ولا يجد فرصة للمقاومة ، وإذا كان الأمر لايخرج على العرف وتقاليد المجتمع .

والاستهواء - كما ذكرنا من قبل - إما يصدر من شخص أو من شىء أو موقف أو جماعة ، فهو تأثير العوامل الخارجية فى شخص ما ، كتأثير المدرس فى تلاميذه ، أو الطبيب فى مريضه ، أو الكتاب فى قارئيه . وإما يصدر من ذات الشخص ، وبوساطته يستطيع المرء أن يتغلب على أهوائه وميوله الجامحة ، ويوجه سلوكه وإرادته إلى الخير والعمل ، كما أن به يمكن التغلب على كثير من الاضطرابات العصبية . ولكن من جهة أخرى كثيراً ما يكون سبباً فى مثل هذه الاضطرابات ، وفى الضعف والتردد والخوف والفشل ، فالمرء قد تخطر له فكرة ما ثم تتملكه ، وتؤثر فى نفسه ، وفى صحته ، فتدفعه إلى الضعف والشر أو المرض ، فإذا تملكه الحزن أو اليأس ، أو فكرة المرض ، أو العجز عن تأدية عمل ما ، واسترسل الإنسان فى أفكاره هذه ، واستهتر بها ، فإنها لاتلبث أن تنعكس كلها فى أعماله وتؤثر فى جسمه التأثير السيء ، فالمرء يعمل على نجاحه أو فشله ، سعادته أو شقائه ، بيديه . ولذا يعتقد كثير من علماء النفس بحق أن

17 SEP 1987

السرور يجلب السرور ، والثقة فى النجاح خير سبيل تؤدى إليه ، كما أن الاعتقاد فى الشفاء من داء معين كثيراً ما يساعد على النجاة منه . فالاستهواء الذاتى قوة كبيرة لدى الإنسان ترفعه أو تهوى به : وبوساطته يتسنى للمرء أن يربى نفسه بنفسه من جديد ، ويعلمها طرازاً آخر من السلوك غير الذى ألفت .

ويستحسن ألا يكون الاستهواء مباشراً كى لا تثير فى الموحى إليه قوة المعارضة ، وإنما خير لك أن تسوق الإيحاء فى قالب مستور .

وقابلية الأطفال للاستهواء - كما ذكرنا من قبل - كبيرة ، وتبلغ أقصاها كما يقول Thorndike حوالى السنة التاسعة ، وذلك لقلة ما لديهم من الآراء والأفكار المنظمة التى ينتظر أن تقف فى سبيل ما يلقى فى نفوسهم . هذا إلى سعة خيالهم ، وشعورهم بضعفهم ، وبقوة آبائهم أو مدرسيهم ، واحترامهم لهم ، وثقتهم فيهم ، واجتماعهم تلاميذ فى فصل واحد ، أو فى مدرسة واحدة ، وعدم قدرتهم على التمييز والتفكير والنقد : فهم ينقادون لما يقول المدرس أو يعمل ، ويقلدون البيئة المحيطة بهم - اجتماعية كانت أو طبيعية - وقدرتهم على كف أنفسهم ، وإخفاء آرائهم وعواطفهم ضئيلة ضعيفة . فإذا تكرر إيحاء فكرة سامية إليهم ، استقرت فى نفوسهم وأصبحت عقيدة ثابتة لديهم . ومن هذا يتضح مقدار القوة التى فى أيدى المدرسين والآباء . فى استطاعتهم التأثير فى نفوس التلاميذ الصغار ، وتشكيل أخلاقهم إلى حد كبير ، فينفثون فيهم روح العمل والرجولة ،

والاستقلال الذاتى ، وقوة الإرادة ، ومحبة الخير للفرد وللوطن ، كما يستطيعون أن ينفثوا فيهم جمال الذوق ورشاقة التعبير.

ويجب ألا يغفل عن الأذهان أن الاستهواء ليس مقصوراً على الإرشاد المباشر باللفظ والعبارة ، بل إن الأعمال المختلفة والموقف الذى يقفه المرء ، والقدوة ، والبيئة بكل مافيها من عوامل القوة والضعف ، لتستهوى الناس إلى الخير ، أو إلى الشر . فإذا أردنا أن نحمل الأطفال على المطالعة والنظافة وحسن الهندام ، والنظام ، فليكن كل شىء فى المدرسة ، أو فى البيت ، يوحى إليهم بذلك من تلقاء نفسه . فاذا رأى التلاميذ النظام فى مدارسهم مرعياً ومطلوباً ، والنظافة بادية فى كل شىء ، والمدرسين مهتمين بأعمالهم ، وبمستقبل من ألقتهم الظروف وديعة فى أيديهم ، كل منهم قدوة حسنة فى اقامة العدل ، والاستمساك بالحق ، وفى حب العلم ، وفى الرجولة ومحبة العمل ، فإنهم لايلبثون أن يتأثروا بمن يرون ، وتمتلىء نفوسهم بالروح العالية التى تعم جو المدرسة الصالحة . فكل مدرسة ، وكل أسرة ، تتميز بروح خاصة ، تسرى إلى كل أفرادها ، وتوحى إليهم النبل والشرف والطاعة والنظام ، أو الخبث والمكر والفوضى .

وتقل قابلية الاستهواء تدريجاً وبانتظام كلما تقدم الأطفال فى السن ، وهذا طبيعى ، فتقدمهم فى السن يصحبه ترق فى العقل والخلق وقدرة على النقد والتمييز . ولذلك يزداد واجب المدرسين صعوبة ، ويبدو أثر ذى الشخصية القوية منهم ، القادر على فهم التلاميذ

17 SEP 1987

واستهوائهم إلى مايريده . فضعف القابلية للاستهواء فى التلاميذ يستدعى أن يكون لدى المدرس قسط كبير من القدرة عليه ، ومن الخبرة ، وأصالة الرأى ، حتى لايصدم التلاميذ بأقواله وأفعاله ، فيجعلهم ينقلبون عليه ،ويناقضون كل عمل يأمرهم به .

وتزداد هذه القابلية فى الأطفال وهم مجتمعون فى الفصل أو فى المدرسة ، ولذلك يجب أن تكون الروح الغالبة على المدرسة روح نظام وعمل وأخلاق سامية ، كما يجب أن تكون العناية باختيار المدرسين والمدرسات كبيرة ، حتى لايقع نظر التلاميذ إلا على كل قدوة حسنة ، يحاكونها فى سلوكها وآرائها ، ويستوحون نفسها العالية فى كل مايعملون ، فالتلاميذ يتأثرون بما يعمل المدرس أكثر مما يتأثرون بما يقول

ومن هذا يتضح أن تربية التلميذ فى مدرسة منظمة طيبة ، خير من تربيته فى البيت تربية فردية بعيداً عن تأثير المدرسين وتأثير الجماعة ، كما يفعل بعض أفراد الطبقة العليا ، وهم مخطئون .

وهناك طائفة من العلوم تدرس بالمدارس والقصد منها الإيحاء بالمثل العليا وبث الفضائل النفسية والاجتماعية ، كالتاريخ وآداب اللغات والتربية الوطنية والقصص والأخلاق والدين . فكلها تدرس لغرض أسمى من معرفة الحوادث والألفاظ المصاغة فيها .

السهو والنسيان

لقد كثر الكلام فى هذا الباب من علم التحليل النفسى أخيراً ، ولما كانت الأمثلة فيه ميسورة مألوفة لكل منا تقع كل يوم ، وهى مظاهر مفهومة لمشاكل نفسية أشد تعقيداً مما يبدو عليها ، وجب أن نتحدث عنه بشىء من التفصيل حتى يتضح فى الأذهان ويقل التخبط فيه .

ويشمل هذا الموضوع ضروب الزلل المختلفة التى يقع فيها العقل أثناء إشتغاله كل يوم : زلات اللسان ، وزلات القلم ، ووضع الأشياء فى غير مواضعها ، وما إلى ذلك . ويمكن تشبيه هذه الأخطاء بأعراض النورستانيا البسيطة . وتشترك كلها فى صفة واحدة : فهى إضطرابات مؤقتة ، واختلال فى وظيفة من وظائف العقل ، يؤديها المرء بنجاح فى أوقات أخرى . وكثيراً ما يدرك الخاطىء خطأه بمجرد توجيه الإنتباه إليه . ونحن عادة لانأبه لأمثال هذه الزلات ، ونؤولها بعدم التنبه ، أو المصادفة العمياء ، أو ما شابه ذلك .

ولكن فرويد يقول إنها نتيجة لعمليات عقلية لايدركها المرء أثناء حدوثها . وهى دليل من الأدلة التى يسوقها على أن الإنسان ليس له إرادة مطلقة فيما يفعل ، مهما كان الفعل تافها . ويتفق فرويد فى هذا مع الرأى الشائع الذى وصل إليه العامة باليديهة . فإنك إن ضربت موعداً لصديق لك ولم تف بوعدك واعتذرت بالنسيان

17 SEP 1987

لم يلق اعتذارك قبولا . بل قد تضاعف بمثل هذا العذر من غضب صاحبك . وإن اعتذرت بكثرة الأعمال فربما قال لك « ولماذا لم تعتذر لى بها من قبل ؟ كلا . إنى أفهم إنك لم تعد تكترث لى كما كنت تفعل من ذى قبل » . ونحن نعرف كذلك أن الزوج إذا أهمل خدمة زوجته ولم يوفها ما تطلب ، أولت ذلك بتحويل قلبه عنها ، ولم تقبل منه معذرة ما . وقد تنسى اسم واحد من معارفك ، فإن أدرك منك ذلك غضب فى نفسه كيف تتجاهله إلى هذا الحد ، وكان يتوقع منك أن تذكر إسمه دائماً . وإن ناداك رجل بغير إسمك عرفت أن قيمتك لم ترتفع فى عينيه إلى حد يجعل إسمك دائماً نصب ذاكرته . هذه أمثلة نمارسها كل يوم ، ونعلم أنها ليست ساذجة كما تبدو ، وإنما هى تدل على طوايا النفس وخفاياها .

والعلاقة إذن واضحة بين هذه الهفوات وأشباهها ، وبين العواطف المكبوتة فى العقل الباطن . إنا حين ننسى شيئاً كان ينبغى لنا أن نعرفه حق المعرفة نخطىء خطأ لامبرر له فى نظرنا وفى نظر غيرنا.

ولكن هناك فى الواقع دافعا معينا يدفعنا إلى عدم التذكر ويرغبنا فى النسيان ، وقد يكون هذا الدافع لا شعورياً محضا ، فيعارض المحاولات الشعورية التى يبذلها المرء فى التذكر . وقد يتصل الدافع اللاشعورى بالشىء الذى تريد تذكره اتصالا مباشراً ، كأن يكون حلقة من سلسلة أفكار لا تريد إحياءها ، كأن تنسى مثلا عنوان رجل لأنك تبغضه . ولكن الدافع كثيراً ما يكون مرتبطا بفكرة

أخرى ، أو بسلسلة من الخواطر ترتبط بالذكرى التى أنت بصددها ، كأن تنسى إسم صديق لك لأنه يشابه اسم رجل آخر تبغضه .

ولذا فالنسيان حركة عقلية تتم فى العقل دون شعورنا بها . وتحليل النفس يظهر الدافع الخفى ويخرجه إلى حيز الشعور . وإذا اشتدت هذه الظاهرة برجل ما ، وبات كثير النسيان ، كان هذا عرضا من أعراض النورستانيا أو الهستريا . وقد يمتد النسيان إلى ذات الشخص فينسى شخصيته وتاريخه الماضى ومسكنه وما إلى ذلك مما يتعلق به شخصياً .

النسيان إذن مقصود يمليه دافع يرمى إلى عدم معرفة جانب من جوانب النفس . ونحن ننسى ذكريات الطفولة أوجانباً منها على الأقل - رغم علمنا بغنى هذه الفترة من الحياة بالتجارب العقلية المعقدة ، وأهميتها فى توجيه سلوك المرء فى المستقبل — ولا نذكر منها إلا التافه قليل الأهمية ، فما علة ذلك ؟ لعل السبب يرجع إلى أن الطفولة عامرة بالذكريات ، ومنها البغيض ومنها المحبب إلى النفس ، وكلها مشتبك بعضها ببعض ، تنحدر إلى اللاشعور فيعدل فيها ويبدل ، ولا يبرز منها إلى الشعور إلا مالاضرر منه ، ومايصلح ستاراً للآراء الذميمة التى لانحب تذكرها . ومثال ذلك ما يرويه رجل من من أنه يذكر أنه حينما كان فى الخامسة من عمره يتعلم حروف الهجاء ، سأل عن الفرق بين «ل» و«لا» فقيل له أن «لا» بها حرف «ا» زيادة عن «ل» . وبعد التحليل ظهر أنه فى هذه السن

17 SEP 1987

عينها — سن الخامسة — كان كذلك يتساءل عن الفارق بين الولد والبنت وأدرك أن الفارق هو أن الولد يزيد على البنت بعضو من الأعضاء ، فاختلطت هذه المعرفة بتلك . ولما كانت الأولى نزيهة ساذجة ، والثانية تدعو إلى الشك والريبة ، اتخذ — بعد نضوجه وبلوغه سن الرشد — الذكرى الأولى ستاراً للذكرى الثانية . ومن ثم كان تذكرة لما هو قليل الأهميه دون المهم . وقد تتخذ ذكريات الطفولة التافهة كذلك ستاراً نحجب به التجارب البغيضة التى نمارسها فى سن الرشد ، ونقذف بها إلى اللاشعور لأنا لانريد تذكرها

والنسيان فى معظم الأحيان ليس نسياناً مطلقاً تاماً ، أى أنا قد ننسى من الشىء بعضه ونذكر بعضه الآخر . وكثيراً مانقع فى النسيان إذا شرعنا نتحدث فى موضوع قبل أن نفرغ من موضوع آخر ، فينسى المتكلم فى الموضوع الجديد بعض ما فيه ، ويخلطه بحقائق الموضوع السابق له . فان كنت مثلا تتحدث عن باب التعليل فى علم المنطق ، ثم سكت عنه قبل أن تتحدث بكل ما تريد ، ثم شرعت تتكلم فى موضوع آخر يتعلق بصديق لك إسمه «عبد الكريم» فانك قد تنسى اسم هذا الرجل ولاتذكر منه إلا «عبد» ثم تغيب عنك لفظة «الكريم» وتذكر بدلا عنها «العال» ، فتسمى الرجل خطأ «عبدالعال» والسبب فى هذا الإسم الجديد أنك خلطت بين موضوع الحديث الأول وموضوع الحديث الثانى ، فأخذت «العين واللام» من كلمة «التعليل» وأدخلتهما على إسم الشخص الذى أردت أن تذكره

وقد تنسى الشيء — كما ذكرنا من قبل — لأنه يرتبط بشيء آخر لاتحب أن تذكره ، فقد تريد أن تروى هذا البيت :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل

فتذكر صدر البيت ، ويغيب عنك عجزه ، لأن رداءك الذى ترتدى ممزق قذر ، وعجز البيت يذكر الرداء الجميل ، فيرتبط هذا بذاك وينحدر الى هوة النسيان ، لأن عقلك الباطن لا يريد أن يذكره بيت الشعر برداءة ملبسك ، أو قد تنسى عجز البيت لأن حبيبتك حين هجرتك كانت ترتدى رداء جذب منك النظر ، وأنت لا تريد أن تذكر رداءها كى لا تبعث فى نفسك آلام العشق الذى لم تواتك فيه معشوقتك .

وإليك أمثلة أخرى من النسيان تدل كلها على أنا لا ننسى اغتباطا ولكن لغرض فى النفس دفين .

قد تنسى اسم رجل تعرفه تمام المعرفة ، وذلك لأن اسمه كاسمك وأنت أنانى تحب أن تنفرد بهذا الاسم وحدك .

أعرف مدرساً يتردد كثيراً على طبيب اسمه « الدرس » للعلاج وكلما حاول أن يذكر اسم الطبيب خانته ذاكرته ، لأنه يكره عمله ويكره إلقاء « الدروس »

يحب علىّ فتاة ، ولكنها تزوجت من صديقه احمد ، فكثيراً ما ينسى علىّ اسم صاحبه لأنه حرمه الزواج من معشوقته

فنحن إذن ننسى كى نتحاشى ماقد يتسبب لنا من آلام نفسية ،

17 SEP 1987

لأن الشيء المنسى قد يتصل بشيء بغيض ، أو يتصل بما يتصل بشيء بغيض . فأنت تنسى أن تدفع ماعليك من دين ، ولكنك أبداً تذكر مالك من مال عند غيرك . والنسيان معد ، فان مجرد قولك لشخص يتحدث إليك إنك نسيت كذا يصيبه بعدوى النسيان فينسى هو كذلك ما نسيته أنت . وكذلك قد تنسى شخصاً ما فتصيب عدوى النسيان شخصاً آخر يتصل به ، وعبثاً تحاول أن تذكره

ومن الأمثلة المعروفة التى تتعلق بالرغبات المكبوتة انك قد تنسى إلقاء خطاب ما فى صندوق البريد . وذلك إما لأنك تكره محتويات الخطاب بنصها ، أو تكره ما تمت إليه ، أو لأنك على عجل ، وإن عرجت على صندوق الخطابات فاتك موعد ما فيغيب الخطاب عن ذاكرتك . ومن الناس من عرف عنهم أنهم لايتذكرون القاء الخطابات فى حينها مطلقا ، وتعليل ذلك أن غريزة الملكية فيهم قوية فهم لايحبون البتة أن يفقدوا شيئا ما بحوزتهم . فى الواقع الخطاب عديم القيمة إلا أن العقل الباطن لايفرق بين ماله قيمة وما ليس له . وما أشبه هؤلاء بأولئك الذين لا يعيدون الكتب التى يستعيرونها فى موعدها مطلقا . هذا حب منهم للملكية صريح ، وإن كانوا لايدركونه ، وهم صادقون ، لأنهم بخفايا نفوسهم جاهلون .

ومن المعروف كذلك أن الأحلام تنسى بسرعة ، وذلك لأنها فى الكثير الغالب تتنافى والعقل الواعى ، فتندس فى اللاشعور . ولذا فان خير وقت لتذكر الحلم هو عند اليقظة مباشرة ، حينما يكون العقل الواعى قليل التنبه .

ومن أسباب النسيان أن يكون الموضوع الغائب عن الذهن متصلا بعامل خفى بغيض الى النفس ، ومن أمثلة ذلك مايأتى :

١ — أردت مرة أن أتوجه الى بائع حقائب أعرف محله ، وترددت عليه كثيراً قبل ذلك ، ولكنى لم أجده هذه المرة ، وعبثاً حاولت أن أبحث عنه . وقد تبين لى فيما بعد أن السبب يرجع الى أن المحل فى عمارة تقطن بها أسرة أكرهها وأمقتها . ولذا فقد كنت بعقلى الباطن أريد أن أنسى العمارة وكل من فيها ، فضللت سبيلى الى بائع الحقائب

٢ — احتفظت مرة بقائمة كتب كى أرجع اليها حينما أريد ، ولكنى نسيت أين وضعت القائمة ، وبالتحليل فيما بعد عرفت أن بالقائمة كتاباً لمولف قيل لى مرة إنه يفكر ويؤلف على طريقتى وأسلوبى ، فاردت أن أتعرف اليه ، ولكنه راوغنى ولم يتصل بى ، فكرهته ، وأردت لاشعورياً أن أخفى كل مايتصل به

٣ — روى لى رجل أن زوجه أعطته فى يوم من الأيام كتاباً وطلبت اليه أن يقرأه ، وكان لايعرف فى زوجه اخلاصها له ، فلم يأبه لمطلبها ، وطرح الكتاب جانبا ولم يتصفحه ، بل ونسى موضعه . وذات يوم مرضت والدة الزوج وقامت الزوجة بخدمة الأم خير قيام ، فقدر الرجل فيها هذه العاطفة النبيلة ، وسرعان ما وجد الكتاب المفقود دون جهد ، والتعليل واضح فى هذا المثال .

٤ — روى لى تاجر أنه كلما أراد أن يضع فى خزانته مالا الفى

17 SEP 1987

المفتاح فى جيبه دون عناء ، وإذا أراد أن يخرج منها نقوداً افتقد المفتاح وقد لايجده أياماً عدة .

٥ — يقول « ارنست جونز » Ernest Jones العالم النفسى الشهير إنه يدخن الغليون ، وانه يفتقدها أحياناً ، وكلما فعل ذلك بحث فى نفسه عن السبب فوجد أنه فى ذلك الحين كان يرى أنه أدمن فى التدخين وقد يصيبه الضرر ، وان من الخير له أن ينقطع عن التدخين ، فيقوم اللاشعور بما عجز عنه الشعور .

٦ — قلت لأخى مرة : « ألا تعلم أن أسباب النورستانيا كلها صراع فى العقل الباطن ؟ » فقال : « لقد قلت لك بذلك منذ سنين » ولكنى لم أذكر قوله ؛ لأنى لم أرد أن يكون هو أسبق منى إلى العلم بالحقائق . ولقد ثبت لى صدقه بعد أيام .

وقد تعزم على أداء شىء فيصيبك النسيان ، ومن أمثلة ذلك أن يفوتك موعد ضربته من قبل ، ولذا فمن قواعد الجيوش أنها لاتقبل النسيان معذرة عن التقصير ، لأنك إن نسيت أمراً هاماً فمعنى هذا أنك تنظر إليه فى دخيلة نفسك على أنه تافه لا يستحق العناية . ومن ثم وجبت العقوبة فى الجيوش وفى المدارس على النسيان .

وقد لا يكون الباعث على النسيان مباشراً ، فقد يصلك مثلا خطاب ما يتطلب منك رداً حاسماً ، ولكنك ماتدرى ماتقول ، فتنسى الرد على هذا الخطاب ، وعلى غيره من الخطابات .

ومن الهفوات الشائعة الخطأ فى اللفظ قولا أو كتابة ، ولها

جميعاً أسباب لاشعورية ، وإليك أمثلة منها : ـ

١ ـ جاء إلى الطبيب يوماً رجل يخشى العدوى من الحمى فقال : « انتشر الخوف فى قريتنا أخيراً ، فماذا عساى فاعل للوقاية ؟ » ، وهو إنما يريد أن يقول « انتشرت الحمى فى قريتنا . . . » ، ولكنه أخطأ واستبدل « بالحمى » « الخوف » ، وليس هنا علاقة لفظية بين الكلمتين ، ولكن الخطأ يرجع إلى ارتباط الحمى بالخوف فى ذهنه .

٢ ـ ومن أنواع الخطأ فى هذا النوع ما يشبه عملية « التركيز » فى الأحلام ، أى أنك تأخذ بعض الأحرف من كلمة فى اللاشعور وتخلطها ببعض الأحرف الأخرى فى كلمة أخرى تريد النطق بها ، كأن تقول مثلا « المداء » ، وأنت تريد أن تقول « المداد » ، ولكنك مريض تفكر فى « الدواء » ، فاستعرت الهمزة من كلمة الدواء واستبدلتها « بالدال » فى « المداد » . وقد يحدث ما يشبه هذا فى الكتابة فتكتب مثلا « تفسير الأحلام » هكذا « تفسلا حلم » ، وذلك لأنك متعجل فى الكتابة ، ويظن عقلك الباطن لسذاجته أن طريقة العجلة هى أن تحذف بعض الأحرف من كل كلمة وتنتهى هكذا .

٣ ـ وقد يفضح قولك ما بنفسك ، فقد يأتيك زائر فترحب به قائلا « مع السلامة » ، وأنت تريد « أهلا وسهلا » ، ولكنك تود بكل نفسك أن يرحل عنك هذا الرجل . يروى عن رئيس مجلس النواب فى النمسا أنه قال مرة « أعلن انتهاء الجلسة » ، وهو يريد

17 SEP 1987

« افتتاح الجلسة » وذلك لأنه يجب أن ينتهي من العمل .

٤ — هل تريد أن تقول « للقرد منظر مضحك وهو يقرض الطعام » فتقول « للقرض .... » وفي هـذا الخطأ « تركيز » للفظين في لفظ واحد .

٥ — والنسيان كما قلنا من قبل معد ، فقد يسمعك محدثك وأنت تقول « قرض » بدلا من « قرد » فيقول « فكيهة » مثلا بدلا من « فاكهة » في حديثه معك .

٦ — زوجة هجرها زوجها ، وتقول إنها رأته آخر ما رأته في المسرح يشهد رواية « الضابط نمرة ٦٠٦ » والواقع أن اسم الرواية « الضابط نمرة ٦٦٦ » ، وقد استنتج المحلل من هذا أن سبب الشقاء الزوجي ، هو مرض عند الزوج علاجه الحقنة نمرة ٦٠٦ ، ومن ثمة كانت زلة الزوجة في الكلام .

٧ — أعرف طبيباً كان يعود مريضاً ، وقد تماثل المريض للشفاء ، فقال له الطبيب : « سوف تستطيع قريباً إن شاء الله أن تسافر إلى الاسكندرية وتستمع بجوها هذا الصيف لأنك سوف لا تشفى بإذن الله » ، وهو يقصد طبعاً « لأنك سوف تشفى ... » ، ومصدر الخطأ أن الطبيب يطمع في مد أجل المرض كي يزداد أجره ، وهو يخفي هذه الرغبة ، ولـكن هفوة من اللسان قد تفضح خفايا النفوس .

٨ — أعرف طبيباً آخر كثيراً ماينادي زيداً باسم عمرو وحسناً باسم إبراهيم ، وهكذا يخلط بين الأسماء ، لأنه يريد أن يقول لمرضاه

إنه يعالج كثيراً من الناس ، وأن الإقبال عليه شديد ، لذا فهو لايذكر الأسماء ، ويعتقد اللاشعور أن هذه هى الوسيلة إلى مايريد .

٩ — لى صديق يحبنى دائماً أن أزوره ولكنه لا يرغب فى رد الزيارة . تحدث إلى مرة فى المسرة وطلب إلى زيارته ، فتأبيت ، وطلبت إليه أن يؤدى بعض الواجب ، ويرد ما عليه من دين لى فى الزيارة ، فقبل ، وقال لى : « هل الغد يناسبك ؟ » فقلت : « نعم » فأجاب « إذن نؤجلها للأسبوع القادم » ! وليس ثمت للتأجيل داع بطبيعه الحال ، مادام الغد يلائمنى ، ولكنه أخطأ فى الرد لأن عقله الباطن لا يحب الزيارة .

١٠ — لى صديق أبل من مرضه ، ولما سألت زوجه عما نصح به الطبيب فى دور النقاهة قالت : « يقول الطبيب أنه شفى تماماً ويستطيع أن يأكل كل ما أريد » ، وهى تريد أن تقول « كل مايريد » ، ولكنها زلت فدلت على حبها للسيطرة على زوجها .

ومن ضروب الخطأ الأخرى أن تؤدى عملا ليس لك رغبة شعورية فى أدائه ، ومن ذلك الأمثلة الآتية : —

١ — أن يكون بنفسك هم مكبوت فتضرب بالقلم على المكتب لتنفس عما تخفى .

٢ — ما يحدث أحياناً من اصطدام قاطرة بأخرى ، أو سيارة بإحدى المارة ، أو سقوط رجل وهو يتسلق شجرة ما ، ففى كثير من هذه الحوادث تكون بنفس المخطىء رغبة فى الموت لاشعورية ،

17 SEP 1987

فتنفس عن نفسها بهذه الطريقة العنيفة غير المقصودة .

٣ — كثيراً ما يريد المدرس أن يضرب التلميذ ضرباً خفيفاً عقاباً له على تقصير فى أداء واجب ما ، فيشتد فى الضرب دون وعى منه لأنه يكبت فى نفسه بغضا لهذا التلميذ .

٤ — إعتاد رجل أن يفتح منزله بمفتاح يحمله دائما فى جيبه . وقد لاحظ أنه يخرج المفتاح أحيانا ويحاول فتح باب صديق له كلما توجه لزيارته ، ومعنى هذا أنه يألف المكان ، ويحب هذا الصديق فلا يرى فارقا بينه وبين نفسه ، وهذه العملية اللاشعورية دليل على ذلك .

٥ — وعرفت رجلا آخر تعود أن يحمل مفتاحين أحدهما للمكتب والآخر للمنزل ، وقد روى أنه دائما يخرج مفتاح البيت ليفتح المكتب ، ومعنى ذلك أنه يأنس إلى الراحة ويكره العمل . وقد لحظ أنه ذات مرة قام بعكس ذلك ، فأخرج مفتاح المكتب وحاول أن يفتح به المنزل ، وقد كان ذلك لأن بالمنزل ضيفا لايحب أن يلقاه .

٦ — روى لى إبراهيم أن له صديقاً يقطن بالدور الثانى فى عمارة كبيرة ، وقال إنه توجه لهذا الصديق مرتين ، وفى كل مرة يصعد إلى الدور الثالث ، مع علمه بأن صاحبه فى الدور الثانى . وبعد ماوجهت إليه أسئلة مختلفة علمت أنه فى المرة الأولى كان سابحاً فى أحلام اليقظة وكان يفكر فى « طلب العلا » ، فصعد إلى أعلى لأن

اللاشعور لايدرك أن الصعود إلى أعلى لايحقق المطلب الذى يرجو من الرقى . وكان فى المرة الثانية يستذكر نقدا وجهه له صديقه هذا مرة إذ قال له « أنت رجل متعال» وقد حاول بعقله الباطن أن يطبق « التعالى » بالصعود إلى أعلى .

ولعل القارىء قد أدرك من قبل أنه كثيراً ما يمسك بالكتاب فلا يقرأ مابه ، وإنما يقرأ ما بذهنه لأدنى علاقة بين المكتوب والرغبة الباطنة . أردت مرة أن أركب السياره رقم ١٥ ، وقد أقبلت السياره رقم ٥ ، وحدقت فيها ، ولكنى رغم ذلك قرأت الرقم المبين عليها رقم ١٥ ، ولم يتبين لى خطأى إلا اخيراً . وذلك لأنى كنت أفكر فى الرقم ١٥ فغلب تفكيرى قوه الابصار.

وهناك من الأخطاء فى الكتابة ماهو شبيه بذلك . من ذلك أن فتاة أرادت أن تهنىء أختها بمنزل جديد وجيه رحلت إليه فحررت العنوان القديم على ظرف الخطاب ، لأنها كانت تخفى فى نفسها غيرة من تمتع أختها بالمنزل الفاخر الجديد ، فظهرت رغبتها فى مكتوبها . ومن ذلك أيضاً أن موظفاً أراد مرة أن يتغيب عن العمل لغيرما سبب سوى حب البطالة والكسل ، فأرسل إلى رئيسه يعتذر عن غيابه ويقول « حدث لى اليوم حادث كنت أتوقعه . . . » وهو يريد فى الواقع أن يقول « . . . لم أكن أتوقعه . . . » ففضح أمره زلة قلمه ، وذلك لأن اللاشعور لايعرف إلى الكذب سبيلا .

17 SEP 1987

ومن الناس من تسقط الأشياء من أيديهم كثيراً ، ومنها ما ينكسر لأنه هش ، ولا يحدث ذلك لغير ماسبب باطن ، وانما لابد فى كل حالة من سبب لا شعورى . من ذلك أن الخادم كثيراً ماتنكسر منه الأطباق عفواً — كما يبدو له — ولكنه فى حقيقة الأمر يتخلص بهذه الطريقة — دون وعى منه — من مشقة غسل هذه الأطباق كل يوم.

وعدنى صديق لى مرة انه سيقدم لى قلماً ظريفاً هدية لى فى يوم عيد ميلادى . وكان لدى قلم عاش معى أكثر من ست سنوات دون أن ينكسر ؛ وما إن سمعت بهذا النبأ من هذا الصديق حتى سقط قلمى القديم من يدى وتهشم تهشيما ، وذلك لأنى كنت أريد بهذه الطريقة الساذجة أن أثبت لصديقى ضرورة القلم الجديد لى . وهكذا يمكنك أن تقول على أمثال هذه الحوادث العرضية انها مقصودة قصداً لا شعورياً .

وقد يمسك الواحد منا بسكين يريد أن يقطع به تفاحة أو برتقاله ، فتجرحه السكين فى إصبعه ، وتعليل ذلك أن كلامنا لا يحب فى نفسه شيئاً ما ، أو يكره فى خلقه خلة من الخلال ، فهو يحب أن أن يؤذى نفسه عقابا لها على مابها من عجز ونقص ، فتظهر هذه الرغبة الخفية فى ضرر يلحقه بنفسه على غير وعى منه . وكثيراً ما يصيب الواحد منا أذى ماعقب اقترافه إثما من الآثام ، وذلك لأن عقله الباطن يريد أن يكفر عن اثمه فيتعثر فى مشيته ويسقط ، أو يحدث له مايشبه ذلك .

فعلم التحليل النفسى إذن ينكر المصادفة ولا يقول بحرية الإرادة.

هب إنك وضعت قصة عن امرأة وأردت أن تختار من بين أسماء النساء جميعاً إسما لهذه القصة ، فإنك لا تقع على هذا الإسم إعتباطاً ، وإنما لا بد من سبب لاشعورى يؤثر اسما على آخر فتختار مثلا إسم فتاة أحببتها فى عهد الشباب أو ما شاكل ذلك . طلب إلى رجل مرة أن يختار رقماً أياً كان فقال « ٤٨٧٩ » ، وبالتحليل ظهر أن عمره ٤٨ عاماً وله من الأولاد ٧ ، وأن راتبه تسعة (٩) جنيهات فى الشهر ، ومن ثم تكون هذا الرقم . فالأرقام ترتبط بذكريات خاصة منسية فى اللاشعور ، فقد تؤثر مثلا الرقم ٣٥ لأنك نلت الليسانس فى عام ١٩٣٥ ، أو الرقم ٢٥ لأنك ربحت مرة ٢٥٠ جنيها .

ونختم هذا الفصل ببعض الأمثلة التى تؤيد أن سلوك الإنسان لا يقوم على المصادفة العمياء مطلقاً .

١ — كنت أسير مرة فى أحد شوارع القاهرة ، وكنت أفكر فى صديق محمد ، وإذا بى ألقاه بعد لحظة . الواقع إنى كنت لمحته بعيداً وغاب عن ذاكرتى لشرورد ذهنى فى أمور أخرى ، ثم عادت ذكراه إلى وأخذت أفكر فيه دون أن أدرك أنى رأيته من قبل ، وفيما أنا كذلك إذا بى أقترب منه وألقاه فأظن أن هذه المقابلة وقعت لمجرد تفكيرى فى هذا الصديق .

٢ — روت فتاة مرة أنها حلمت برؤيا صديقة لها فى شارع معين أمام متجر معين ، وأنها فى اليوم التالى للحلم قابلت هذه الصديقة فى

17 SEP 1987

نفس المكان . وبعد التحليل ثبت أنها لم تحلم بلقاء هذه الصديقة ، وإنما تطرق إلى ذهنها هذا الظن حينما التقت بها ، وتوهمت أنها حلمت بذلك من قبل ، وقد دخل فى روعها هذا الوهم لأنها كانت من منذ مدة قد التقت مرة بصديقة أخرى لها دون انتظار ، فذكرتها هذه المقابلة الجديدة بالمقابلة القديمة وظنت أنها كانت حلما من الأحلام .

٣ — ذهب رجل مرة مع زوجه إلى دار السينما ، وفيما بين الفصل والفصل أخذا يتحدثان ، فذكر الرجل اسم قريب لهما وأراد أن يروى عنه خبراً ، فدهشت الزوجة لأنها كانت تفكر فى هذا القريب عينه فى ذلك الحين . فما علة هذا التوافق ؟ الواقع أن رجلا يشبه هذا القريب كان فى دار السينما فعلا ، وكان يتسلل فى الظلام أثناء التمثيل ، فمر شبحه بهما وهما مشتغلان بمشاهدة الرواية ، وذكرهما الشبح بقريبهما ، وأخذا يتحدثان عنه بعد ما اختفى شبيهه وغاب عن شعورهما . لقد أثار الشبح فى ذهنيهما صورة القريب وظنا أنهما فكرا فيه معا مصادفة واتفاقا .

٤ — زارت فتاة منزلا فى الريف لأول مرة ، ولكنها أحست حين دخلت الدار أن المكان مألوف لها ، وأنها رأته من قبل . فكيف كان ذلك ؟ كان بالمنزل ثلاث بنات ولهن أخ مريض . وكانت فى سالف أيامها قد مرت بظرف كهذا حيث كانت تعرف ثلاث أخوات يقمن على خدمة أخ لهن عليل ، فذكرتها هذه الظروف الجديدة بالظروف القديمة ، وخلط العقل الباطن بين الشبه

فى ظروف سكان البيتين والشبه بين المنزلين ، وظنت أنها رأت هذا المنزل عينه من قبل .

* * *

ومن هذه الأمثلة جميعا يتبين لنا أن الهفوات قد تشير إلى خطير الآراء الخفية فى النفس ، وأن كثيراً من أسباب الشقاق الظاهرى بين الرجل وزوجه أو بين الصديق وصديقه تافه فى ظاهره ولكنه خطير فى حقيقته ، ودراسة حوادث السهو والنسيان تنم عن رغبات المرء وعن نفسيته .

17 SEP 1987

الهستريا

هذا المبحث هام جداً فى علم النفس التحليلى لأنه مصدر لكثير من حقائقه . فالهستريا أوالنورستانيا حالة شاذة تظهر مميزات النفس مكبرة بحيث يستطيع أن يراها الطبيب أو المجرب . هى كالعدسة المكبرة تحرف الشكل قليلا ولكنها توضحه . ويقول بعض الناقدين إننا فى بحث أمثال هذه الأحوال نتعرض لحوادث شاذة نادرة الوقوع ، ولذا لاينبغى لنا أن نقيس عليها ونبنى . ولكن - فى الواقع - بين الشاذ والطبيعى إختلاف فى الكم لا فى الكيف . فأعراض النورستانيا تشابه مانشاهده كل يوم من تصرفات الناس وليس فيها سوى اليسير من المبالغة . فالنورستانيا — أوالهستريا — ليست إذن مرضاً بالمعنى المعروف . إنماهى طريقة من طرق الاستجابة للمشاكل النفسية المعقدة . المرض اضطراب فى العلاقة بين الفرد والبيئة الطبيعية ، والنورستانيا إضطراب فى العلاقة بين الفرد والبيئة الاجتماعية . والأول فرع من دراسة الفسيولوجيا ، والثانى فرع من دراسة علم الاجتماع . والنورستانيا أشبه ماتكون بزلات اللسان وزلات القلم ، فلوجاز لنا أن نسمى هذه الأخيرة مرضاً ، جاز أن نعتبر النورستانيا كذلك . النورستانيا والهفوات كلاهما يدل على اختلال فى وظيفة العقل لاعلى عجز فى الجسم . والنورستانيا شبيهة

بالأحلام ، والحلم كما نعلم أمر عادى .

ومظاهر النورستانيا أما إيجابية كالتألم والخوف ، أو سلبية كنقص فى الشعور أو عجز فى كفاءة المصاب فى العمل . وهى إما فيزيقية كالقىء المستمر ، أو العمى ، أو انحراف الجسم ، أو عقلية محضة كالخوف الشديد ومس الجنون . ومن ضروب النورستانيا الشكوى من فقدان السعادة أو عدم القدرة على مسايرة الأسرة ، أو الشئون الزوجية أو الاجتماعية أو ظروف المهنة .

والهستريا نوعان : هستريا الخوف ، والهستريا الجنسية ، ويصاب المريض فى النوع الأول بالخرس أحيانا أو بشلل فى أحد أعضائه ، وذلك لأن المريض يستجيب بهذه الوسائل — وهى الصمت والجمود — للحوادث المرعبة كما كان يستجيب الإنسان الأول لكل مايهدد حياته . فقد يحدث مثلا إنفجار شديد تتحطم منه بعض المنازل فترتعد الفرائص ، ولكن معظم الناس ينجون من هذا الرعب ويتغلبون عليه ويخرجون منه سليمى العقل والجسم . ولكن هناك من يصاب عقب الحادث بالبكم وبالشلل أو الاختلال العصبى ، وهذه الإصابات كلها استجابات عتيقة لجأ اليها الجهاز العصبى عند ماوقعت هذه الصدمة التى أذهلت العقل الواعى لشدتها ، فقام العقل الباطن يستجيب للخطر بطريقته القديمة ، وهى طريقة الجمود فى اللسان والأعضاء . وأما الهستريا الجنسية فتصيب أكثر ما تصيب الفتيات لأنهن أكثر من الفتيان كبتاً للغريزة الجنسية ، ولذا فان عقل الفتاة

17 SEP 1987

الباطن يطغى أحيانا على عقلها الواعى ويحدث لها فى يقظتها تلك الحركات الشاذة وتلك التشنجات

وكانت هذه الظواهر قديماً تعلل بهذين العاملين : (١) الضعف الموروث فى الجهاز العصبى ، (٢) وجود مشكلة عويصة كالفشل فى الحب أو كثرة العمل . ولكن فرويد هبط علينا بعامل ثالث وهو وقوع أحداث معينة للمريض أثناء تطوره الجنس الباكر . ولم ينبذ العاملين الأولين ولكنه ربطهما بهذا العامل الثالث . ولذا فالحوادث التى تؤدى إلى النورستانيا يمكن وصفها بإيجاز كما يلى : يتحد العاملان الأولان وهما من أثر البيئة والتربية ويسببان حالة عقلية خاصة تجعل من العسير على المريض أن يواجه مواقف الحياة الحرجة . وتختلف هذه المواقف باختلاف الناس ، فمنهم من يستطيع ملاقاة الموت فى الحرب ولا يستطيع أن يتحدث على المائدة لأن هذا الحديث فى نظره مشكلة شديدة التعقيد . ومنهم من يتيسر له حديث الموائد ويشق عليه لقاء عدو واحد . وهذه المواقف الحرجة قد تكون تافهة فى ذاتها ، وقد تكون شاقة فعلا فى نظر الرجل العادى — كأحزان الموت ، والإفلاس ، والأخطار الجثمانية والخلقية — وقد تكون عامة جداً كالحياة نفسها ، مثل الحبوط الذى يصيب المرء فى مرحلة معينة من مراحل العمر ، أو المشكلة التى يلاقيها الصبى حينما تاق عليه التبعات العادية فى حياة الراشدين

وفى مثل هذه الأحوال قد يكون لدى المرء استعداد للنورستانيا

فيتجه إلى باطن نفسه ويسير فى طريق الفردية « Introversion » ويكون فى نفسه مجموعة من الأوهام يقصد بها إلى أن يعالج أو يمحو المشقة القائمة . وسرعان ماترتبط هذه الأوهام بالأوهام اللاشعورية فيتقهقر المريض (regresses) ويصل اضطرابه إلى الطبقات العميقة فى اللاشعور . وإذا مانشط الجانب اللاشعورى اصطرعت الدوافع الكامنة به مع قوى « الذات» وبذا تثور وتريد أن تعبر عن نفسها. ولذا فمظاهر النورستانيا ماهى إلا تعبير متنكر لهذه الدوافع المكبوتة وهذا التنكر يشبه مايحدث فى الحلم. أوبعبارة أخرى النورستانيا هى المظاهر الخارجية لصراع لاشعورى بين ناحيتين من نواحى الشخصية.

وتتميز النورستانيا عن الظواهر النفسية الأخرى التى ذكرنا من قبل (كالزلات والأحلام) بمظهرها الخارجى العملى ، وبأنها تقوم فى غالب الأحيان على عوامل جنسية فى طبيعتها ، ولذا فظواهر النورستانيا ليست إلا تعبيراً متنكراً عن الغريزة الجنسية الصبيانية ، وإذن «فعقدة أوديب» هى لب كل إصابة من هذا الضرب.

وتنجم النورستانيا — كما ذكرنا — عن صراع لاشعورى قائم فى النفس . وقد أثر الكشف عن هذه الحقيقة فى طريقة العلاج ، إذ كان هذا المرض يعالج من قبل بمجرد الحدس والتخمين ، أما اليوم فهو يعالج بالتحليل النفسى الذى يظهر جانبى الصراع ، ويخرجهما إلى الشعور ، وبذا يهيء الفرصة لإيجاد حلول مقنعة غير شاذة ، لأن النورستانيا تبقى مابقيت أسبابها لاشعورية.

17 SEP 1987

تطبيقات عامة

الطب :

لم يقدر الطب بعد قيمة التحليل النفسى حق قدره ، ومازال هذا العلم يميل إلى جانب الاجتماع أكثر منه إلى جانب الطب ، وذلك رغم أن كثيراً من نظرياته يتفق والآراء الحديثة فى الطب . فالطب الحديث - كما نعلم - يهتم بوظائف الأعضاء ، وكيفية قيامها بواجبها ، أكثر مما يهتم بالتشريح ، وهذا يتفق ووجهة نظر تحليل النفس الذى يبحث فى الكبت والصراع النفسى وما إلى ذلك ، ولذا فهو فى الواقع يهتم بوظيفة العقل وبعمله .

ويشتبك تحليل النفس مع الطب بشكل واضح فى النورستانيا . وقد كانت دائماً مجالا لفشل الطب ، وميداناً للدجالين . ولو عرفنا أن الأطباء يبذلون كل وقتهم تقريباً فيما يخص الجسم لا فيما يخص العقل أدركنا لماذا هم لايفهمون أهمية العلاج النفسى ووضع الطب فى صيغة نفسية . والواقع أن الأطباء يجب أن يعرفوا أثر العقل فى الجسم حق المعرفة .

وكما أن مدارس الطب تهمل دراسة علم النفس فهى كذلك تهمل الأمور الجنسية ومشاكلها . نحن لانريد من الطبيب أن يتخصص فى هذه الدراسات ولكنه يجب أن يلم بها إلماماً عاماً . فقد يستفيد من

معرفتها فى العلاج بطريق الوقاية ، إذ قد تكفى كلمة حكيمة لطفل أو راشد لتكفل له سعادته فى المستقبل ، وقد تكون سبباً فى عدم إصابته بالنورستانيا فى مقتبل العمر .

وليس هنا مجال البحث فى أثر العقل فى الجسم ، والعلاقة بينه وبين الأمراض . وإنما يكفينا الآن إن الغريزة الجنسية - فى نظر علماء النفس - هى عامل جثمانى كما هى عامل عقلى . إن النطفة التى يتكون منها الجنين تحتوى على الميول الفطرية جميعاً ، ولذا فهذه الميول فينزيقية فى أصلها . وكلنا يعرف التغييرات الفسيولوجية التى تصاحب نشاطها كلما تقدمت سن الطفل . وعلم النفس التحليلى يؤكد العلاقة بين العقل والجسم ، ويقول إن الغرائز قد تكون سبباً فى أمراض وعاهات جثمانية . ومن الأعراض الجثمانية البحتة مايقوم على علاقة نفسية ، فهناك مثلا من إذا رأى لحم الأوز على مائدة الطعام اشمأزت نفسه من الأكل ، وذلك لأنه أيام طفولته قد شاهد الأوز وهو يتغذى على المخلفات القذرة . وكان لقصر عقله يظن أن لحمه بعد ذبحه يحتوى على هذه المخلفات ، فيتقزز من مأكله . ولما تقدمت به السن أدرك خطأه ولكن عقله الباطن مازال محتفظاً بالعادة القديمة . وقد يفيد التحليل النفسى فى إخراج أمثال هذه الأوهام إلى دائرة الشعور وعلاج المريض .

وإذا أراد الطب أن يصل إلى علاج ناجح لمظاهر الجنون ، وجب أن يدرس العلاقة بين الجسم والعقل ، وأن يهتم بدراسة علم

17 SEP 1987

النفس التحليلى وأحل أن بعض أسباب الجنون جثمانية غير أن أنواعاً كثيرة منه تنشأ من أسباب عقلية ، وأشهر هذه الأنواع Dementia Paraecox . وعلم النفس التحليلى يعالج هذا المرض بعض الشيء . وأهم مانجح فيه التحليل فى هذه السبيل علاج Paranoia (أو جنون الوهم) والمنخوليا .

التربية :

علاقة هذا العلم بالتربية وثيقة ، ولكننا يجب ألانندفع فى الأخذ بنظرياته حتى نتثبت من صحتها . وقد أشرنا فيما سبق إلى كثير من نقط هذا الموضوع ، ونزيد عليها الآن مايلى :

١ — نلاحظ أن الطفل يقاوم عمليـــة التعليم ، عملية تلقى المعلومات ، وذلك رغم تعطشه للمعرفة ، وذلك لأنه ينظر إلى العلم كأنه نقد لنقص فيه ، ويرى أن التعليم يتضمن الاعتراف بجهله ، وأن التربية أشبه بعلاج عيب فيه . وفى هذا انتقاص من قدره لنفسه ؛ وهذا يعرقل تعلم الطفل رغم ذكائه . والأطفال لايحبون النقد الخلق ، ومن الحق أن نقول إنك كلما أشرت إلى الجانب الخلق فى الموضوع عرقلت سير الدرس وأضعفت ذكاء الطفل . والسبب فى ذلك يؤدى بنا إلى النقطة الثانية .

٢ — المدرسون لهم فى نظر الطفل معنى الآباء فى اللاشعور ، وليس

ذلك فى ظاهر الأمر فقط ، وفى سلطة المدرسين وحسب ، ولكنه يشمل كذلك علاقات الحب . ويظهر ذلك خاصة فى تعليم البنات فى سن معينة . والتعليم المنتج يتوقف على المحبة المتبادلة بين المعلم والتلميذ . وأية نظرية فى التربية يجب أن تحسب حساب العواطف والخواطر المكبوتة .

٣ — أما فيما يتعلق بالمادة نفسها التى تعطى للطفل ، فنحن نعرف أن مقدرة الأطفال على تمثيل المواد تختلف من فرد إلى آخر ، ويرجع ذلك — فى نظر علماء التربية — إلى الكفاءة العقلية ، أو النقص العقلى . ولكن علم النفس التحليلى يقول إن السبب فى معظم الأحوال هو مقاومة أو تسام من جانب المتعلم . ويتعلق هذا بالروابط اللاشعورية عند الطفل للمادة ، فقد يكره الطفل مادة الحساب مثلا لعلاقة لا شعورية ترتبط فى ذهنه بها ، كأن يرتبط العدد على الأصابع — وهو من المراحل الأولى فى تعليم هذه المادة — بالكراهية ، لأن أمه كانت تحرم عليه وضع الأصابع فى الفم . وقد يكره الطفل أرقاماً دون الأخرى لأنها ترمز لأشياء لايحبها . وكثيراً مايحدث أثناء التحليل أن ترتقى كفاءة الفرد فى ناحية ما بعد ما يتبين له المكبوت اللاشعورى الذى يتعلق بها . وتشككنا هذه الحقيقة فى اختبارات الذكاء لأن العقل الذى نقيسه ليس شيئاً واحداً لدى الأطفال جميعاً .

وقد دل تحليل النفس على أن شخصية الفرد يكاد يتم تكوينها فى

17 SEP 1987

سن الخامسة ، ولا يكون للمؤتمرات الخارجية بعد ذلك إلا أثر سطحى . وخلال هذه السنوات الخمس يمرّ الطفل بأدوار عاطفية معقدة استغرق الجنس البشرى فيها خمسين ألف سنة ، ولذا تقوم بنفس الطفل ضروب كثيرة من الصراع العقلى ، بين الوحشية والمدنية ، وواجب المربى أن يتحلى بالصبر مع الأطفال ، وأن يقدر مشقة ما يعانون .

والحب ضرورى لتنمية عقل الطفل ضرورة الطعام للجسم . ولكنا ينبغى رغم ذلك أن نبعد هذه العاطفة النبيلة عن مظاهر الغريزة الدنيئة . وكلما كان تعليم الطفل قائما على ما يجب ويهوى لا على الدروس الخلقية العلمية ، خفت حدة الصراع فى نفسه .

والصراحة ضرورية فى تربية الأطفال ، لأن إخفاء بعض المعلومات — وبخاصة الجنسى منها — له أثر سىء ، لأن الأطفال يعلمون عادة — شعوريا أو لا شعوريا — عن الموضوع أكثر مما نتوهم . كما أن الصراحة تنفس عن مكنون اللاشعور .

والظاهر أن الأطفال جميعا يمرون بدور أشبه ما يكون بالنورستانيا ، وبالتحليل تزول الأمراض .

ويفيدنا تحليل النفس فائدة عملية فى التربية ، وذلك لأنه ينبهنا إلى أن جرائم الأطفال ترجع إلى أخطاء الوالدين فى التربية ، فالسرقة قد تكون انتقاما من قسوة الأم ، أو من إخفاء المعلومات الجنسية عن الطفل . والعصيان قد يكون غيرة من الأب لأن الأم توليه

بعض حبها . ويعلل لنا تحليل النفس اختيار بعض الرجال لمهن خاصة دون غيرها ، فمن يحب الجراحة من الأطباء مثلا قد يكون مصابا بالسادزم .

وكثير من المدارس فى أوروبا اليوم توجه الأطفال إلى المهن التى يدرسونها على أساس التحليل النفسى .

وأخيراً ينبغى ألا ننسى أن حوادث الطفولة تندس فى العقل الباطن وتؤثر فى الرجل . فأنا مثلا أخاف الكلاب حتى اليوم لأن أمى كانت ترهبنى بها أيام الصغر ، وأخى يكره اللغة العربية لأنه كان يكره مدرسها ويمقته .

الاجتماع والسياسة :

تهتم النظم الإجتماعية والقوانين المسنونة بالسعادة المادية والحياة الاقتصادية والصحية الخ . . من ناحية ، ولكنها تهتم كذلك من ناحية أخرى بقيمة النفوذ والشرف والوطنية ، والصراع بين الطبقات وبين الجنسين ، ونظريات الحكم ، والفكرة العامة عن العدالة ، وعن تنظيم السلوك الخلقى ، وما الى ذلك . ومن الجلى أن العوامل الشخصية تؤثر فى هذه النظم جميعا . وتحليل النفس يلقى ضوءاً على هذه الموضوعات بإشارته إلى العوامل اللاشعورية التى تؤثر فى الحكم . ويرى تحليل النفس أن الجانب الأكبر من النشاط العقلى ، الذى يتجه نحو هذه المصالح ، مشتق من ميول اللاشعور البدائية ، وأن

17 SEP 1987

دراسة اللاشعور على ذلك ـ تهيء لنا الفرصة للنظر فى هذه النظم نظرة موضوعية حرة .

فموضوع الصحة مثلا محاط بكثير من الأوهام والمخاوف والتحريم، التى لا يختص بها العامة وحدهم . وفى ميدان الاقتصاد قل أن يفكر الإنسان حراً ويسلك سلوكا عادياً فى موضوع يخص المال .

والحرب لا تمتنع إلا إن عرفت أسبابها اللاشعورية ، لأنها فى غالب الأحيان تقوم على أضغان دفينة فى العقل الباطن لا يدركها الباحث فى ظواهر الأمور .

ونظرية الحكومة تتوقف على العلاقة بين الطفل والوالد ـ وهى من دراسات تحليل النفس ـ لأن العلاقة بين الحاكم والمحكوم ليست سوى صورة مكبرة لهذه العلاقة . واهتمام الناس بحياة الأسرة المالكة هو مطابقة لاشعورية بين هذه الأسرة وأسرنا ، فالملك رمز لاشعورى للأب ، والملكة رمز للأم . ونحن نعرف مما سبق أن الولد يحب والده كما يكرهه ، فكان الإنسان قديماً يحب الملكية ويمقتها فى آن . أما فى العصور الحديثة فقد حاولت الشعوب أن يكون شعورها نحو مليكها حباً خالصاً ، فأسندت السلطة التنفيذية إلى رئيس الوزارة ، بحيث تستطيع إسقاطه إن اشتد بها المقت لسياسته ، ولا يبقى بنفسها نحو مليكها إلا جانب الحب وحده . وليست مطالبة الشعوب حكوماتها بالقيام بكل أسباب الراحة لها سوى استمرار عقيدتنا بأن الأب قادر على كل شيء . وقبولنا نفوذ القادة علينا شعور من جانبنا

بالطفولة ، ومعنى الاستقلال أن الأمة قد بلغت سن الرشد .

وكثير من العلاقات الاجتماعية يرجع إلى الغريزة الجنسية ، كمسائل الزواج والطلاق وتحديد النسل ، واليوجونية ، وأسباب الشحناء بين الجنسين . كل ذلك نتيجة لصراع لم ينته، ويتعلق بتطور الغريزة الجنسية .

وفى هذه الأيام ثورة ضد نظام الأسرة ، ولا يمكن معرفة أسبابها إلا بالتحليل النفسى .

وقادة الأمم يدركون أن الإنسان وسط الجماعة تنحط عقليته لأنه يتخذ نفسية القطيع ، التى أساسها اللاشعور أكثر من الشعور ، فلايحاولون إقناع الجمهور بالحجج المنطقية ، وإنما بالتكرار. ويقول جوستاف لوبون إن رأى الجماعة منحط لأنه رأى العقل الباطن ، ولذا فأحكام المجالس النيابية أقل نضوجا من رأى الفرد . وثورة الجماعة أيسر وأسرع من ثورة الفرد .

الجرائم والقانون :

الجدل بين الأطباء ورجال القانون فيما يختص بالتبعة الخلقية قديم معروف. هل الخطيئة مرض أو جريمة ؟ يرى رجال القانون - وقد تبعهم الأطباء فى ذلك - إن هناك فارقا بين الجريمة التى تنشأ عن المرض ، والجريمة التى تنشأ عن انحطاط فى الخلق ، وأن النوع الثانى نتيجة لحرية الارادة . وقد انساق الأطباء لرجال القانون ،

17 SEP 1987

وأصبحوا يميزون بين الصحة العقلية والمرض الجثمانى ، وهم بذلك يتخطون حدود علمهم ويعترفون بحرية الإرادة ، وإنكارها أهم ما يميز «العلوم» .

ولكن تحليل النفس ينكر حرية الإرادة ويؤكد الجبرية . والسلوك فى كثير من الجرائم لا يقوم على عقل أو منطق ، وفى هذا دليل على قيام عوامل لاشعورية بنفس الجارم . وقد ضربنا من قبل مثلا السرقات التافهة kleptomania وقلنا إنها نتيجة غير معقولة لمقدمات سابقة ؛ هى تخفيف عن موقف لاشعورى أليم ، وحل لصراع يستعر فى النفس ، لأنها لون من ألوان التنفيس ، وضرب من ضروب السلطة والنفوذ . ومن مكتشفات تحليل النفس أن الفرد يرتكب الجرم ليخفف به عن رغبة لا شعورية فى ارتكاب جرم أشد وقعاً .

وتحليل النفس يعترف بالجبرية إلا أنه لا ينفى ضرورة العقوبة ، ولكن من واجبنا أن نبحث أولا عن العوامل الباطنية . أن فهم طبيعة الناس ونفسيتهم تقتضى ثورة فى القانون ، ومن ثم كانت مقاومة الهيئات المسئولة لعلم النفس ، وعلم النفس التحليلى بنوع خاص .

ومن أسباب الخطأ فى أحكام القضاة أنهم قد يعكسون project مشاعرهم الخاصة على المتهمين ، وقد يكشفون فى غيرهم ما يجهلون فى أنفسهم ، وقد تأثر أحكامهم بالصراع القائم فى نفوسهم . وما

يقال عن القضاة ، يقال عن المحامين والشهود ، وهؤلاء بنوع خاص ، لأن رؤيا الشيء تثير العاطفة أكثر من سماعه .

وقد دلنا علم النفس التحليلي على طريقة جديدة فى اكتشاف الجرائم ، وذلك باستخدام تداعى الألفاظ . فيمكنك فى قضية القتل مثلا أن تذكر للمتهم كلمة « سكين » وتطلب إليه أن يقول فوراً وبغير تفكير كل ما يجول بخاطره على أثر هذه الكلمة ، فإن ذكر كثيراً مما يتعلق بالجريمة التى يراد الكشف عنها ، كأن ذكر أشياء وجدت فى حجرة المقتول ، كان ذلك من دواعى تأكيد إتهامه .

الفن والأدب :

الفنون حب لا شعورى للمناظر أو الألوان أو الأصوات أو الآراء . والفنان العبقرى لايعمل إلا كما « يوحى إليه » ومعنى الوحى اتصال الحياة الخارجية باللاشعور . وينبغى ألا يكون الحافز للفنان إطفاء شهوته وحسب ، وإنما يجب عليه كذلك أن يعمل على تخفيف الآلام الخفية عند الآخرين . فمن عمل الأديب أن يقدم الصور الكريهة فى صيغة مقبولة . « فالمأساة » مثلا لذيذة فى قراءتها أو مشاهدتها رغم أنها أليمة فى نهايتها . وذلك لأنها تلمس فى خفايا نفوسنا ضعفاً وتحاول أن تعالجه . ودراسه الأدب على الجملة ممتعة للأديب وللقارىء لأنها تخفف كثيراً من مشاكلنا اللاشعورية . فإن كانت القصيدة مثلا خلواً من المعنى ولاتقوم إلا على الوزن والقافية كانت

17 SEP 1987

نظما ولم تكن « شعراً » ، لأن جانباً كبيراً من لذة الشعر يرجع إلى مايحوى من آراء وما ينطوى عليه من علاقات جديدة بين الأشياء التى يتعرض لها . وهذه الآراء وتلك العلاقات تمثل ما يقوم باللاشعور ، ولن نستطيع الكشف عنه إلا بمعونة التحليل النفسى .

وكثير من خير المنتجات الأدبية يقوم على حقائق نفسية ثابتة ، فرواية « أوديب » التى قتل فيها الابن أباه ، و « الكترا » التى قتلت أمها ، تبين لنا ازدواج الشعور الذى أشرنا إليه من قبل .

وفى الأدب اليونانى القديم أن « فيدرا » أحبت ابنها ، و « ميديا » كرهت ابنتها وكانت تغار منها ، و « هيراكليس » قتل أبناءه ، كما أن « كليوباطرة » و « هلن » فى طروادة و « دليلة » فى العهد القديم ، كل أولئك أمثلة فى نظر آدلر « لرغبة التذكير » و « هاملت » مثال « للجحود » فى حب الأم ، ولذا فهو لا يتزوج من « أوفليا » ، كما أنه كان يرغب لاشعورياً فى قتل أبيه ، ولذا فلم يفلح فى الانتقام له .

والرواية اليوم تقوم على التحليل النفسى ، ومن أشهر الكتاب الذين تأثروا بهذا العلم « لورنس » و « هكسلى » و « رادكلف »

وتلمس فى الفن كذلك أثر اللاشعور ، فالنحاتون يحبون الأشكال الدائرية ، والأشكال البيضية لأنها تمثل استدارة المرأة .

وتطور الآداب والعلوم دليل على صحة هذا العلم ، فالآداب القديمة كلها من وحى العقل الباطن . وفى العصور الوسطى كثر الجدل

والبحث فى علم الكلام ، وهو مظهر من الصراع بين العقل الباطن والعقل الواعى . وفى العصر الحديث طغى العلم على ألوان المعرفة الأخرى ، والعلم مظهر لانتصار العقل الواعى . وحتى الأدب نفسه فى العصر الحديث قد تأثر بالعلم ، فعندنا مثلا هـ . ج . ولز يكتب فى البيولوجيا والعلوم ، ورواياته تتأثر بالعلوم البحتة .

والفكاهة مثل قوى لإثبات قوة الغريزة الجنسية ، فالنكتة عند العامة فى مصر تدور حول تورية فى الغريزة الجنسية . ومادة الأدب والفنون مليئة بما يثبت شدة هذه الغريزة . فتماثيل المرأة كثيرة ، والشاعر يتغزل بالغوانى أو يرمز برسوم الدار لحبيبته . فإن أشبعنا الغريزة الجنسية انحطت الآداب والفنون .

الأساطير والخرافات الشعبية :

الخرافات كلها من نتاج الوهم البشرى . والميثولوجيا صورة متنكرة لرغبات الإنسان ومخاوفه البدائية . وتشبه طريقة التنكر والدافع إليه ما يحدث فى الأحلام . والشبه على الجملة قوى بين الأحلام والأساطير .

إن الطاقة الحيوية التى لا تستطيع الانصراف إلى الحياة تتمثل فى الأساطير التى تحقق الرغبات ، كما تتمثل فى القصص الخرافية . وقد تخلصت الديانات الكبرى من خرافات الميثولوجيا باهتمامها بشئون الحياة الواقعية وبالمثل الخلقية العليا .

17 SEP 1987

وفى ديانات قدماء المصريين واليونان نرى أن الأسرة لها أثر كبير ، والعلاقات العائلية تخالف ماتألفه اليوم ، بل تخالف المثل العليا لهؤلاء القوم الأقدمين أنفسهم . ليس من المبالغة أن نقول أن أهم ماكان يشغل الأذهان هو الزنا مع من لا يصح الزواج منهن (Incest) ، والخصى ، والشئون الجنسية عامة واضحة فى الميثولوجيا . وهى واضحة كذلك فى حياة الطفل وتكون جانباً هاماً من عقله الباطن حينما يبلغ سن الرشد . ولا تظهر أمثال هذه الآراء اليوم فى الميثولوجيا ، ولكنها تبدو فى النورستانيا . ونلاحظ أن أفراد القصة الميثولوجية هم أفراد الأسرة .

وتمثل بعض الأساطير آراء الأطفال . فالطفل يظن أنه أعلى سبباً من أحد والديه أو كليهما . ولا يختلف هذا الوهم الصبيانى عن عقيدة كل شعب بأنه من أصل كريم .

وتقسم الخرافة الحوادث قسمين : مايجلب السعادة ، وما يجلب النحس . وقد يكون السبب علاقة بين الحادث وبين فكرة لا شعورية. فإن كان الحادث مما يؤدى إلى حسن الحظ فهو - لاشك - يتصل برغبة نريد تحقيقها . وإن كان مما يؤدى إلى نكد الطالع ، فهو يتصل بشىء نضمر له الكراهية فى العقل الباطن .

الدين :

من الأوجه الهامة فى علم النفس التحليلى ، التى لم تنل حتى اليو

إهتماما كبيراً من الباحثين ، علاقته بآراء الفلاسفة الأقدمين وكتاب الدين فيما يختص بالروح ، ولدينا من المخلفات القديمة كثير مما يشير إليها ، وهى لا تزال اليوم على جانب كبير من الأهمية ، كما كانت بالأمس . فنحن لا نطمع فى إيجاد فلسفة جديدة تحل محل فلسفة أفلاطون وشيشرون ومن إليهما ، ولا نستطيع أن نخلق مثلا أعلى لكمال الإنسان أرقى مما ورد فى الأديان السماوية . ولقد تغيرت الظروف الاجتماعية وتقدم العلم ، مما يجعل بعض ماورد فى الفلسفات القديمة باطلا ، ولكنها - رغم ذلك - قد أتت إلينا بكثير من الأحكام العملية الخاصة بالروح التى أيدت صدقها الخبرة الطويلة .

ولذا فعلم النفس الحديث يجب أن يقوم بتأييد وشرح وتتمة الآراء العظيمة التى جاء بها كبار المفكرين ، لا بنقضها ومحاولة الغض منها . ومن ثم كان علم النفس فى الواقع تتمة لمجهود بدأ منذ عهد قديم .

كل عصر جديد يحتاج إلى ترجمة الحقائق القديمة إلى اللغة الحديثة . ومن الخطأ أن نظن أن الأقدمين لم يعالجوا موضوعات التسامى والعقد واللاشعور لأن هذه الألفاظ لم ترد فى مؤلفاتهم . إنما واجبنا أن نوجد الصلة والرابطة بين آرائنا وآرائهم ، فإننا بذلك نوسع دائرة البحث توسيعاً لا حد له . وإذا ظل علم النفس التحليلى معتمداً على مشاهدات وبحوث علماء النفس فى العصر الحديث فيما يختص بالشواذ من الناس ، فسيبقى علماً ضيقاً لا يحتمل التوسيع ، ولن يصبح العلم واسعاً حتى يخرج من دائرة الأمراض النفسية وعلاجها إلى دائرة

17 SEP 1987

أعم وأوسع وحتى تطبق حقائقه على الأصحاء والعاديين من الناس كما تطبق على المرضى والمصابين بالأمراض العصبية .

إن علماء النفس وأطباء العلاج النفسى يتحدون مع الفلاسفة الأقدمين وعلماء الاجتماع فى الغرض : وذلك هو البحث عن خير السبل لتوفير الصحة والسعادة للإنسان . وطريقة طبيب التحليل تهيئة السبيل للفرد كى يتسامى بغرائزه ، أما المصلح الاجتماعى فينشد الإصلاح بالتربية والتشريع والملاءمة بين الانسان والبيئة . ويسعى رجال الدين إلى هداية الناس عن سبيل العبادة وتقليد الإنسان الكامل « كالمسيح » و « كمحمد » عليه السلام .

وقد بينا من قبل أن التسامى الناجح ما هو إلا ملاءمة للبيئة ، وعالم النفس كالمصلح الاجتماعى يسعى لايجاد طريقة للتفكير ، وأسلوب للعيش يوفر منفذاً كافياً للفرد فى البيئة التى يعيش فيها . هذه الملاءمة كما بينا من قبل ينبغى أن تتوفر فيها شروط ثلاثة : اللذة للفرد ، والنفع للجماعة ، وتحقيق المثل الأعلى للإنسان ، والدين أرقى صورة من صور التسامى .

والتحليل النفسى كبقية العلوم يميز بين ما يقوم على العقل وما يقوم على العقيدة . وقد ألقى الضوء على حقائق متعددة مما يختص بالدين .

فلقد هدانا إلى أن بعض العمليات العقلية الظاهرية تتأثر بالعمليات اللاشعورية . ويحدث ذلك خاصة فى الأمور الشخصية ، فإن المر حينئذ يفلسف الموضوع ، أو يجعل له صبغة روحية أو عقلية . وقد

تكون الحقائق التى يصل إليها الإنسان مطابقة أو غير مطابقة للواقع .

ولقد هدانا إلى الشبه بين المسيحية والحياة العائلية ، فالإله هو الأب ومريم هى الأم والإبن هو المسيح .

والخطيئة فى عصيان « الأب » أو عدم تقديس « الأم » ، وهما فى مغزاهما الإحساس « بعقدة أوديب » عند الطفل .

والدار الآخرة تحقق رغبة الإنسان فى العيش الرغد الناعم . و « الخلاص » فى المسيحية معناه الائتلاف مع الوالدين .

والميثولوجيا - وهى الصورة الساذجة للديانات الأولى - تمثل النورستانيا عند الاطفال ، ولما تطورت الميثولوجيا إلى الديانات السامية كان دعاة الأديان دائماً من العباقرة الذين هم إلى المصابين بالنورستانيا أقرب منهم إلى الأفراد العاديين .

خاتمة :

لقد حاول داروين أن يبرهن على العلاقة بين جسم الإنسان وبقية الأحياء فى هذه الدنيا ، ويحاول فرويد أن يفعل ذلك فيما يختص بالعقل البشرى . فبحوث علم النفس التحليلى تؤيد بحوث البيولوجيا ، وذلك أن الإنسان لايزال فى دوره الأول من التطور . فالشعور حديث فى نفسية الأفراد ، وأما اللاشعور فراسخ قديم . وتسعة أعشار عمالنا على الأقل من وحى اللاشعور وحثه .

إن سيطرة الإنسان على الطبيعة أقوى من سيطرته على نفسه ، فالإنسان يجلب لنفسه الشرور بالحروب وما إليها . وإن اليوم الذى يسيطر فيه المرء على لاشعوره ليبدأ دوراً جديداً فى حياة البشرية . ويسعى علم النفس التحليلى إلى إخضاع اللاشعور لسلطان الإنسان .

17 SEP 1987

فهرست الكتاب

صفحة

٣ المقدمة

٨ تاريخ التحليل النفسى ومباحثه

٢٣ قيمة التحليل النفسى بين العلوم وفائدته

٣٨ اللاشعور

٥٠ الطاقة الغرزية

٧٢ الخوف

١٠٢ غريزة السيطرة

١٤٢ غريزة الجنسيه

١٦٧ الأحلام

١٨٦ الاستهواء

١٩٥ السهو والنسيان

١٨٢ الهستريا

١٨٦ تطبيقات عامة

17 SEP 1987

17 SEP 1987

LIBRARY

DUE

BF
173
M2x
c.1

17 SEP 1987